الإسلام وبناء المجتمع

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام وبناء المجتمع

تأليف

الدكتور أحمد محمد العسّال



الطبعة الثامنة

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

الطبعة التاسعة

١٤١٥هـ / ١٩٩٥م



دار القلم للنشر والتوزيع

ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة 13062 الكويت

شارع السور - عمارة السور - الطابق الأول

هاتف: ٢٤٥٧٤٠٧ - ٢٤٥٨٤٧٨ - برقيا توزيعكو

البــاب الأول

نظرة الإسلام إلى الإنســان

وأصــول مَنهَجــهِ

الفصل الأول : الإنسان بين نظرتين .

الفصل الثاني : شمول الإسلام لجوانب الحياة كلها وحاجة الإنسانية إليه .

الفصل الثالث : مصادر الإسلام .

تمهـــيد

١ - في عصرنا هذا ، وفي كل عصر يحتاج الناس إلى تحديد تصوراتهم ومناهجهم عن أنفسهم وعن الحياة التي تجري من حولهم بما يضطرب فيها من أفكار وآراء . وتشتد الحاجة ويزداد إلحاحها في الأمم صاحبة الرسالات الكبرى ، ومن كالأمة الإسلامية تتبوأ هذه المكانة وتضطلع بهذه المهمة ؟ الأمة الوسط التي جعل الله رسالتها ملبية للفطرة البشرية ، متوافقة مع النواميس والسنن التي بثها الله عز وجل في الكائنات والحياة والمجتمعات ، فكانت وقافة عند حد العدل من غير إفراط ولا تفريط ولا غلو ولا تضييع . وكان منهجها تبعاً لذلك هو المنهج القويم في الاعتقاد والعمل والسلوك والنظم والتشريعات . وصدق الله العظيم :

﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ﴾ (١) ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (٢) .

٢ - وإذا كان هذا شأن هذه الأمة وطبيعة رسالتها فهي مطالبة أن تقوّم ما يجد في الحياة من آراء وتصورات لتتبين الحق من الباطل ، فالحياة تأتي كل يوم بالجديد ، وليس كل ما تأتي به حقاً خالصاً ولا باطلاً خالصاً ففيه من كل بقدر ، إذ هو ثمرة العقل البشري الذي يجوز عليه الخطأ والصواب والهدى والضلال وذلك لأنه - أي العقل - يتأثر بنوازع الهوى وضغوط البيئة والمجتمع وانحرافات الفكر والثقافة .

---

(١) الإسراء : ٩ .

(٢) البقرة : ١٤٣ .

٣ - ومن هنا كان المسلم في حاجة إلى أن يقف من فترة لأخرى وقفة تأمل ودراسة ونقد وموازنة بين الآراء والمذاهب الأخرى التي تقيم نظرتها للإنسان والكون والحياة على نحو معين تختلف فيه مع الإسلام وذلك مثل التفسير المادي للإنسان والحياة .. أو التفسير الذي يخضع نشاط الإنسان إلى دافع واحد من دوافعه ويلغى الدوافع الأخرى ، ويجعلها ثانوية .. أو المذاهب والانحرافات التى تتجه بالإنسان اتجاهاً تزهدياً ، أو اتجاهاً أنانياً عنصرياً ، تجعله يحتقر الحياة أو الأحياء من غير جنسه أو عنصره أو لونه .

٤ - هذه الوقفة ضرورية ولازمة لما أسلفنا من الحاجة إلى التبين والرؤية الواضحة ، ولما نلمس ونشاهد من التشابك والاحتكاك الفكري والمذهبي الذي وصل إليه عالمنا المعاصر ، وثمة حاجة ثالثة لهذه الوقفة لا تقل عن الأمرين الأولين ألا وهي الظروف التي اجتازتها أمتنا وتعرضت فيها للغزو الحضاري والفكري ، ولما واكب هذا الغزو من الضعف الفكري والنفسي والاجتماعي الذي ران على أمتنا مما جعل عندها القابلية للأخذ والتقليد فكان ما رأيناه عند البعض من تبعية مؤلمة لمنهج التفكير المادى وأساليبه وطرائقه ، بل وتبني أفكاره ، وما رأيناه عند البعض الآخر من التأرجح والتردد بين النهج الإسلامى وغيره مما دفعهم إلى التلفيق وعدم الوضوح .

٥ - إن أبواب هذا الكتاب تجربة حية تحاول علاج ما اعتمل في نفوس الشباب وناوش عقولهم ، وتحاول تأسيس تفكيرهم بطريقة نقدية واضحة ، تعرض للشيء من جوانبه المختلفة ثم تشير إلى الرأي الحق ، وتفتح الباب لمزيد من التأصيل والفهم ، ولمزيد من التدارس والحوار .. ومن ثم مضت خطة الكتاب متدرجة تتساءل عن الإنسان وصلته بالكون والحياة من حوله ، وما المنهج الذي يلائم فطرته ويتفق مع تكوينه ودوره في الحياة ؟ وجاءت الإجابة على هذين السؤالين في الباب الأول في ثلاثة فصول رئيسية ، الأول (الإنسان بين نظرتين) وفيه عرضنا لأهم المذاهب التي تعرض للنظرة الجزئية التي تفسر الإنسان بجانب

واحد من جوانبه وتحاول قصره عليه ، وتقلل من شأن الجوانب الأخرى بل وتجحدها وتهملها ، وبينا جناية تلك المذاهب وعقمها ، وإفلاسها والضياع الذي جرته على الإنسان ... ثم عرضنا للنظرة الشاملة التي تفسر الإنسان كُلاً متعاوناً متسقاً مع فطرته والخلائق من حوله متصلاً بخالقه وبارئه .. وبينا أن هذه النظرة راحت تميز الإنسان من بين الكائنات بعقله وحسه وروحه ، وأن ذلك هيأه للاستخلاف في هذا الكون ، وأن حقائق الكون والحياة من حوله تعضد هذا الاستخلاف وتؤيده ، كما لا يوجد أي شيء يناقض هذا أو يخالفه ثم أوضحنا نتائج النظرة الشاملة في التكامل والتناسق والاتزان والقضاء على الازدواجية في الفكر والسلوك .. الخ .

٦ - وفي الفصل الثاني عالجت شمول الإسلام لجوانب الحياة كلها وحاجة الإنسانية إليه ، ببيان أهمية العقيدة في حياة الناس وأثر ذلك على حياتهم وسلوكهم قديماً وحديثاً وبينت استعداد الفطرة البشرية للإيمان بالله وما يساعدها على الآيات المبثوثة في كون الله عز وجل ، وأن من المهم إيقاظ قوى الفطرة كلها لتستقبل هذا الإيمان وحذرت من الجحود والجمود اللذين يعطلان الفطرة ويصرفانها عن الإيمان .. ثم بينت الحاجة الماسة إلى علم الأنبياء ورسالاتهم وذلك لامتلاكهم اللغة الوحيدة التي تخاطب الفطرة وتوجهها الوجهة المستقيمة .. ومضى الفصل يبين تتابع الأنبياء وختمهم برسالة محمد ﷺ وصفاء الإسلام من التحريف والمغالاة والأسلوب الذي انتهجه في الدعوة ومسئولية الناس فرادى وجماعات تجاه الإسلام وتكاليفه وتحقيق الإسلام لسعادة الفرد والجماعة بعقيدته وأخلاقه وأنظمته وختمت الفصل بتوضيح كيف نبني أنفسنا ومجتمعنا .

٧ - واهتم الفصل الثالث ببيان مصادر الإسلام الأساسية : القرآن ، وخصائصه ، وإعجازه ، وعلومه ، وواجبنا تجاهه .. والسنة ، وحجيتها ، ومنزلتها ، ودور الصحابة والتابعين وتابعيهم في حفظها وسلامتها ، ثم الاجتهاد

ووسائله .. وذلك حتى نكون على بينة من المصادر التي نستقي منها الإسلام ، وإليها نرجع ونحتكم عند الاختلاف .

٨ - وفي الباب الثاني انتقل الكتاب إلى معالجة أهداف الإسلام في تكوين الأسرة باعتبار أن الأسرة هي المحضن الأول الذي يتلقى الوليد الصغير وهو طفل لا يدري عن الحياة شيئاً وعليها إلى حد كبير يتوقف نماؤه وصلاحه ، وفي هذا الباب عقدنا فصولاً للموضوعات الأساسية التي تؤثر في تأسيس الأسرة وهي : الأسرة في نظر الإسلام - موقف الإسلام من الجنس مع مقارنة بما حدث ويحدث من حولنا - مكانة المرأة في الحضارات الأخرى وفي الإسلام والمرأة المسلمة المعاصرة ودورها الحضاري وواجباتها - الحجاب وقوانين الفطرة وعبرة الوحي والتاريخ .

٩ - وفي الباب الثالث عرضنا لنظام الإسلام في تكوين الأسرة فكانت الفصول الآتية : الزواج ومقدماته : بينا فيه أهميته وضرورته وحاجة الفرد والمجتمع إليه ، وعالجنا المشكلات الناجمة عن بعض العادات والتقاليد الخاطئة وكذلك المبتدعات التي انتقلت إلينا من محاكاة الغربيين .. ثم أوضحنا أن تشريع التعدد إنما جاء تلبية لحاجة الفطرة البشرية عند اقتدارها أو عند مواجهتها مشكلات نفسية أو صحية أو اجتماعية وأنه لكي نصون الفرد والمجتمع من التحلل والزنا ومساوئهما لابد أن يكون في الحلال السعة التي تغني عن الانحراف ومخاطره ، وأتبعنا ذلك بدعائم الحياة الزوجية - وحقوق الأولاد وواجباتهم - ثم باهتمام الإسلام بامتداد الأسرة ونمائها بتقرير النفقات والوصايا والمواريث .

١٠ - وفي الباب الرابع عرضنا لتشريع الإسلام في الطلاق وبينا كيف عالج الإسلام مشاعر الكراهية في نفسية الزوجين ؟ وكيف كان عملياً حينما جعل الأمر في دائرتهما أولاً ، ثم في دائرة أسرتيهما بالتحكيم عند عجزهما ثانياً ، ثم الطلاق الرجعي الذي يعطي فرصتين ثالثا ، ثم الطلاق الأخير والتفريق ليغني الله كلاً من سعته . وفي كل هذه الأطوار نلمس حكمة الشارع وعدله بالضوابط

التي وضعها والحقوق التي رسمها ، وفي هذا يظهر فضل الإسلام وتفوقه وصيانته للأسرة وعلاجه لمشكلاتها ..

هذا وإن إساءة بعض المسلمين في ممارسة حقي الطلاق أو التعدد بسبب جهلهم أو انحرافهم لا تقدح في التشريع ذاته وإنما توجب وضع علاج لهؤلاء لتعديهم حدود الله وتجاوزهم أوامر رسوله بما يصون التشريع ويحقق مقاصده لا بما يؤثر عليه ويعدم فعاليته .

وبذلك يكون الكتاب قد قدم صورة قريبة لكيفية بناء الإسلام للمجتمع في دائرة التصور الفكري العام ، وهي من الأهمية بمكان ، وفي دائرة بناء الفرد والأسرة ، وهي المرحلة الأساسية في إيجاد مجتمع مؤمن يعي واقعه ويفهم واجباته تجاهه .

ولا يسعني في ختام هذا التمهيد إلا أن أشكر الإخوة الزملاء والطلاب الأوفياء على ما قدموه من ملاحظات ونصائح كان لها الأثر النافع والمفيد ، ولزوجي الفاضلة على جهدها وجميل معاونتها ولكل من ساهم في إخراج هذا الكتاب على هذا النحو الطيب الذي أرجو أن يكون وافياً بالغرض محققاً للمقصود .

والله أسأل أن يكون ما سطرته وأبنت عنه زاد علم وهدى ، وأن يتقبله قبولاً حسناً . إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

أحمد محمد العسال

الرياض في ٢١ جمادى الأولى ١٣٩٥ هـ

الموافق ١ يونية ١٩٧٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

« من الذكر الحكيم »

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً * يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً * وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَة أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً .

« صدَقَ اللّٰه العَظِيمُ »

[سورة الإسراء : ٧٠ – ٧٢]

الفصل الأول

الإنسان بَين نظرتين

الحاجة إلى معرفة النظرتين :

انشغل الفكر الإنساني قديماً وحديثاً بمحاولة اكتشاف حقيقة الإنسان ، وتصنيفه بين الكائنات الحية وتحديد رسالته ووجهته تبعاً للتصور الذي اهتدى إليه . وقد أصبح موضوع تصنيف الإنسان وميوله واتجاهاته محل جدل بين المدارس العلمية والمذاهب الفلسفية المختلفة ، كل يحاول أن يشد الإنسان إلى جانبه ويحوزه إلى وجهة نظره ليدعم رأيه ومذهبه ، وغلب على هذه المدارس والمذاهب النظرة الجزئية ، فقد حاولت أن تفكك الإنسان إلى أجزاء متفرقة فتأخذ جزءاً وتصب اهتمامها به ، وذلك كما فعلت المدرسة (الفرويدية) في تحليلها للإنسان عن طريق أحلامه وتفسيرها كل أنشطته من لدن المهد إلى اللحد على أساس أثر الدافع الجنسي ، وكما فعلت أيضاً مدرسة التطور التي حبست نفسها في جسم الإنسان محاولة إلحاقه بالحيوان وفي نفس الخط مضت الفلسفة المادية الماركسية فربطت الإنسان بالمادة وجعلته تابعا لها خاضعا لقوانينها لا حول له ولا طول ، ومن ثم جعلت العامل الاقتصادي هو المؤثر الوحيد في حياة الإنسان وعلاقاته .

وكما رأيت اتسمت هذه النظريات كلها بالجزئية ، والحق أن بعضها ، لم يدَّع ولم يُلغ الجوانب الأخرى من الإنسان ، كما فعل « دارون » ، ولكن أصحاب الهوى والمغرورين من أتباع الاتجاه الحسي الذين أرادوا أن يُلغوا من الإنسان جانبه النفسي والمعنوي ، استغلوا نظرية « دارون » وأرادوا تعميمها وإلحاق الإنسان بالحيوان .

وفي مقابل تلك النظرة الجزئية تقف نظرة أخرى تعامل الإنسان وحدة متكاملة وأجهزة متعاونة ونسيجاً مترابطاً لا تحاول تغليب جانب مهما كانت أهميته على جانب آخر ، فلا تحاول تغليب الجانب الجسدي على الجانب النفسي أو الفكري ، ولا تركز على العامل المادي في حياته وتسقط أثر الجانب المعنوي ، بل الكل يجسم حقيقة الإنسان الصحيحة المتكاملة المتوازنة وهذا معنى التسوية في خلقه التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (١) . تلك النظرة هي التي جاءنا بها الدين الحق منذ أبينا آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد عليه الصلاة والسلام .

ان تأسيس الفرق بين النظرتين واجب لا يمكن إهماله أو إغفاله ، ذلك أن تراكمات النظرة الجزئية أياً كان مصدرها وأياً كان جانب الحق فيها تترك في نفوس معتنقيها والمؤمنين بها خطأ في التصور لحقيقة الإنسان وعلاقاته بالوجود كله وبارئه مما يترتب عليه في الممارسة العملية ظلم للنفس الإنسانية ولما حولها ، فالذي يتصور الحياة على أنها الجانب المادي فقط تصاب نفسه بالجحود والنكران لما عدا ذلك الجانب ، وبذلك يجف فيه الجانب المعنوي وتصاب بصيرته بالقصر والضيق فلا يرى من الكون إلا ظاهره ، ولا ينفذ لما وراءه من حقائق وأسرار ، فتنتكس فطرته وتتنكب طريق الحق فتغدو حواسه وكأنها مشلولة عن العمل متوقفة عن تتبع الآيات المبثوثة أمامه وفيما حوله .. وذلك سر وصف القرآن الكريم للكافرين بكلل حواسهم وتبلد عقولهم ، قال تعالى :

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى

(١) الإنفطار : ٦ – ٨

(٢) البقرة : ١٧١

الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (١) . ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٣)

ورغم أن منجزات القرن العشرين العلمية أبطلت ونقضت كثيراً من نظريات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وكفكفت من غلواء النظرات الجامحة ، وأصبحت تقترب من النظرة الشاملة ، بل وتؤكدها وتدعمها ، إلا أن مخلفات النظرة الجزئية في الفكر الغربي الذي أناخ علينا بكلكله لا زالت في مكان التأثير بل والافتتان . ومن هنا لزم أن نعرض بإيجاز للنظرة الجزئية وما يترتب عليها من آثار خطيرة في التفكير والعمل والتصور للإنسان ورسالته في هذه الحياة ، ثم نعرض للنظرة الشاملة وما تقدمه من وضوح في التصور وإدراك عميق لحقيقة الإنسان ورسالته في الحياة وبذلك يتحدد المسار فنمضي على هدى وبصيرة

النظرة الجزئية وأسبابها

ملخص هذه النظرة أنها تقصر الإنسان على جانب واحد من جوانبه وتخضع الجوانب الأخرى لذلك الجانب ، ولها في الفكر الغربي ثلاثة عوامل رئيسية ، نجملها فيما يلي :

١ – موقف الكنيسة المتزمت من الاكتشافات العلمية ودفاعها المستميت عن نظريات بطليموس وأرسطو التي تدعي ثبات الأرض ، وأن الإنسان أصل الكون إلى غير ذلك مما أدى إلى فظائع محاكم التفتيش وإحراق العلماء واتهامهم بالمروق ... واتساع الهوة تبعاً لذلك بين العلماء وبين الكنيسة وظهور الأخيرة

---

(١) الحج : ٤٦ .
(٢) الأنفال : ٢٢ ، ٢٣ .
(٣) الملك : ١٠ .

بمظهر الضعيف المتهافت أمام البرهان والتجربة والحقائق التي نتجت عن الاكتشافات العلمية .

٢ - ومن ثم ظهرت فكرة الثنائية والازدواجية التي نادى بها رينيه ديكارت الفرنسي (١٥٩٦ - ١٦٥٠ م) وفرانسيس بيكون الإنجليزي (١٥٦١ - ١٦٣٠) فقد ناديا بفصل الجانب المادي عن الجانب النفسي والروحي ، وقالا : إن الظواهر المادية تفسر بالطرق المادية والظواهر النفسية تفسر بالطرق النفسية ، فالمادة والروح شيئان منفصلان .

٣ - وانطلق العلماء بروح التجريب والمشاهدة يبحثون في الجوانب المادية المنظورة ، يرصدون قوانينها ويكتشفون نواميسها وحصروا أنفسهم فيها فلم ينفذوا لما وراءها ، ناهيك عن اهتزاز العقيدة في نفوسهم نتيجة الموقف المتحجر والفكر الضيق اللذين مثلتهما الكنيسة ، فكان منطقياً أن يكون رد الفعل الجحود والنكران لما تمثله الكنيسة ، وانطلقت العلوم التجريبية وهي مبتورة الصلة بخالق القوانين ومبدع السنن والنواميس ، وبالتالي ضاقت نظرتها وانحصرت دائرتها في وصف الجانب الذي تشاهده .

وإذا كان موقف الكنيسة من العلم قد سبب هذه الأمور الثلاثة التي بينتها آنفاً من الفصل بين الدين - كما صوره آباء الكنيسة - والعلم ، وجعل العلماء يقررون الثنائية والازدواجية فيفصلون بينهما ثم يحصرون العلم في التجريب والمشاهدة وينكرون ما عدا ذلك ، فإن الإسلام وأبناءه كانوا وما زالوا على النقيض من ذلك ، فقد جاء الإسلام ليضع الإنسان على مدارج العلم الصحيحة ، لقد حرر العقل من الخرافة والكهانة والوساطة والوثنية بكل أشكالها ، وأمره باستعمال حواسه وأدوات معرفته وصحح النظرة إلى الكون والحياة والإنسان ثم أمر الإنسان بالتدبر والنظر وحثه على طلب البينة والبرهان ، وجعل من رسالة المسلم في هذه الحياة أن يعرف آيات الله في كونه وفي نفسه ومجتمعه ، وأن يستخدمها حسب السنن والنواميس التي فطرها الله عليها لإصلاح نفسه وتدبير

معاشه ورقي مجتمعه ، والاستعداد للقاء ربه .. وبهذه الروح وذلك الأفق الواسع الممتد الذي بثه الإسلام في قلوب المسلمين وعقولهم تدرب العقل الإسلامي على النظرة الشاملة وإرجاع المسببات إلى أسبابها وربط الأمور بغاياتها ، وحرر المسلمون العلم الذي وجدوه عند اليونان محصوراً في النظريات هائماً في الفلسفة والجدل والكلام وفي الفرض والتخمين إلى التجريب والاختبار ، فكانوا أول من وضع أساس الرياضيات ، ومن أوائل من أقاموا المراصد ... ومن أوائل من برعوا في تشخيص الأمراض الجسمية والنفسية ووصف أعراضهما ، ناهيك عن جهودهم في الكيمياء والصيدلة والجغرافيا وغيرها ... وعنهم أخذت أوروبا كل ذلك

الفكر الغربي يتبنى المادية الطبيعية :

إن الأسباب الثلاثة الرئيسية التي بينتها آنفاً دفعت العقل الغربي إلى تبني التفكير المادي الطبيعي ... (هذا التفكير المادي الذي يقوم جملة على تمجيد القوة المادية والمظاهر الحضارية الآلية والتفسير الاقتصادي للتاريخ البشري كما يقوم على التقليل من شأن الروحية والمثالية الإنسانية والأخلاقية) (١)

ومن هنا ندرك لماذا اتجه التفكير الغربي في تصوره للإنسان وأنشطته فوضعه في القالب المادي ولم يحاول أن يدرك الجوانب الأخرى للإنسان . ولذلك جاءت النظريات التي ظهرت في القرن التاسع عشر كلها متأثرة بالتفكير المادي ، باذلة أقصى الجهد في أن تهبط بالإنسان إلى المستوى الحيواني . وتقلل من جوانبه الأخرى ، وقد خلطت بذلك الحق بالباطل ولم تتقيد في دعواها بالمنهج العلمي الذي لا يعتمد الفرضية حتى تثبتها التجربة ويقوم عليها البرهان . وهذا ما حدث في كل الدعاوى والآراء التي تريد قصر الإنسان على جانب منه ، وسنكتفي من

---

(١) الفكر الإسلامي المعاصر وصلته بالاستعمار الغربي الحديث الدكتور محمد البهي ٢٠٩ .

هذه الدعاوى بنظريات ثلاث كل منها نظر للإنسان من جانب معين ألا وهي نظريات (التطور أو النشوء والارتقاء) و(التحليل النفسي) و(المادية الجدلية أو أثر العامل الاقتصادى في حياة الإنسان والمجتمع) ثم نتبعها بالانحرافات الأخرى التي جنحت بطريق أو بآخر إلى توجيه الإنسان إلى جانب واحد من جوانبه وتعطيل الجوانب الأخرى .

مذهب التطور :

خلاصة مذهب التطور أن الإنسان لم يوجد نتيجة عمل خلق مباشر ، وإنما هو المظهر الأعلى للحشرات أو للكائنات البدائية ، وأنه جاء نتيجة عمل القوانين لحقب سحيقة في الارتقاء نحو الأفضل [1] وبعبارة أخرى (فالأحياء الأرضية كلها قد نشأت من أصل واحد . فمن الأحياء المائية نشأت الأحياء البرمائية ، ومن هذه الأحياء نشأت الأحياء البرية ... ومن الحيوانات البرية نشأ الإنسان الذي لا يفصله عن القرد سوى حلقة واحدة) [2] . ولقد قال دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢ م) بهذه النظرية في أوج سيادة التيار التجريبي والعقلي اللذين كانا يسودان أوروبا مع ما كان يصاحبهما من التيار الإلحادي على نحو ما أسلفنا . والرجل وزميله (ولاس) وضعا ملاحظاتهما ولم يدعيا كمال النظرية ... وإنما قالا : إن هناك حلقة مفقودة بين القرد والإنسان ، ووقفا مسلِّمَيْن بعجزهما أمام سر الحياة الذي يكوّن الخلية ويحرّكها ويجعلها تنقسم . ولكن هوى وأغراض الملاحدة جعلهم يسارعون إلى الزعم نتيجة للنظرية بإلحاق الإنسان بالحيوان وأنه لا يمتاز إلا برقي نسبي ، وهو أولاً وأخيراً حيوان يجب أن يرعى جوانبه الحيوانية ويصارع من أجل بقائه ، وإذاً فمسؤوليته محصورة في هذه الحدود ، أما جانبه

---

(١) « الدين فى مواجهة العلم » للأستاذ وحيد الدين خان ، ٦٣ ، ترجمة ظفر خان ط ، دار الاعتصام ، بيروت .

(٢) الطاقة الإنسانية للأستاذ أحمد حسين ، ١٠٢ ط ، ٢ ، دار القلم ، القاهرة .

النفسي والمعنوي وحاجته إلى الإيمان والآيات المبثوثة حوله في الحياة وما يترتب على ذلك من أن له رسالة في هذه الحياة وأنه مسؤول أمام خالقه وبارئه فذلك أمر قد أراحتهم منه النظرية فضلاً عن أن يكون هناك إله أو قصد وتدبير من وراء هذا الخلق !!؟

ولم تكن الأمور بهذه البساطة فإن أي نظرية تمر بثلاث مراحل حتى تصبح حقيقة علمية وهي : الفرض ثم التجربة فإذا ثبتت تحولت إلى قانون علمي ، وبالنسبة لنظرية التطور كما سيأتي لم تثبتها التجربة ولا المشاهدة العلمية ، بل إن الحقائق العلمية التي اكتشفت بعد دارون أثبتت عكس ما زعم وادعى في ناحية الخلق والتكوين والأنواع ، وهذا إن دل فإنما يدل على أن الحقائق العلمية الصحيحة مبنية ومنبثقة من القوانين والسنن التى أودعها الخالق في مخلوقاته ، وقائمة على التدبير المحكم والتقدير الموزون التي خلقت على أساسها المخلوقات ، ولا يمكن ولا يتأتى أن يحدث تعارض أو تصادم بين معطيات العلم الصحيحة وتعليمات الوحي فهما ينبعان من مشكاة واحدة ، ولكن المشكلة تأتي إما من أهواء العلماء أو تخرصات أدعياء العلم أو الخطأ في تفسير نصوص الوحي قال الله تعالى في شأن خلقه :

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (١) ﴿ وأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إلا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (٢) ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الأعلى : ٢ ، ٣ .

(٢) سورة الحجر : ١٩ ، ٢١ .

(٣) سورة الروم : ٣٠ .

للنظرية جانبـــان :

فالنظرية لها جانبان جانب الملاحظة العامة ، وجانب النتائج التي رتبها بعضهم على هذه الملاحظات . فالجانب الأول يسجل تشابه الأحياء في قوانين الخلق وسنن التكوين والنمو وقوانين الحياة وأثر البيئات ، وهذا لا جدال حوله فإن الخلق كله ينظمه قانون الوحدة والتدبير الذي وضعه الخالق عز وجل ، ولا جدال بيننا وبين النظرية حول هذا الجانب . فإن هذا من الحق الذي لا مراء فيه وصدق الله :

﴿ سُبْحَانَ الَّذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا ممَّا تُنبتُ الأَرْضَ وَمنْ أَنفُسهم وممَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ في الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ (٢) .

أما الجانب الثاني وهو الاستنتاجات الفلسفية والتعميمات التي أرادت إلحاق الإنسان بالحيوان ، جملة وتفصيلا ، وجعله متطوراً عنه ، فهو ما يعنينا إبطاله ، وينقض النظرية في هذا الجانب أربعة أمور جوهرية تجعلها لا تقف على أرض صلبة من الحقيقة :

١ - **عجزها عن فهم سر الحياة وأصلها** : وهو ما يحرك الخلية ويدفعها للقيام بواجبها من غير اضطراب ولا تخلف ... مما يدل على القصد والغاية . يقول كريسي موريسن رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك (أن الأميبا هى مخلوق ميكروسكوبى حى على درجة كبيرة من التطور وهو مكون من ملايين لا حصر لها من الذرات في تنظيم مرتب . و(الأميبات) هي مخلوقات ذوات خلية واحدة ، قد لا يزيد قطرها على جزء من مائة من البوصة ، وتوجد في جميع مياه العالم . والأميبا تشعر بالجوع ، وتبحث عن غذائها عن قصد وعمد . وأية درجة

---

(١) سورة يس : ٣٦

(٢) سورة الأنعام ٣٨

من كبر الحجم يجب أن يبلغها الحيوان حتى نعترف بأن له رغبات وعزيمة ؟ ولكن الحجم هو لا شيء في حسبان اللانهائية ، لأن النزة لا تقل كالاً عن نظام المجموعة الشمسية . وإذا اتخذنا الأميبا مثلا للإيضاح - دون أن نزعم أن هذا المخلوق الحي ذا الخلية الواحدة هو المنبع الأصلي للحياة - فإنه يمكن القول بأن مخلوقا ما نطفيا (بروتوبلازميا) حيا ، بعد أن ضاعف تكوينه الداخلي ، قد انقسم وصار اثنين ، ثم انقسم الاثنان وصارا أربعة ، وهكذا إلى غير حد ، كما تفعل الخلايا الآن في كل مخلوق حي . فكل خلية تحتوي في نفسها ، وفي تقسيمها الباكر ، القدرة على إنتاج فرد كامل . والخلايا نفسها باقية إلا إذا وقع لها حادث أو صادفها تغير في الظروف لا قبل لها به . وهي تكوّن الخلايا البسيطة في جميع المخلوقات من حيوانات أو نباتات في الوقت الحاضر ، وبذا تكون صورا طبق الأصل من أسلافها ، ونحن بوصفنا كائنات بشرية ، أمما منتظمة من بلايين فوق بلايين من أمثال تلك الخلايا ، وكل خلية هي مواطن يؤدي نصيبه الكامل من الخدمة الخالصة في ذكاء . وهذا يختلف اختلافا بينا عن الجزئية المادية من الحياة) (١) .

وذلك يجعل النظرية تقف عاجزة عن البرهنة عن أن أصل الإنسان متطور عن خلية واحدة لأنها لم تصاحب ذلك الخلق من أوله ولا يمكن للحفريات أن تعطي ذلك وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَالْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ (٢) .

---

(١) العلم يدعو للإيمان - ٩٨ ، ٩٩ ، ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكي ط - ٦ المعرفة .
Man Does Not Stand Alon By : A. Cressy Morrison

(٢) الكهف : ٥١ .

٢ - مكتشفات علم الوراثة والنظرية :

لقد أثبتت مكتشفات علم الوراثة التي جاءت بعد دارون أن الجينات التي في الخلية هي التي تحدد النوع (كل خلية - ذكراً كانت أم أنثى - تحتوي على كروموزومات [١] وجينات (وحدات الوراثة Genes) والكروموزمية تكون النوية (نواة صغيرة) المعتمة التي تحتوي الجينة . والجينات هي العامل الرئيسي الحاسم فيما يكون عليه كل كائن حي أو إنسان . والسيتوبلازم [٢] هي تلك التركيبات الكيماوية العجيبة التي تحيط بالاثنتين . وتبلغ الجينات (وحدات الوراثة) من الدقة أنها - وهي المسؤولة عن المخلوقات البشرية جميعاً التي على سطح الأرض من حيث خصائصها الفردية وأحوالها النفسية وألوانها وأجناسها - لو جمعت كلها ووضعت في مكان واحد . لكان حجمها أقل من حجم (الكستبان) . (ما يضعه الخائط في طرف أصبعه) .

وهذه الجينات الميكروسكوبية البالغة الدقة هي المفاتيح المطلقة لخواص جميع البشر والحيوانات والنباتات . (والكستبان) الذي يسع الصفات الفردية لبليونين من البشر هو بلا ريب مكان صغير الحجم . ومع ذلك فإن هذه هي الحقيقة التي لا جدال فيها . فهل هذه الجينات والسيتوبلازمات تحبس كل الصفات المتوارثة العادية لجمع من الأسلاف ، وتحتفظ بنفسية كل فرد منهم ، في مثل تلك المساحة الضئيلة ؟ وما هو المحبوس هناك ؟ كتاب تعليمات ؟ صف من الذرات ؟.

إن الجنين Embryo وهو يخلص في تطوره التدريجي من النطفة (البروتوبلازم) إلى الشبه الجنسي ، إنما يقص تاريخاً مسجلاً ، قد حفظ وعبر عنه بالتنظيم الذري في الجينات والسيتوبلازم ، حتى أن الأم التي غذت الجنين منذ

---

(١) الكروموزوم Chromosome هي وحدة المادة العضوية والعامل في نقل الصفات الوراثية .

(٢) السيتوبلازم Cytoplasm هي المادة البروتوبلازمية التي حول نواة الخلية .

حملت به ليس لها كبير نفوذ ، لأن الجينات هي التي تقرر : هل الطفل سيشبه أباه أو أمه ؟ وليس هناك دليل على أن هذا الشبه تقرره البيئة السابقة للولادة . والتطور يحتاج عادة إلى فترات طويلة من الزمن حتى يستقر كل تغيير . إنها عملية يراد منها العمل على بقاء الجنس وتشابهه ، وهو يصل إلى درجة الكمال بحلول الروح . والخالق عز وجل قد رتب ذلك ونظمه ، فهو لا يسرع بهذه العملية لأن الإنسان لا يفهمها أو لأنه خلق عجولاً . والتطورات الجديدة تتوقف على الخواص الموجودة وعلى وجود بيئة ملائمة . فالمصادفة والحادث إذن ليس لهما سوى قليل دخل في التطور ، إلا من حيث الاختلافات بين الوالدين ، التي تحد بالفوارق التي تورث وقتئذ) (١) .

ومن هنا قال « روس ولاس » وهو من زعماء النشوء والارتقاء وهو زميل دارون لمن زعموا أن الحياة جاءت نتيجة التوالد الذاتي : (إن نواة الخلية الحية ليست شيئاً كيماوياً عويص التركيب ومن المستطاع تركيبها ثانية إذا حُللت ، ولكنها لا تكون نواةً حية ؛ إذ تكون قد فقدت بين التحليل والتركيب سراً هو سر الحياة ، فما هو ذلك السر ؟ لا جرم أن الإنسان سائر من طريق العلم إلى الاعتراف بالعجز . فكلما كشف لنا عن سر من أسرار هذا الكون الفسيح ألفاه محوطاً بكثير من الأسرار الأخرى التي يعجز الفكر الإنساني أزماناً طوالاً دون معرفة كنهها ، وستتدرج الإنسانية في كشف المغمضات حتى تنتهي إلى حد تتكاثف عنده تلك الأسرار ، وإذ ذاك يقف الفكر معترفاً بالعجز) (٢) .

٣ - علم التشريح والنظرية :

إن النظرية حبست نفسها في الجانب الجسدي والهيكلي للإنسان ومشابهته لغيره من الحيوان ، أما الجوانب الأخرى النفسية والعقلية وهما الجانبان الفريدان

---

(١) العلم يدعو للإيمان / ١٣٩ - ١٤٠ .

(٢) أصل الأنواع / ٢٧ بقلم تشارلز داروين ترجمة إسماعيل مظهر منشورات مكتبة النهضة - بيروت - بغداد ١٩٧٣ م .

اللذان يميزانه عن الحيوان ويجعلانه شيئاً آخر فلم تقترب منهما .: وحتى في الجانب الجسدى ، فقد أثبت علم التشريح فروقاً هائلة بين الإنسان والقرد . يعقد الدكتور بشارة زلزل مقارنة بين القرود والإنسان في كتابه « تنوير الأذهان في علم الحياة والإنسان » فيقول : (فإذا نظرنا إلى الإنسان على سبيل المقابلة بتلك القرود التي هي لا شك أقرب الحيوانات إليه ، نرى أن الإنسان عاش منتصب القامة على قدميه لأن سلسلة ظهره مقوسة في العنق وفي الظهر وفي الصلب ، وليس للقرود شيء من ذلك .

وقال الأستاذ بروقا Procea وتابعه كثيرون : إن السبب في انتصاب قامة الإنسان واستوائه ماشياً على قدميه إنما هو نمو الدماغ ، لأن هذه المشية تجعل اليدين مطلقتي الحركة وتجعل النظر متجهاً إلى الأفق . وطفل الإنسان يزحف على يديه ورجليه ؛ لأنه عديم الأقواس الفقرية فلا يظهر القوس العنقي إلا متى ابتدأ الطفل يضبط رأسه في الجلسة التي تعود عليها ، وذلك في الشهر الثالث من عمره ؛ وفي السنة الثانية غالباً يتكون القوس الظهري من جراء فعل العضلات الظهرية والصلبية للقطر السفلي للعمود الفقري ، وحين ذاك يبتدىء الطفل يدرج ماشياً منتصب القامة .

(وبالجملة فإن الخاصة التي يصدر عنها حسن تقويم الإنسان ويتوقف عليها امتيازه على سائر الحيوان ، هي نمو الدماغ وزيادة حجم الجمجمة ، وقد أحصى الباحثون معدل وزن الدماغ في الأوربيين فكان متوسطه في الرجال ١٣٦٠ غراما . وفي النساء ١٢٠٠ غراما ، وأعلاه ١٦٧٥ غراماً ، وأدناه ١٠٢٥ غراماً .. وما نقص عن ذلك فهو يدل على البلاهة لعلة أو آفة) .

(والقرود الشبيهة بالإنسان أكبر الحيوانات دماغاً ، ومعدل وزن المتوسط منها ٣٦٠ غراما ، وغاية ما بلغه في الأرانج ٤٢٠ غراما ، وقد عد ذلك من الشواذ .. وعلى قدر نمو الدماغ تزداد سعة القحف ويقل البروز الوجهي) .

والفرق بين الإنسان والحيوانات من هذا القبيل أوضح من أن يبيّن ، فإذا نظرت إلى جمجمة إنسان من الأعلى لا ترى البروز الوجهي بخلاف ما إذا نظرت إلى جمجمة القردة وغيرها من الحيوانات . وإذا نظرت إلى جمجمة القرد من جانب ترى الوجه شاخصاً إلى الأمام يؤلف خطاً مستطيلاً ، وذلك من الخصائص البهيمية . ويستدل على معرفة درجة هذا البروز بالزاوية الوجهية ، وفضلاً عن ذلك فإن الجزء الوجهي للعظم الوجني قليل النتوء في الإنسان بخلاف ما هو عليه في القرود ، وإذا نظرت إلى الجمجمة من الوراء لا ترى الثقب المؤخري في جمجمة الإنسان وتراه كله أو قسماً منه في جمجمة القرود . (**وهذه الأعراف الدالة على الشراسة والصفات البهيمية في القرود غير موجودة في الإنسان . ومن الخصائص الفارقة بين الإنسان والقرود إبهام الرجل ، فهو في القرود أشبه بإبهام اليد يقابل كلا من الأصابع ويلامسها ، وهو ليس كذلك في الإنسان ، لأنه يناسب فيه حالة المشي وانتصاب القامة كما أنه يناسب في القرود حالة التسلق والإمساك ...**) [(١)] .

فإذا أضفنا حقائق التشريح إلى حقائق الوراثة أضحى القول بتطور الإنسان عن الحيوان وتحول الأنواع عارياً عن البرهان والدليل .

٤ - النظرية والحفريـات :

وثمة عامل ثالث هو أن الحفريات الأخيرة أثبتت (أننا نجد في طبقات سفلى قديمة هياكل لحيوانات راقية موجودة اليوم مما يدل على حياتها في الزمان القديم ، وهي كثيرة الظهور لكنها لا تثير الاهتمام لمنافاتها لنظرية التطور . وقد أذاع البروفسور (جوهانس هورذلر) العالم السويسري بيانا في ١٠/ ٣/ ١٩٥٦ م

---

(١) الإنسان فى القرآن / ١٥٥ - ١٥٧ (نقلاً عن كتاب تنوير الأذهان فى علم حياة الحيوان والإنسان لمؤلفه الدكتور بشارة زلزل - الصفحة ١٦٧ وما بعدها من المجلد الأول للأستاذ عباس العقاد ط ٢ . دار الكتاب العربى - بيروت .

أعلن فيه اكتشاف قطعة فحم فيها فك إنسان يرجع إلى عشرة ملايين سنة وتعتبر أقدم قطعة عن الإنسان في العالم وموجودة اليوم بمتحف (بال) بسويسرا . وقد صرح بأنه لا يوجد دليل واحد من ألف يدل على أن الإنسان من سلالة القرود) .

إن مدير المتحف الوطني في كينيا الدكتور (ليكي) بعد أبحاث دامت ٢٨ عاما وانتهت في سنة ١٩٦٤ م وبمساعدة ابنه رتشارد اكتشفا نموذجين من الجماجم وقيس عمرهما بأجهزة الإشعاع الذري فبلغ مليونين وستمائة ألف سنة وحجم مخها ضعف حجم مخ القرد مما يدل بما لا يقبل الشك على أن الإنسان الحديث أقرب انتماء لهذه السلالة منه للقرد . وسمي النموذج الأول (الرجل اليدوي) والثاني الإنسان رقم ١٤٧٠ حسب رقمه في المتحف ، ويمتاز بمقدرته على المشي واقفاً وخلوه من الصفات الوحشية .

كذلك لا تزال اكتشافات القبائل المجهولة في استراليا وأفريقيا تثبت لنا وجود بشر يعيشون اليوم ليس لهم شكل جمجمة الإنسان الحالي ولا حجمها ومع ذلك يمتازون بفرق هائل عن الحيوانات وبصفات طبيعية بسلوكهم وبدينهم وبتفكيرهم) [1] .

---

(١) مجلة الشهاب العدد السابع السنة الثامنة ٢٨ شعبان ١٥/٩٤ أيلول ٧٤ م – ص ١١ بعنوان « دارون في متحف النسيان » .

وقد نشرت جريدة الأخبار المصرية بتاريخ ١٩٧٦/٨/١٤ ما يأتي : « في الأسبوع الماضي عقد الدكتور ريتشارد ليكي ، والدكتور جونسون مدير المتحف الطبيعي في ولاية أوهايو الأمريكية مؤتمراً صحفياً أعلنا فيه سراً جديداً حول عمر الإنسان : لقد اكتشف الدكتور جونسون في الحبشة ١٥٠ قطعة عظام لأطفال وبالغين ترجع أعمارهم إلى ٣,٥ مليون سنة وهذا الآثار تبين أن أصحابها كانوا يستطيعون صنع المعدات ، والمشي على نفس صورة الإنسان المعاصر » ..

كما أعلن « ليكي » عن اكتشاف جمجمة لإنسان كان يمشي على قدميه يرجع عمرها إلى ١٠٨ مليون سنة ومثل هذا الاكتشاف من شأنه أن يقلب عشرات النظريات المتعلقة بعمر الإنسان فوق الأرض ، ويرغم العلماء على إعادة النظر في التاريخ الحقيقي لأول إنسان .

وسأكتفي بهذه الحقائق الأربع الجوهرية للتدليل على قصور النظرية وعجزها عن التفسير الصحيح للإنسان على أني أحب أن أبين هنا أن دارون وزميله لم يدر بخلدهما حينما أذاعا ملاحظاتهما أن تتخذ تكأة أو سبيلاً للإلحاد . فقد كانا مؤمنين على درجات متفاوتة ، وإليك ما قاله الأستاذ العقاد عليه رحمة الله في ذلك :

(ولقد هوجم المذهب كثيراً باسم الدين ، وجعله بعضهم مرادفاً للإلحاد والمادية ، ومع هذا لم يكن والاس ولا دارون ملحدين معطلين ، وكان والاس شديد الإيمان بالله ، خامرته الشكوك في الديانة التقليدية ولم تخامره في الإيمان بالله وبحكمته ومن كلامه ما يستدل به على تصديق المعجزات وخلود الإنسان) .

أما دارون فلم يزعم قط أن ثبوت التطور ينفي وجود الله ، ولم يقل قط : إن التطور يفسر خلق الحياة ، وغاية ما ذهب إليه أن التطور يفسر تعدد الأنواع الحيوانية والنباتية ، وفي ختام كتابه عن أصل الأنواع يقول : إن الأنواع ترجع في أصولها إلى بضعة أنواع تفرعت عن جرثومة الحياة التي أنشأها الخلاق .

وقد قال والاس في كتابه عالم الحياة The World Of Life متحدثاً عن دارون : (إنه على ما يظهر قد صار إلى نتيجة واحدة . وهي أن الكون لا يمكن أن يكون قد وجد بغير علة عاقلة ، ولكن إدراك هذه العلة على أي وجه كامل يعلو على إدراك العقل البشري) .

ثم عقب والاس قائلاً : (وإنني لأولي هذه النظرة كل عطفي وشعوري ، ولكنني مع هذا أرى أننا مستطيعون أن نلمح قبساً من القدرة التي تعمل في الطبيعة ، يساعدنا على تذليل الصعوبة البالغة التي تحول دون العلم بحقيقة الخالق الذي لا أول له ولا آخر)

ولما سئل دارون عن عقيدته الدينية سنة ١٨٧٩ قال في خطاب إلى مستر فورديس Fordyce صاحب كتاب « ملامح من الشكوكية » : (إن آرائي

الخاصة مسألة لا خطر لها ولا تعني أحداً غيري ، ولكنك سألتني فاسمح لنفسي أن أقول : إنني متردد ، ولكنني في أقصى خطرات هذا التردد : لم أكن قط ملحداً بالمعنى الذي يفهم فيه الإلحاد على أنه إنكار لوجود الله ، وأحسب أن وصف اللاأدري يصدق عليّ فى أكثر الأوقات - لا في جميعها - كلما تقدمت بي الآيام) . وقد كتب قبل ذلك (سنة ١٨٧٣) إلى طالب هولندي سأله السؤال نفسه ، فقال : (... إن استحالة تصور هذا الكون العظيم العجيب وفيه نفوسنا الشاعرة - قائماً على مجرد المصادفة - هي في نظري أقوى البراهين على وجود الله ، ولكنني لم استطع قط أن أقرر قيمة هذا البرهان) [١] .

نظرية التحليل النفسي

وإذا كانت نظرية دارون حاولت إلحاق الإنسان بالحيوان ، فإن نظرية فرويد قد مشت قدماً في نفس الطريق ولكن من زاوية أخرى ، هي زاوية الدافع الجنسي ، فقد كان فرويد يعالج مجموعة من المرضى الشواذ واتخذ من تفسير أحلامهم ما جعله يشرح (التكوين النفسي للإنسان بأنه ثلاث درجات بعضها فوق بعض أولها وأدناها الطاقة الشهوانية وموطنها الذات السفلى (id) وهي طاقة جنسية في أساسها ، وبعد ذلك توجد الذات (ego) وهي النفس الواعية التي تواجه المجتمع وتحتك به وتحاول التوفيق بين الرغبات المتناقضة في داخل النفس وبين الحقيقة اللامادية الخارجية والعنصر الثالث في النفس هو الذات العليا (Super ago) وهو ينشأ من تقمص الطفل بشخصية والده وحينئذ تنشأ عقدة (أوديب) كنتيجة طبيعية لحب الولد لأمه حباً جنسياً يحول وجود الأب دون تحقيقه ، فيتكون في نفس الطفل نحو أبيه شعور طرفاه الحب والكراهية في آن واحد ، ثم يتخلص الطفل من هذا الصراع - إذا قدر له أن يسير في الخط الطبيعي - بأن يزيد تلبسه بشخصية والده . أما البنت فإنها تتخذ الموقف المقابل

---

(١) عقائد المفكرين للمرحوم العقاد : ٦٧ - ٦٩ دار الكتاب العربى - بيروت .

وتتخلص من العقدة بزيادة تلبسها بشخصية أمها ، وعند ذلك ينشأ الضمير وتكون مهمته الكبت والقمع للشهوات الجنسية غير المرغوب فيها ، وذلك لحماية الذات من عسف ذوي السلطان في الخارج : الأب أو المجتمع أو الدين أو التقاليد) [1] . وهذا الكبت الذي يمارسه الضمير على النفس يجعل العقدة تترسب في اللاشعور ومن ثم يحاول اللاشعور التنفيس عن نفسه كلما وجد سبيلاً يستطيع به أن يغافل السلطات العليا متمثلة في الأب أو المجتمع أو الدين والأخلاق . وكي يكون الإنسان سوياً لابد أن يتخلص من هذه القيود ويمارس رغبته الجنسية ، وقد حاول فرويد أن يفسر سلوك الإنسان من المهد إلى اللحد على أساس هذا المعنى ، وبذلك ألغى من الإنسان جوانبه المعنوية والخيرة ونفى أن يكون هناك ضمير خير في الإنسان .

وهذه مغالطة مكشوفة وواضحة فأمامنا الأنبياء والمصلحون والخيرون من العلماء والمفكرين وسواد الناس الذين ضربوا أروع الأمثلة ابتغاء وجه الله وتحقيقاً للقيم التي آمنوا بها .

ولو أن فرويد قصر تفسيره على الشواذ الذين كان يعالجهم لأخذنا تفسيره على أنه رأي من الآراء تمحصه التجارب والمشاهدات ولأنصف من نفسه ، ولكنه عممه على البشرية كلها ، بل وحاول أن يفسر الدين والأحداث الاجتماعية على أساسه ، وجاءنا بآراء ملتوية بعيدة عن الحق والصواب وذلك كقوله عن المسيح : (إن أساطير المسيحية تصور فى حقيقتها رغبة الابن المسيح في قتل والده (الرب الإله) ، وإن كان قد كبت هذه الرغبة فقتل نفسه هو بدلاً من أبيه ، ولكنه في الوقت ذاته أصبح إلهاً مكان أبيه !!) [2] .

---

(١) الإنسان بين المادية والإسلام للأستاذ محمد قطب : ٣٢ - ٣٣ نقلاً عن كتاب : The ego and the id .

(٢) المصدر السابق نقلاً عن كتاب Totem and Taboo ص ١٥٤ .

وقوله عن نشأة الدين : (لقد حدث في جيل من أجيال الإنسانية الأولى أن أحس الأبناء برغبة جنسية نحو أمهم ولكن سطوة الأب كانت تمنعهم من الشهوة الآثمة ، فتآمر الأولاد على قتل أبيهم ليتخلصوا من سطوته ويستأثروا بأمهم ، ولكنهم ما كادوا يفعلون ذلك حتى أحسوا بالندم وتملكهم الشعور بالخطيئة فأقسموا ليقدسن ذكرى أبيهم القتيل ، وبذلك نشأت أول ديانة على ظهر الأرض وهي الطوطمية . (وكل الديانات التي جاءت بعد ذلك هي محاولات لحل المشكلة ذاتها (إحساس الأبناء بالجريمة) ، وهي تختلف بحسب مستوى الحضارة التي ظهرت فيها ، والوسائل التي تطبقها ، ولكنها جميعاً تهدف إلى شيء واحد ، هو رد فعل لنفس الحدث العظيم (قتل الأب) الذي نشأت عنه الحضارة ، والذي لم يدع للإنسانية منذ حدوثه لحظة واحدة للراحة !) [١] .

ويقول فرويد في مقال آخر بعنوان [٢] Neurosis of Demoniacal Possession Father Substitute (من المعلوم لدينا في التحليل النفسي أن الله ما هو إلا بديل الأب) أي أنه انطباع لصورة الأب التي يكونها الفرد في طفولته وبالرغم من أن البالغ قد يغير مفاهيمه الطفلية عن فكرة الأب إلا أن صورته الأولى تظل عالقة في شكل الإله) .

ونحن نعرف من تحليلنا للمرضى بأن الصلة مع الأب تشوبها ازدواجية الحب والبغض Ambivalance ولا يحتاج المرء للتعمق في دراسة التحليل النفسي ليفطن إلى حقيقة أن الله والشيطان كانا في بادىء الأمر شيئاً واحداً وانفصلا فيما بعد ، بعد تطور الأديان أما في أديان ما قبل التاريخ فكل الخصائص الشريرة التي أعطيت فيما بعد للشيطان ، كانت من صفات الله نفسه ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ .

---

(١) المصدر السابق – ٤٢ نقلاً عن كتاب Totem and Taboo ص ١٤٥ .

(٢) Sigmund Freud, Collected Paders, Vol. IV.

ثم يمضي في مقالات أخرى ليفسر تطور الأديان من عقدة « أوديب » ويعتبر تمسك البشرية بالدين وقيام المتدينين بشعائرهم الدينية كقيام مرضى العصاب الوسواس القهري بأعراضهم الوسواسية القهرية Obsessional Neurosis .

ويعلق الدكتور مالك بدري الأستاذ المتخصص في العلاج النفسي على ذلك فيقول : (ربما يقول قائل بأن فرويد عندما ذكر هذه الأمور عن الدين ، إنما كان يعني بعض الأديان التي يقول أتباعها بعقيدة التثليث والأبوة والبنوة أو التشبيه والتجسيم .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ ، وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ، ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (١) .

وعلى ذلك فقد تصدق آراؤه على اليهودية والمسيحية ، ولكن هذا الرأي مردود لأن فرويد كما يبدو جلياً من كتاباته ، كان مطلعاً واسع الاطلاع . ويعتقد بعض العلماء المحدثين بأنه تأثر في نظرياته بآراء بعض الفلاسفة المسلمين الأول ، كما ذكر ذلك الدكتور التيجاني الماحي ، في مقال نشر في مجلة أجنبية في علم النفس الطبي ، بأن فرويد اقتبس أهم جوانب نظريته في رمزية تحليل الأحلام من العالم الإسلامي محمد بن سيرين . ورغم اطلاع فرويد الواسع في الأديان السماوية والفلسفات المختلفة فقد قام ببلورة نظرياته الإلحادية عن الدين وغيبياته بشكل عام .

وأخيراً فمن الواضح الجلي أن فرويد لم يكتف بمحاولته هدم الأديان لتخليص البشرية من هذاءاتها كما ادعى ، بل استهدف بنظرياته أنبل المشاعر البشرية دينية كانت أم فطرية إنسانية ، فهو قد لطخ أنبل مشاعر الإنسان التي تتجلى في

---

(١) التوبة : ٣٠ .

عبادة الله وبث الأشواق الروحية إليه ، وتتجلى في حب الوالدين وبرهم ، وتتجلى في براءة الأطفال وحبهم لوالديهم ... لطخ كل ذلك بالوحل الجنسي حتى لا يبقى بعد ذلك للمجتمع حرمة من دين أو خلق أو عرض تمنع فيضانات الشهوات وطغيان الجنس .

هذا الكون الشاسع الذي نعيش فيه بشموسه وكواكبه ومجراته التي تبعد عن بعضها البعض بمسافات تقاس بملايين السنوات الضوئية والذي تحكمه قوانين وصلت من الدقة بحيث يصفها العالم الفلكي (جيمز جينز) بقوله :

(إن القوانين الرياضية والمعادلات التي يتحرك الكون على وفاقها وتنتظم المادة وتتحرك الذرات .. استخرجناها من عقولنا بالحساب والفكر والتأمل . فلما مددنا النظر من خلال التلسكوبات والمناظير والمراقبة الفلكية ، وجدنا أبعد الأجرام السماوية مما لم نكن نرى أو نعلم ... وجدناه سائراً وفق هذه القوانين ... وإنه لأمر بديهي أن نتصور أن هذه القوانين في عقل كلي مهيمن ... وأن هذا العقل الكلي الشامل أودعها عقلنا كما أودعها في الكون ليسير على وفاقها . وأن الكون كله مشروع متقن من تصميم مبدع عظيم هو الذي وضع له الفكرة ووضع له القوانين) .

ويرى فرويد أن هذا الكون الشاسع المعجز من ألكتروناته وجيناته ، إلى مجراته وسماواته ، إن نحن اعتقدنا بوجود خالق مدبر له ، فقد قمنا بعملية نابعة من عقدتنا الأوديبية المرتبطة بالجنس في لا شعورنا ، أو أننا نسعى وراء سراب (بديل الأب) في طفولتنا الأولى .

وإن نحن أقمنا الصلاة وشعائر الله الأخرى ، فإنما ننفذ جماعياً أعراض الاضطراب الوسواسي القهري . ولأن فرويد لم يسمع صوتاً إلهياً من داخله يدعوه للإيمان - وما كان له أن يسمعه ، لأنه مات يهودياً كافراً كما وصف نفسه - فهو يدعونا للإيمان بإلهه الذي استطاع بعبقريته أن يكتشفه من تحليل أحلام حفنة من

مرضاه ، وهذا الإله الجديد بالطبع هو الدافع الجنسي الذي يفسر به جميع مراحل تطور الإنسان ونشاطاته السوية منها والشاذة ، وأحلامه وأشواقه ومعتقداته وحربه وسلمه) [١] .

التحليل النفسي والثورة الجنسية المعاصرة :

لقد أصبح المجتمع الأوروبي والأمريكي الحديث بسبب نظرية التحليل النفسي وآراء فرويد الإلحادية أقل كظماً وكبتاً لدوافعه الجنسية . بل إن المجتمع الأوروبي اليوم إذا ما قورن بمجتمع فرويد في القرن الماضي إلى الثلاثينيات من هذا القرن اعتبر الكبت الجنسي من مخلفات الماضي المسيحي . فقد وصلت الإباحية الجنسية حداً أسماه مفكرو الغرب (بالثورة الجنسية) .

فكما عاشت الحضارة الغربية في أحضان الثورة الفرنسية والثورة الصناعية من قبل ، فهي تعيش اليوم (في أحضان) (ثورة جنسية عارمة) .

(وإننا لا نريد أن نحمل الفرويديين وحدهم تبعة الانهيار الخلقي الجنسي في الحياة الغربية ، ذلك لأن لهذه الظاهرة أسباباً متشابكة ، تعاونت فيما بينها على الوصول بالحضارة الغربية إلى ثورتها الجنسية .

ولا شك أن طبيعة الدين المسيحي المحرف هي من أول هذه العوامل ، إذ نجد في جذوره التاريخية الحديثة ، اعتبار المرأة مصدر الخطيئة والإثم ، فهي التي أتت من قديم بالشقاء واللعنة للأرض وأهلها .

(فهي مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان . وهي دافعة بالمرء إلى الشجرة الممنوعة ، وهي ناقضة لقانون الله ، ومشوهة لصورة الله – أي الرجل) [٢] .

---

(١) محاضرات الموسم الثقافي لعام (٩٣/٩٢ هـ – ٧٣/٧٢ م) إصدار حكومة أبو ظبي . وزارة شؤون الرئاسة والشؤون الثقافية ، الإسلام والعلاج النفسي للدكتور مالك بدري / ٢١ – ٢٣ بتصرف .

(٢) من أقوال تورتوليان : أحد أقطاب المسيحية الأولى : من كتاب (الحجاب) لمولانا أبو الأعلى المودودي .

كما نجد فيها احتقار العلاقات الجنسية واعتبارها أمراً نجساً حتى ولو كانت بين الرجل وزوجته .

يقول الأستاذ المودودي في هذا الشأن :

(إن هذا التصور (الرهبني) للأخلاق ، الذي كانت جذوره تكاد تتأصل في أوروبا من قبل بتأثير الفلسفة الإشراقية ، قد جاءت المسيحية فزادته شدة وبلغت به منتهاه ... فجعلوا يعدون العزوبة وتجنب الزواج من أمارات التقوى والورع) (١) .

فعندما رفع رواد الفلسفة والآداب والعلوم لواء الإصلاح في القرن الثامن عشر ، وجدوا أمامهم هذه العقبة الكأداء المناقضة للفطرة والعقل السليم ، والتي تضافرت في دعمها قوى الكنيسة والسياسة .

وقد كان من النتائج الطبيعية لهذا التطرف من القهر الديني والسياسي ، أن نادى الناس بالتحرر والحرية الشخصية ، وتمادوا في صياغة تلك الشعارات حتى وصلت غايتها بالثورة الفرنسية التي لم يكتف من أشعلوا نارها بإبطال مبادىء التعاليم المسيحية المتحجرة المترفعة المترهبنة بل تعدوا ذلك كما يحدث عادة في مثل هذه الانتفاضات الاجتماعية ، فتعدوا ذلك إلى هدم كثير من التصورات الأساسية لنظام الأخلاق الإنساني) .

(وقد شايع الفرويديين مؤيدون كثر في ميادين علم النفس والعلوم الاجتماعية الأخرى كعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية .

كما تعدى تأثير فرويد حدود دائرة هذه العلوم الأكاديمية الضيقة ، إلى سائر المعارف الأدبية المختلفة ، والفنون والقانون والفلسفة وعلم الأديان ، فترك بصماته

---

(١) من كتاب (الحجاب) الآنف الذكر .

في التفسير الجنسي لنشاطات الإنسان ومبادئه وقيمه ، والتلويح بأخطار الكبت الجنسي والشعور بالذنب .

واتسعت دائرة آثار التحليليين حتى قبل العامة تفسيراتهم للسلوك الإنساني ، وأصبحت اصطلاحاتهم (كالعقدة النفسية) و(مركب النقص) و(الكبت الجنسي) و(الدافع اللاشعوري) من الكلمات الشائعة التي يساء فهمها واستعمالها بين العامة حتى في عالمنا العربي والإسلامي .

فتبريرات فرويد وآثاره وصلت بـ (الثورة الجنسية) حداً أصبحنا نسمع ونقرأ فيه عن تفشي الفواحش الجنسية بأساليب يندى لها جبين الإنسانية التي لم تعرف مثل هذه الإباحة والفوضى الجنسية في تاريخها الطويل . فقد أسست النوادي والمؤسسات لتبادل الزوجات وللصلات الجنسية الجماعية بين الرجال والنساء ، ونوادي الشذوذ الجنسي للواط بين الرجال والسحاق بين النساء .

واستفادت الثورة الجنسية من عبقرية أوروبا في إنتاج الأفلام السينمائية التي يستخدم فيها المخرج ألواح الزجاج المقوى والمرايا لإظهار الفعل الجنسي بين الممثلين من مختلف الزوايا ودونما حياء أو كناية) [١] .

موقفنا من نظرية التحليل النفسي :

قدمنا لك صورة موجزة عن أهم العناصر التي تعنينا في التحليل النفسي وهي صورة الإنسان في رأي هذه النظرية ، وقد رأيت كيف جعلته مرتبطاً بالعقدة الأوديبية وجعلت ضميره كابتاً لها ، ثم جعلت محور نشاطه وكل اهتماماته أن يتخلص منها ويحقق دافعه الجنسي ، ثم عممت ذلك بأن فسرت الدين على أساسها وألغت هذه العلاقة العلوية الكريمة التي تعطي الإنسان امتداده وتكامله وتجعل للحياة معناها وغايتها .

---

(١) محاضرات الموسم الثقافي لعام ٩٢/٩٣ هـ ، الإسلام والعلاج النفسي / ٢٦ - ٢٩ .

وهذا كما رأيت انحراف خطير تكذبه فطرة الإنسان وحقائق الحياة ، وهو ما أيدته المدارس النفسية السلوكية والقياسية [1] ، يقول الدكتور زكي نجيب محمود في تعليق له على نظرية التحليل النفسي : (وما أكثر ما اطمأنت نفسي بأن هذا الذي رواه الأدب اليوناني ، وجرى معه فيه علم التحليل النفسي الحديث ، ربما كان متعلقاً بثقافة معينة ، لا بفطرة الإنسان من حيث هو إنسان ، وفي هذه الحالة قد لا يصدق على ثقافتنا نحن ما يصدق على ثقافة قوم آخرين .

وماذا يمنعنا نحن من رؤية أنفسنا على مرايا أساطيرنا ، كما رأى القوم الآخرون أنفسهم منعكسة في أساطيرهم ؟

فلنقرأ – مثلاً – قصة أبي زيد الهلالي في أدبنا الشعبي ، فها هنا نزحت الأم بولدها أبي زيد وهو لم يزل رضيعاً ، ونشأ الوليد وتربى في كنف قبيلة لم تكن هي قبيلة أبيه ، لم يعرف الهلالي له أباً إلا شيخ القبيلة الجديدة ، ولما كبر الغلام ونبغ في الفروسية والقتال جعلوه القائد الذي يزود عن قومه شر المغير ، ثم شاء الله أن تغير عليهم قبيلة أبيه الحقيقي ، فهب يقاتله وهو لا يعلم أنه أبوه ، ولا الأب يعلم أن مقاتله هو ابنه الذي سرحه مع أمه عقب ولادته ، حتى إذا ما أوشك سيف الفتى أن ينقض على أبيه ، ظهرت الأم فجأة لتصيح بابنها فزعة : أمسك سيفك عن الرجل فإنه أبوك !

تأمل معي هذه القصة الأسطورية ، لتستشف منها مكنون قلوبنا ، فهنا لا الولد قتل أباه ، ولا هو تزوج من أمه كما حدث لأوديب في الأسطورة اليونانية ، فلماذا لا نقرأ مكنون صدورنا في أساطيرنا نحن ، لعلنا نبرأ من القلق الذي يستبد بنا حين يقال لنا إن رباط الابن وأمه هو (عقدة أوديب) ؟

---

(١) المصدر السابق (٢٩ – ٥٠) .

ألا إن ثقافتنا الأصيلة ، التي تجعل الجنة تحت أقدام الأمهات ، لهي ثقافة ترهف سمع الابن لعله يسمع من أمه دعاء الرضى ، فتنفتح له بدعائها أبواب السماء) [١] .

والذى يهمنا أن نعرف جوانب الحق فى النظرية فمما لا شك فيه أن الدافع الجنسى له أهميته ومكانته بين دوافع الإنسان الأخرى ، وأن الثقافة الجنسية الرشيدة المرتبطة بالمثل والقيم لها أهميتها فى نمو الإنسان نمواً متزناً وراشداً ، وكما قال الدكتور مالك بدرى فى ذلك :

(ومما لا شك فيه أن نظريات فرويد تحتوي على كثير من الحقائق العامة الهامة والتي كانت معروفة قبله بقرون طويلة . ولعل قدرته على ترتيب هذه المعلومات مع غيرها وما أدخله عليها من أمور باطلة في هيكل نظري يبدو متكاملاً هو الذي أعطى نظريته هذه الجاذبية مما جعل الناس وهم يسعون وراء الحقائق يبتلعون معها أطنان القشور الزائفة التي أُحكم تغليفها بها .

فهو في هذا الأمر أشبه ما يكون بوصف الرسول ﷺ للمنجمين فيما ثبت عنه عليه أفضل الصلاة والسلام في رواية مسلم من أنهم يخلطون الكلمة من الحق بأكثر من مائة كذبة .

إذن فموقف الأخصائى النفسي المسلم هو أن يميز الخبيث من الطيب في الركام النظري والتطبيقات العلاجية المسماة بالتحليل النفسي ، وأن لا يترك أي جوهرة فكرية تتلوث بتفسيرات القذر الجنسي الفرويدي خصوصاً إذا وجد لهذه

---

(١) الأهرام -٢١/٣/٧٥- ٥ - (دعاء الأمهات) بقلم الدكتور زكى نجيب محمود .

وقد أوردنا هذا الاقتباس لندلل على خطأ تعميم الأسطورة اليونانية على الناس كما فعل « فرويد » ، وأنه لا ينبغى أن تؤخذ الأساطير سبيلاً لتفسير سلوك الناس ، وأن السبيل الأرشد أن يرد الناس إلى قوانين الفطرة السليمة التى أكدتها الحنيفية السمحة ، وأن الشذوذ لا يجوز فى منطق الفكر السليم أن يصبح هو القاعدة .

الأفكار ما يؤيدها من الأدلة والبراهين المستقاة من علم النفس التجريبي والقياسي ومن العلوم البيولوجية المرتبطة بالبحوث النفسية .

فإذا تأكد له بعد التأييد التجريبي أن هذه النظريات قد وصلت إلى درجة الحقائق العلمية القطعية جاز له بعد ذلك أن يدعمها بما ورد في الإسلام من مفاهيم نفسية . أما قبل هذه الخطوة ، فليس هناك ما يدعو للتكليف في تفسير النظريات النفسية الفطيرة على أساس من الدين الحنيف أو حتى مجاراتها في هذا الشأن) [1] .

التفسير الماركسي امتداد للتفكير الغربي المادي :

وتأتي الماركسية أيضاً ثمرة من ثمار الفكر الغربي المادي ، فالمصدر النظري المباشر لها هو الفلسفة الكلاسيكية الألمانية في القرن التاسع عشر وبالأخص فلسفة هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١ م) ، وفيورباخ (١٨٠٤ - ١٨٧٢ م) هذا من الناحية النظرية ، أما من الناحية العملية فهي نتيجة رد الفعل للصراع الذي نتج في أوروبا عن تطور المذهب الحر أو الرأسمالية وما تمخضت عنه في مجال التصنيع من بروز طبقتين رئيسيتين : الأولى أصحاب رؤوس الأموال ومالكو المصانع ومديرو الاستثمارات ، والثانية العمال ، وقد أثر ذلك في تحديد النظرية ودفعها في الاتجاه الذي سارت فيه وانطبعت به . ولذلك فإن الماركسية من ناحية نظرتها للإنسان لها جانبان ، جانب فلسفي تقيم على أساسه فكرتها إلى الوجود والحياة والإنسان ، وجانب عملي تحاول به إخضاع الإنسان وتاريخه إلى هذا التصور الفلسفي ... وسنتكلم بإيجاز عن هذين الجانبين ، ثم نتبعهما بالواقع العملي الذي صار إليه الإنسان من خلال التجربة المشاهدة والعملية التي نراها في الماركسية ، فالتطبيق هو خير اختبار للمبادىء والمذاهب .

---

(١) الإسلام والعلاج النفسي / ٥١ - ٥٢ .

الأساس النظري للماركسية :

اعتمدت النظرة الماركسية في أصولها على فكرتين أساسيتين هما :

١ – **أسبقية المادة وحتمية التطور** : فالمادة في رأيهم أزلية ، لم يخلقها أحد وأنه لا توجد في هذا العالم أية قوى غيبية لا تخضع للقوانين الطبيعية ، وأن الوعي نتاج التطور التاريخي للمادة ، وأن عقل الإنسان نتاج للمادة [١] .

والمبدأ الثاني صراع الأضداد أو ما يسمى بالديالكتيك [٢] : وهو ينظر إلى العالم في حركته الدائمة وتطوره ، وأنه يحدث فيه باستمرار موت القديم وانبثاق الجديد . يقول انجلز : (لا يوجد بالنسبة للفلسفة الديالكتيكية شيء قائم إلى الأبد بدون شرط ، فعلى كل شيء وفي كل شيء ترى الفلسفة الديالكتيكية طابع الإنحلال ، ولا يمكن – بالنسبة لها – بقاء شيء أو استقراره ، سوى عملية الظهور والزوال الدائمة ، والصعود الذي لا نهاية له من الأسفل إلى الأعلى) [٣] .

وعلى أساس المبدأين السابقين ، حاول كل من ماركس وانجلز أن يفسرا التاريخ الإنساني على هديهما فقالا : إن العوامل المادية هي التي صنعت تاريخ الإنسان ، وكان لها الدور الأول والأخير في توجيهه . فالصراع الذى تم على مدار التاريخ كان صراعاً بين النقائض أدى إلى التطور الأخير للرأسمالية في أوربا وسيتبعه طور الاشتراكية والشيوعية . لقد أعلن ماركس وانجلز : (أن قوانين العالم المادي

---

(١) أسس الفلسفة الماركسية / ٢٠ لمؤلفه ق أ فانا سييف ، ترجمة عبد الرازق الصاق ، دار الفارابى بيروت ، ومكتبة النهضة – بغداد .

(٢) كما أن كلمة مادة أصلها فى اليونانية متريايس التى جاءت عنها كلمة متريالزم . فإن كلمة ديالكتيك ذات أصل إغريقى قديم ومعناها المقدرة على خوض النقاش والوصول إلى الحقيقة عن طريق كشف التناقضات فى أقوال الخصم والتغلب عليه ، ومن ثم صارت الكلمة تعنى أسلوباً لمعرفة الواقع .

(٣) المصدر السابق / ١٢ عن د. ماركس و ف . إنجلز المؤلفات الممتازة الجزء الثانى / ٤١١ .

غير قابلة للتغيير وتعمل بصورة مستقلة عن الإرادة الإنسانية) [1] .

ويقول صاحب كتاب أسس الفلسفة الماركسية : (إن الأهمية الحاسمة للجماهير الشعبية في مجرى التاريخ تنبثق من الدور الحاسم لأسلوب إنتاج الخيرات المادية في تطور المجتمع ... إن الإنتاج المادي الذي ذكرناه هو أساس الحياة الاجتماعية) [2] .

وترى الماركسية تبعاً لذلك أن الإنسان لا دور له إلا بمقدار تأثير عوامل الإنتاج وأساليبه فيه . كتب ماركس : (باتساع الحدث التاريخي يتعاظم حجم الجماهير الذي يشكل هذا الحديث التاريخي قضيتها) [3] .

(إن الماركسيين يعتقدون بأن الفرد لا يستطيع برغبته هو أن يبدل سير التاريخ الموضوعي ، فإنهم يعترفون بأن الفرد يلعب دوراً غير صغير في التطور الاجتماعي) [4] .

(إن الشخصيات العظيمة لا تظهر عفواً ، وإنما بقوة الضرورة التاريخية وذلك عندما تنضج الظروف الموضوعية الملائمة لهذا الظهور) [5] .

الجانب العملي الذي ترتب على الأساس النظري :

ترتب على أسبقية المادة وحتمية التطور الذي يصنعه صراع النقائض ، أن المجتمع الإنساني يتطور تبعاً للعوامل المادية ، وها هو قد مر بمراحل الرق والإقطاع والبرجوازية حتى وصل إلى أعلى المراحل بظهور الرأسمالية ، وهنا لابد أن يحدث صراع النقائض بين الرأسمالية والبروليتاريا (العمال) ، وفي هذه المرحلة من

---

(١) الطبقة الجديدة / ٢٠ ميلوفان دوجلاس ط / دار الكتاب العربي - بيروت .
(٢) أسس الفلسفة الماركسية / ٢٠٧ .
(٣) المصدر السابق / ٢٠٨ عن د . ماركس ، ف إنجلز المؤلفات المتازة / ٩٠٢ .
(٤) المصدر السابق / ٢١٢ .
(٥) المصدر السابق / ٢١٣ .

الصراع لابد أن تتغلب طبقة العمال وتلغي الملكية وتتملك وسائل الإنتاج فتصبح الملكية ووسائلها ملكاً للعمال ، وبذلك تزول الوسائل التي كانت سبباً في إرهاق العمال وتعذيبهم وحينئذ تعمل القوانين المادية بشكل طبيعي ، ولكن كيف يتم ذلك ؟

يتم هذا بتكتل العمال تحت المظلة الشيوعية ثم يشعلون حربا دموية ضد الطبقة الرأسمالية حتى ينتزعوا منها السلطة ويسلموها للحزب الشيوعي الذي يبدأ بالسيطرة على السلطة التنفيذية والقضائية والعسكرية وعليه فوراً أن يقوض نظام الملكية القديم ، وينتزع الملكية من أصحابها ويصبح هو المالك الوحيد للإنتاج ووسائله . ومن الطبيعي ما دامت المادية التاريخية هي الفلسفة الوحيدة التي تفسر الوجود وتعمل قوانينها في الإنسان وحياته ، فلا مكان في مجتمع البروليتاريا لأي تفكير آخر . وتنتهي الحركة الشيوعية إلى أعتى أنواع الحكم الاستبدادي باحتكارها :

١ – السلطة بجميع أنواعها .

٢ – حيازتها للملكية وأنواعها .

٣ – العقيدة المادية ولا شيء غيرها .

ما مدى صحة النظرية :

لقد ظل (هيجل) يربط صراع الأضداد الذي هو أساس حركة التطور بالقوانين العلوية المنبثقة عن فكرة (المطلق) ... وقال : إن هناك قوانين لا ينالها التبدل وهي التي تقوم بتسيير الطبيعة والمجتمع الإنساني والكلام إلى هنا معقول إلى حد ما ، فالرجل كان يعيش في المجتمع الغربي الذي قدمت فيه الكنيسة الكاثوليكية (الله) في صورة التثليث (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) ، والتي لا يقبلها العقل ولا يرضاها ، ولذا كان منطقياً حين عبر عن صورة الله في فلسفته بفكرة المطلق .

ولكن ماركس حتى يعمل المقدمة الأولى وهي أسبقية المادة ، نزع فكرة القوانين العلوية هذه وأعادها إلى المادة ومنحها القدرة على الحركة والتأثير وجعل الإنسان تابعا لها ، وبذلك أصبحت المادة آلة قادرة واعية جبارة هائلة تدير هذا الكون كله وما الإنسان إلا « صامولة » صغيرة فيها ، عليه أن ينزل عند أمرها ، ويسير في كنفها ، فهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا مشيئة ولا تفكيراً .

والعجيب أن إعطاء المادة وقوانينها قدرة التوجيه والتحرك بذاتها زعم لا يثبت عند التجربة والبرهان ، وهو ضرب من الغوغائية التي ينبغي أن يتنزه عنها التفكير الإنساني في القرن العشرين ، فقد أصبحت المادة طاقة متحركة ، وأضحى استخدامها واستعمالها وتغييرها وتبديلها ونقلها حسب قوانينها شيئاً بديهياً فمن أين يأتيها الأزل ، وتأتيها الإرادة المستقلة ؟ ثم إن البرهان على خلقها وتسخيرها وتذليلها أصبح شيئا لا يحتاج إلى كثير جدل أو حوار ، ذلك أنها بفعل ما فطرت عليه خاضعة للإنسان تابعة له في الدائرة التي ينالها تفكيره وسيطرته أما في غير دائرته فلا سبيل له إليها ، ولا سبيل لها على نفسها ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (١) . وإذاً فافتراض أنها تعمل خارج الإرادة البشرية وبمعزل عنها ضرب من العبث والاستهتار بالعقل الإنساني .

ولا شك أن النظرة التي تضع الأشياء المادية في مكانها بين المخلوقات الأخرى وتصفها بأنها مخلوقة مفطورة حسب قوانين معينة فطرها عليها خالقها وموجدها هي النظرة العلمية الصحيحة ، إذ ليس فيها اعتساف ولا افتراض ، لأننا نرى الأشياء المادية ، تفنى بالتحول والتغير ونرى أنها تتشكل وتصنع وتحمل قوانين فنائها ، إنها لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ، ولا تستطيع بالتالي أن تجلب السعادة لبائس ولا الصحة لمريض وأن الإنسان الذي يملك الإرادة والتفكير تحكمه

---

(١) يس : ٤٠ ، وتكملة الآية الكريمة « لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدركَ القمر ولا الليلُ سابقُ النهار وكلّ في فلكٍ يسبحون » .

قوانين لا يستطيع الخروج عنها ، فهو لا يستطيع تخليد نفسه ، فكيف بالجمادات والمخلوقات الأخرى من حوله ؟..

أما القانون الذي يدفع الحياة ويسيرها فهو قانون الدوافع الذي يدفع الأحياء في مسارها الخاص بها .. أما في المجتمع فهو قانون التدافع والصراع ... إلى غير ذلك من سنن وقوانين .

وصدق الله إذ يقول في قصة فرعون : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ؟ قَالَ : رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (١) وقوله سبحانه : ﴿ سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) .

مكان الإنسان في النظريـــة :

والمغالطة الأخرى هي الإصرار على إلغاء دور الإنسان وجعله تابعاً للعوامل المادية وللحدث التاريخي ذلك أنهم يقولون : (إن انبثاق دور الناس يأتي من الدور الحاسم لأسلوب إنتاج الخيرات المادية ، وفي ذلك قلب للموازين ، والنظر للإنسان على أنه كم مهمل خامل تحركه وتدفعه العوامل المادية للمجتمع وحينذاك تدب فيه الحياة وتدفعه عجلة الإنتاج ليؤدي دوره وهذا يعني إلغاء دور الإرادة الإنسانية في صنع الأحداث والتأثير فيها ، وبالتالي إلغاء ذاتية الفرد ودوره في الحياة ذلك لأن العوامل المادية كفلت الجانبين ، وما على الفرد إلا أن يسهم في التطور الاجتماعي تبعاً للعوامل المادية ولأسلوب الإنتاج ، والنتيجة لذلك إلغاء دور المجتمع والفرد جميعا وجعلهما تابعين لحركة التطور التاريخي أو حركة الجماهير إلى غير ذلك من الشعارات الجوفاء التي تنتهي إلى توجيه الأقلية القابضة على زمام الحكم في رأس الجهاز الشيوعي ، وفي ذلك يقول دجيلاس (لا ينبغي تكييف المجتمع الإنساني حسب الأهواء ، إذ لا مجال لمقارنته بواقع تطور الأنواع

---

(١) طه : ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) غافر : ٨٥ .

الحيوانية أو الأشياء المادية ، فالمجتمع الإنساني يتألف من مجموعات واعية مفكرة متطورة) [١] . وقد أثبت الواقع التاريخي دور الإنسان في صنع التاريخ والتأثير في الأحداث في كل مراحل التاريخ .

ثم إن النظرة للإنسان في كل أطوار التاريخ على أنه نسخة واحدة مكررة تصنعه عوامل الإنتاج ويتبعها أمر يخالف الحقائق البيولوجية والسيكولوجية ويناقض ما ثبت من وجود الفوارق في القدرات الفردية ومن تميز كل إنسان عن الآخر ، ومن تغير الإنسان واختلافه حسب الثقافة التي تعلمها والمجتمع الذي نما فيه ، وبالتالي تفاوت المجتمعات حسب المستوى الحضاري والثقافي والاقتصادي .. الخ .

وثمة خطأ آخر لا يقل في خطأه وبعده عن الصواب من هذه النظرة الجامدة التي عرضنا لها فيما سبق ، ألا وهو ما ينتج عن حركة التاريخ وحتمية التطور من تصنيف الناس إلى تقدميين يسيرون مع حركة التاريخ ويتابعون خطوها ، ورجعيين يعيقون حركة التاريخ ويمشون في الاتجاه المخالف لها . وليس أمام التقدميين إلا تصفية أولئك الرجعيين ، وإراحة المجتمع منهم حتى تمضي حركة التاريخ ، وتتم عملية التطور ، وهذا أسوأ ما يتوقعه مجتمع إنساني ، أن يصبح تصنيف الناس لا على حسب أعمالهم وأدائهم لواجباتهم ، وإنما على حسب انصياعهم وطاعتهم وحرقهم البخور سواء اقتنعوا أم لم يقتنعوا . هذا هو مكان الإنسان في النظرية وهذه هي نهايته ومصيره ، حدد مساره وحكم له أو عليه ، أما إرادته ووعيه وتفكيره وحريته فتلك قضايا رجعية لا تمت بصلة إلى التفكير العلمي الرصين الذي اكتشفته الدعوة الماركسية وليس بعدها من كشوف ولا قبلها من آراء .

---

(١) الطبقة الجديدة ، ميلوفان دجيلاس ٢١ / ط . دار الكتاب العربي - بيروت .

النتائج العمليـة :

إن النتائج العملية للنظرية الماركسية بعد أن دخلت مجال التطبيق في روسيا (١) والصين (٢) وأوروبا الشرقية تضع أيدينا على صدق ما أوردناه سلفاً ، وتدعم بطريقة لا تقبل الشك مناقضة هذا المذهب للفطرة البشرية وبعده عن أن يكون منهجاً ملائماً للجماعة الإنسانية .

ففي المجال الفكري ، نجد تلك الجبرية التى لا تسمح بالاجتهاد إلا في إطار نصوص المادية الماركسية الجامدة ؛ إذ إنها تدعى أن تفسيرها هو التفسير العلمي الوحيد – وقد عرفت عواره وخواءه – وأنها قد فرغت من تفسير التاريخ والحكم عليه ، وفرغت من تحديد الإطار الذي يجب أن يمضي فيه الإنسان أينما كان ، وحيثما وجد ، وبالتالي ألزمت الإنسان أن يؤمن بالعقيدة الماركسية إيماناً أعمى ليس له فيه مجال للاختيار أو التفكير أو التأمل أو النظر (٣) ، إذ إن الأديان مخدرة للشعوب ومن بدع الرأسمالية . وكان من صلف النظرية وقهرها أن حكمت على

---

(١) فى روسيا من نصف قرن منذ ١٩١٧ م .

(٢) فى الصين وأوروبا الشرقية منذ حوالى خمس وعشرين سنة .

(٣) من تحقيق صحفى نشرته الحوادث عن الصين فى العدد رقم ٩٥٥ بتاريخ ٧٤/١٢/٢٠ لإبراهيم أبو ناب الذى زار بكين يقول : (فى الصين حملة مركزة على كونفوشيوس ذلك الشاب الذى كسب قوته بالعمل وعلم نفسه حتى وصل إلى نتيجة قررها بقوله : أنه بالعلم وحده يرقى الإنسان وأنه يجب ألا يكون ثمة تمييز بين البشر فى طلب العلم والثقافة) .

وقد مارس تعليم الناس من مختلف الطبقات فتجمع له ما يقرب من ثلاثة آلاف تلميذ وصار أول معلم يحترف مهنة التعليم فى الصين .. أنهم يقولون إنه دعا الناس للتعليم والتأمل فقط وذلك لتشويه صورته وذلك غير صحيح لأنه كان يعمل ، ولم ينقطع عن العمل حتى مات فى الثانية والسبعين ، ولم يكن رجل علم فقط ، بل كان يحب الحياة فقد دخل الخدمة الإدارية حتى صار من كبار الإداريين وانتقل إلى سلك القضاء ودعا إلى تطبيق العدالة ونعتها بعدالة السماء . وترك عشرين كتاباًفى ٤٩٦ فصلاً ، المهم أن الثورة الثقافية المادية ترى أنالكونفوشسيةتخالف المادية الجدلية ولذلك فهى نشن عليها حرباً لا هوادة فيها ، إذ لا ينبغى أن يبقى على المسرح غيرها وليس عندها متسع لفرز الأفكار والاستفادة بخيرها ونافعها وتجنب الضار وغير المفيد منها فهنا لا ينبغى ضياع الوقت فيه فما أيسر كلمات اللعنة والنبذ والرجعية للمفكرين المخالفين ؟ .

مخالفيها في العقيدة إما بالموت السريع أو الموت البطيء ، وحرمتهم من مزاولة شعائر إيمانهم ، وما عليك إلا أن تحصي عدد الحجاج المسلمين الذين كانوا يأتون من أزبكستان والقوقاز وبخارى وأوكرانيا وتقارنه بالعدد الذي أتى بعد انتصار الثورة البلشفية في روسيا لترى مدى السحق والإبادة والحرمان الذي صب على المسلمين في تلك البلاد فالعدد الذي يأتي الآن لا يكاد يذكر ، ويرسل من قبل الجهات الرسمية ذراً للرماد في العيون ، بل إنه قد حدث أن ضبط في السنوات الأخيرة بعض أبناء المسلمين في مغارة يقرؤون القرآن ويشربون الشاي ويلعنون (الفودكا) الخمر على حد رواية وكالة « تاس » فاعتقلوا ، وسيقوا إلى المحاكمة ، ونفس المصير يتعرض له حتى المؤمنين بالاشتراكية ، فلا يسمح لهم بالتفكير الحر أو بالخروج عنها ، أو حتى إبداء الملاحظات حولها ، وما هجرة الأدباء الروس أو سوقهم إلى معسكرات السخرة والتعذيب في سيبيريا بشيء خاف أو غير معروف فقصة بول باسترناك صاحب قصة دكتور زيفاجو ، الذي منح جائزة نوبل ومنع من قبولها ومات معزولاً كئيباً ، ولم يشهد جنازته إلا عدد لا يزيد على أصابع اليد الواحدة معروفة ومشهورة ، وقصة سلفانا بنت ستالين وهجرتها إلى الغرب لأنها لم تطق أن تعيش في جحيم الإلحاد ليست عنا ببعيد . وقصة ميلوفان دِجيلاس نائب تيتو وزميله ، وما حدث له من سجن بسبب تفكيره الحر ومحاولته إصلاح النظام الشيوعي الذي بذل عصارة حياته في إقامته ، وقصة الثورة الثقافية التي ذهب ضحيتها الآلاف في الصين والتي كانت تحريضاً للعامة والاتباع للتخلص ممن يظن في خلافهم مع الزعامة الصينية ، ولم يكن مع هذه الجموع وهي تمارس هذه البربرية وتلك الوحشية إلا كتيب الوثن الجديد (ماوتسي تونغ) تقرأ شيئاً من سطوره وجملة من جمله ثم ترتكب فعلتها الحمقاء .. لقد تحولت عبادة الفرد وتقديسه محل عبادة الله وتقلصت الماركسية إلى وثنية عاتية تعدت وفاقت وثنية الجاهلية الأولى ، فالصفوف الطويلة التي تطوف بقبر لينين في موسكو والصورة التي وضع بها جثمانه من تحنيطه وتسليط الأضواء عليه أصدق شاهد على ما

نقول ... وصورة ماوتسي تونغ التي تسد الشوارع في الميادين الكبرى في مدن الصين ووقوف الشباب والأطفال أمامها تؤدي نفس الدور ... إلى غير ذلك من مظاهر العبادة والتقديس .

أما في المجال الاجتماعي :

فعندما يستولي الشيوعيون على مجتمع ما ، فلابد من تقويض النظام القديم ، وتبديل العقائد القديمة وإحلال العلاقات الاجتماعية الجديدة التي تقوم على إلغاء الملكية والطبقية والروابط الأسرية العائلية به ، فكل ذلك من آثار النظام البرجوازي ومن سيئات المجتمعات الرأسمالية والدينية . وقد حدث عندما استولى الشيوعيون على الصين وأقاموا نظام (الكميونات) أن صنفوا الناس فجعلوا للشيوخ مكاناً وللأطفال المحاضن وللشباب من الجنسين المعسكرات ، وللأمهات والرجال مكاناً آخر وانطلقت (الصفارة) تطالب كل نوع من هؤلاء أن ينضم إلى فريقه ، فما كان من الأمهات وبعض الآباء إلا أن هربوا في القوارب الشراعية بأطفالهم مفضلين الموت على أن يفارقوا فلذات أكبادهم .

إن العلاقات الجديدة في المجتمع الشيوعي تقوم على الحرية الجنسية بين الجنسين كالغرب سواء بسواء ، ولكنها في المجتمع الشيوعي تنزع عنها القشرة الرقيقة من التدين الموجودة في الغرب والتي لا تزال لها بعض الآثار . ومعنى ذلك أن ينتهي آخر شيء للرباط المقدس للزوجية الكريمة ، ويحل محلها الرباط البهيمي المادي ، وتزداد المأساة في هذا المجتمع فتصبح المرأة مطالبة بالعمل كالرجل سواء بسواء ، بل لا سبيل لها لحرية الاختيار والعمل ، كما هو موجود في الغرب ، إذ إن الحرمان من الملكية ومصادرة الفائض من الثروة يجبر كلا من الرجل والمرأة على العمل ، فمن لا يعمل لا يأكل . أما الأطفال فإلى دور الحضانة حتى يربوا كأبناء للمجتمع وفي ذلك وأد لدوافع الأمومة والبنوة الفطرية وقتل لها . يقول الكاتب الروسي سولجنيتسين نقلاً عن جريدة (الحياة) في مقالها الأسبوعي بقلم كريم

تحت عنوان (نظام الستة والستين مليون شهيد) وتحت عنوان جانبي ألا تخجلون مما فعلتم بالمرأة ؟.

« إننا نفاخر دائما بحق المساواة الذي منحناه للمرأة ، ولكننا نخفي الحقيقة الواقعة ، وهي أن ما ندعيه من هذه المساواة إنما هو البديل عن العائلة التي قوضنا دعائمها ، وحق المساواة للنساء لا يعني أن عليهن أن يشغلن في المعامل والمصانع والدوائر الرسمية نفس الدور الذي يشغله الرجال ، ولكن يعني أن هذه الوظائف يجب أن تكون مفتوحة للجنسين . وكيف لا يشعر الرجل في بلادنا بالخجل عندما يرى نساءنا وهن يحملن أثقالا من الحجر لتبليط الشوارع أو لنثرها على جانبي الخطوط الحديدية وعندما نقف أمام مثل هذه المشاهد فأي كلام بعد ذلك نستطيع أن نقول وأية شكوك يمكن بعد ذلك أن تقوم ؟ من هذا الذي يتردد في العدول عن تمويل الثوار في أميركا الجنوبية في سبيل تحرير نسائنا من هذه العبودية ؟ إن كل إطار من إطارات نشاطنا داخل الاتحاد السوفياتي مهمل لدرجة تدعو إلى اليأس ، وفي حاجة بائسة للأموال والعمل والمثابرة . إن متطلبات نمونا الداخلي ، هي أهم بالنسبة إلينا كشعب من أي تضخم خارجي لسلطتنا . إن أهداف الإمبراطورية العظمى والصحة المعنوية للشعب شيئان متعارضان وليس من واجبنا أن نبتكر أعباء دولية وأن نتحمل نفقات هذه الأعباء ما دام شعبنا يعاني مشاكل الفوضى الأخلاقية والمعنوية ، وما دمنا ندعي أننا أبناء هذا الشعب .

أما في المجال الاقتصـادي :

فقد جاءت النتائج مخيبة للآمال العراض التي علقها الماركسيون على نظريتهم ، وبعد ذلك الفردوس الموعود الذي كانت تعد به الشيوعية أبناءها . لقد أثبتت الدوافع الفطرية دورها وتمردها وتمرد الإنسان على ذلك النظام الذي يناقض

فطرته ولا يشبعها ، وتحولت روسيا البلد المصدر للحبوب إلى بلد مستورد لها [1] أما الصين بلاد المساحات الشاسعة فقد اضطرت للشراء من كندا . ورغم أن ستالين أزهق ٩ (تسعة ملايين نسمة) في سبيل إقامة (الكلخوزات) المزارع الجماعية ، فإن السلبية واللامبالاة - رغم القهر والضغط - كانت الشيء السائد . وظل الإنتاج الزراعي والصناعي يتقهقر حتى ضحي بخروشوف بسببه ، وحمل أوزاره مع أن الأسباب تعود إلى النظام أكثر مما تعود إلى الأشخاص ، وقد اضطرت روسيا نتيجة لضعف الإنتاج وسوئه أن تأخذ بنظام الاتحادات الصناعية الكبرى كما هو في الغرب .

أما في المجال الأخلاقي :

فليست هناك أخلاق ثابتة ، ولا قيم مستقرة ، فحركة المجتمع متطورة متغيرة ، فما يكون حسنا اليوم يمكن أن يكون شراً غدا ثم أن الذي يحدد المعايير والضوابط لهذه القيم والأخلاق ، هو الحزب فليس هناك مثل عليا ، ولا مصدر تستلهم منه هذه المثل . أليس هو الذي يكيل صفات المديح ونعوت البطولة ، ويوزع الألقاب والنياشين ، فإذا حدث تبدل في القيادة أو الظروف أو النظرة ، استبدلها بأقذع الأوصاف وأحطها وعلقها الحزب على - شماعة - العمال

---

(١) نشرت جريدة الحياة اللبنانية فى عددها رقم ٨٣٢٨ الصادر الجمعة ٧٢/١٢/٢٧ نقلاً عن مجلة التايمز الأمريكية فى عددها الأخير مقالاً عن الأزمة الزراعية فى روسيا أكدت فيها أن روسيا لن تعود بعد اليوم دولة مصدرة للحبوب الزراعية إلا إذا إمكن انتهاج خطة زراعية جديدة وهذا مالا تبدو بوادره فى الوقت الحاضر ... وقالت إن روسيا كانت تصدر قبل الأزمة الأخيرة إلى اوروبا الغربية حبوباً تقدر بثلاثين مليون دولار فى السنة . وأن سياسة الحزب الزراعية تكلف البلاد غالياً وإن روسيا تضطر أن تنفق العملة الصعبة التى هى فى مسيس الحاجة إليها لشراء المعدات والأجهزة التكنولوجية من الغرب ثمناً للطعام . وقد جاوزت مثل هذه النفقات عام ٧٢ كل الواردات السوفيتية من التكنولوجيا الروسية خلال خطة الخمس سنوات بالإضافة إلى أن الروس قد خسروا الثلاثين مليوناً ثمن صادرات حبوبهم للغرب . ويأتى فوق هذا كله نذر محصول سيء لعام آخر حيث نزلت نسبة البذار إلى ٢٥٪ عما كان مقرراً من قبل . ولعل هذه العوامل تفسر قبول السوفيات بمطالب أمريكا من دفع علاوة إضافية لكل السفن التى تحمل الحبوب والمواد الغذائية إلى الإتحاد السوفياتى .

والجماهير ، ألم يكن ستالين ومولوتوف ومن معهم الأبطال الذين يشار إليهم بالبنان ، فإذا بهم بعد ذلك الجلادون والسفاحون ؟؟

أما في مجال التشريع والقضـــاء :

فلا تعرف هناك حقوق مدنية مرعية يستطيع الفرد أن يطالب بها ، ويحصل عليها إذا ما اعتدت عليه السلطة ، إذ إن السلطة القضائية غير مستقلة فهي تابعة للحزب مسخرة له ، وكم حكمت على الأبرياء والمفكرين وأرسلتهم إلى معسكرات العمل ومستشفيات الأمراض العقلية [1] .

أما في مجال الحكم والسياسة :

فقد احتكرتها الطبقة الجديدة المتمثلة في الحزب وأجهزته وسلطت أقسى أنواع القهر والخوف على بقية أفراد المجتمع ، وفرضت شتى أنواع الرقابة والترصد لكل من يشم فيه التفكير الحر أو النقد للنظام ، وأصبحت سمعة أجهزة الأمن في بلاد المعسكر الاشتراكي لا تبارى ... بل أصبحت خبيرة في عمليات الإبادة وغسيل المخ ... الخ (لقد أحصي عدد السجناء السياسيين في روسيا ، فوجد أنه يفوق ما في المعتقلات السياسية في العالم كله ! ألف معسكر اعتقال فيها مليون و ٢٠٠ ألف نزيل بينهم ١٠٠ ألف سياسي) [2] . كما أن الحائط الذي أقامته ألمانيا

---

(١) نشرت – الحياة – فى عددها الصادر فى ٢٩ ديسمبر ١٩٧٢ م ، نقلاً عن مجلة الإكونومست اللندنية الأخيرة (يطلق على المعارضين فى الاتحاد السوفياتى اسم « زمرة المنشقين » وهؤلاء يتضاءلون لا لأن عددهم يتناقص بل لأن وسائل القمع والردع تأتى بنتائج مرضية لقياصرة روسيا الجدد ، وآخر مبتكرات مكافحة المعارضين أو المنشقين إرسالهم إلى لجنة خاصة من الأطباء النفسانيين ليرسلوهم بتقاريرهم إلى مستشفيات الأمراض العقلية ليمضوا حياتهم بين المجانين ...) .

(١) نشرت جريدة الحياة عدد ٨٤٥٤ تاريخ ٨ مارس ٧٣ عن جريدة الصنداى تلغراف الإنجليزية ٦ مارس تحقيقاً صحفياً على هيئة أسئلة وأجوبة عن عدد السجناء السياسيين فى روسيا أجاب عليها استيفان كونستان وجون ميلر ، وهو يتضمن تفاصيل مذهلة عن غابة سوداء مليئة بالمعتقلات التى يتجاوز عددها المائة والتى يقيم فى واحد منها فقط ثلاثون ألف سجين .

الشرقية بين القسم الشرقي الذي يتبعها والقسم الغربي الذي يتبع ألمانيا الغربية لتوقف محاولات الهروب من الجحيم الشيوعي ، وقصص الخنادق التي حفرت للتغلب على ذلك الحائط العتيد وشتى محاولات الهروب تدلنا على مقدار الأمن السياسي والحرية المكفولة في داخل ذلك المجتمع ؟!!

هذه إشارات موجزة للنتائج العملية للتجربة الماركسية في شتى المجالات ومكان الإنسان فيها والمصير الذي صار إليه .

النظرة الشاملة :

وهي النظرة التي تقوم على معرفة واقع الإنسان وفطرته التي فطر عليها وصلته بخالقه وبارئه ، وموقعه من الكون الذي يعيش فيه ، وصلته بالمخلوقات من حوله ، ولذا لا نجد فيها تحيزاً ولا هوى لجانب معين على حساب الجوانب الأخرى ، وإنما تلبي حاجة الإنسان فرداً وجماعة بالقسط دون إفراط أو تفريط ، ويمكننا أن نحدد عناصرها فيما يأتي :

(١) الإنسان مخلوق متميز :

ركب على نحو معجز ، فهو يجمع في تكوينه الجهاز الحيواني الغريزي ، والجهاز العقلي الفكري ، والجهاز النفسي الوجداني ، والجهاز الروحي ، وكل هذه الأجهزة تعمل على نحو متوافق متآلف ، ويرأس فيها الأعلى الأدنى ، فنجد هذا الكيان المعقد يحكمه الجهاز العقلي والفكري والجهاز الروحي والنفسي بشكل عجيب ومعجز ، وصدق الله حين ختم مراحل خلق الإنسان إذ قال :

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾ [١] ، ﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ

---

(١) المؤمنون : ١٢ - ١٤ والآيات بكاملها : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾

والأفئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) ، ﴿ إذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائكةِ إنّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٢) .

وها نحن نرى العلم يؤكد ذلك ويدعمه . فقد ظهر جلياً تأثير العامل النفسي على الجهاز الهضمي ، وما ينتج عن ذلك من أمراض ، كما نرى تأثير العامل الروحي وما يضفيه على نفسية الإنسان من اطمئنان وأثر الأفكار على السلوك والأخلاق . وبالعكس من ذلك نجد انتشار أمراض القلق والاضطراب العصبي في البلاد المتقدمة التي جعلت هدف الإنسان متعته ورغبته الحسية وأهملت الجوانب الأخرى . وهذا يؤكد تميز الإنسان وتفرده ووجوب العناية به كلاً لا يتجزأ ، ويضع أيدينا على التطابق بين النظرة الشاملة التي جاء بها الإسلام وبين الفطرة البشرية من جانب ومكتشفات العلم الصحيح من جانب آخر . وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٣) ، ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (٢)

وهذا يؤكد ما أشار القرآن إليه من تكريم الإنسان وتفضيله بقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (٥) .

---

(١) النحل : ٧٨ .
(٢) ص : ٧١ - ٧٢ .
(٣) فصلت : ٥٣ .
(٤) الذاريات : ٢١ .
(٥) الإسراء : ٧٠ .

(٢) وهو كائن مستخلف :

وكان خلقه على هذا النحو المعجز يعني ثلاثة أمور هامة :

(أ) أن وراء تميزه حكمة مقصودة وهدفاً مرسوماً ، وإلا لما كانت هناك حاجة لهذا التميز ، فالعقل لا يقبل إلا التعليل والغائية .. وقد وجدنا أن استخلافه في هذه الأرض بما تهيأ له من إمكانيات ومواهب هو الأمر الذي يقبله العقل ويشهد له الواقع ، وتتم به حكمة الخلق على هذا النحو ، ولهذا جاء صريح القرآن به يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (١) .

وبيّن في آية أخرى أنه مستخلف في هذه الأرض ، قال تعالى :

﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُمْ مُّسْتَخْلَفِينَ فِيه ﴾ (٢) .

وفي قصة ثمود :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (٣) ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٤) .

(ب) ويعضد الاستخلاف ويثبته بحيث لا يوجد ما يناقضه ، تسخير المخلوقات للإنسان ، فكل ما يتصل بأسباب عيشه ويشبع طاقاته ومواهبه مذلل له ميسر له ، من الأرض وفجاجها ونباتها وبحارها ، والأنعام وأنواعها ، والجبال ومعادنها والكواكب وبروجها إلى غير ذلك من أمور لا نستطيع حصرها . ولنقرأ سوياً صفحة الكون الفسيح بما فيه من أمم وأنواع وصفحة الكتاب المعجز لنرى

---

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) الحديد : ٧ .

(٣) هود : ٦١ .

(٤) الأعراف : ١٠ .

تطابق قوانين التسخير ونواميسها مع حاجة الإنسان ومطالبه ولنأخذ تلك اللوحة من القرآن المبين على سبيل المثال لا الحصر ، فالموضوع مبثوث في أماكن كثيرة من القرآن الكريم ، يقول الله تعالى في سورة النحل :

- ﴿ والأَنْعَامَ خَلقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ،

- وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ،

- وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنْفُسِ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ،

- وَالخَيْلَ وَالبِغَالَ وَالحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ،

- وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ،

هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمَون .

- يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ والنَّخِيلَ والأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ،

- وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ والشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجومُ مُسَخَّراتٌ بِأمرِهِ إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ،

- وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلوَانُهُ إِنَّ في ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ،

- وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ،

- وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ،

- وَعَلَامَاتٍ وَبالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ،

- أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ،

- وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

وإذا فهمنا هذه الصلة المتبادلة بين الإنسان والمخلوقات من حوله ودور الإنسان وفاعليته أدركنا إفلاس النظريات المادية التي تريد أن تلغي دور الإنسان الأساسي في تسييرها والاستفادة منها ، ورددنا الفهم المعكوس الذي يريد أن يعبد الإنسان للمادة وللإنتاج ووسائله ، ووضح أمامنا أن تعبيد الإنسان لربه وخالقه هو الذي يمكنه من معاملة ما استخلف عليه معاملة صحيحة من غير تنكب للفطرة أو إلغاء لدوافعها أو انحراف عن سواء السبيل .

(ج) وحتى يتمكن الإنسان من القيام بحق الخلافة هيىء على نحو يجعله قادراً على تأدية رسالته في هذه الحياة بجميع جوانبها ، فكانت عنده الدوافع التي تتطلب الإشباع والتغذية ، فلابد أن يسعى ويعمل ليرتزق ، ولابد أن يتزوج ليقضي وطره ، ويحفظ نوعه ، ولابد أن تكون عنده القدرة على التفكير والفهم ليدبر أمره ويعرف شؤونه ويضبط حوائجه ، ولابد أن يكون عنده الاستعداد ليتلقى عن ربه فتترقى مواهبه وتحسن أخلاقه وتستقيم حياته فلا يخلد إلى الأرض ، ولهذا كله كان الإنسان مستعداً للعلو والترقي ومستعداً للهبوط والتسفل . فإذا أطاع غرائزه وألقى إليها بالزمام قادته الشهوات والأهواء إلى الفساد والإفساد ، وهذا أمر مشاهد معروف ، أما إذا ضبط نفسه وحكم غرائزه وجعلها في المآرب السليمة وغذى نفسه وروحه وجوارحه بالهدى والحكمة ارتقى وكان مثال الإنسان الرشيد ، وهذا هو الفارق بين الإنسان وغيره من المخلوقات أن له من الإرادة ما يجعله يختار أحد الطريقين ، وفي ذلك يقول الله عز وجل :

---

(١) النحل : ٥ - ١٨ .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [1] ، ﴿ إنَّا خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيراً . إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إمَّا شَاكِراً وَإمَّا كَفُوراً ﴾ [2] .

ومن هنا جاء امتحانه وجاءت مسؤوليته :

﴿ إنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [3].

(٣) وهو كائن مكلف :

قلنا : إن تميز الإنسان جعله مستخلفا في هذا الكون ، ومن ثم وجبت مسؤوليته أمام من استخلفه ، واستحق بذلك أن يكون أهلا للتكليف وقد ظهر ذلك من أول يوم تم فيه خلق أبينا آدم عليه السلام ، حينما أراد الملائكة أن يتحدوا هذا المخلوق الجديد فكان أن أبطل الله تحديهم وبين لهم أن الخليفة الجديد يحمل في تكوينه شيئا لا يملكونه ولا قبل لهم بالوقوف أمامه ذلك هو القدرة على التعلم واستيعاب ما يتعلمه وإنماء ذلك وزيادته :

﴿ وَإذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إنِّي جَاعِلٌ في الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [4] .

---

(١) التين : ٤ – ٦ .

(٢) الإنسان : ٢ – ٣ .

(٣) الكهف : ٧ .

(٤) البقرة : ٣٠ – ٣٣ .

ومن هنا خوطب أبونا آدم عليه السلام أمراً ونهياً ، وظهرت في قصته المسؤولية والجزاء ثم الإنابة والتلقي ، وبذلك كان العقل في الإنسان هو جهة الخطاب وجهة التبليغ والتعليم وجاءت رسالة خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام خطاباً للعقل وإعداداً للإنسان بالعلم والتعلم في أول أمر للوحي :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) .

وما أجمل تصوير المرحوم الأستاذ العقاد لدور العقل حين قال : (إنها عجيبة لم تأت من مصادفات التضمين والتخمين ، لأن الكتاب الذي ميز الإنسان بخاصة التكليف هو الكتاب الذي امتلأ بخطاب (العقل) بكل ملكة من ملكاته ، وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعقلون قبل أن يصبح العقل (درسا) يتقصاه الدارسون كنهاً وعملاً ، وأثراً في داخله وفيما خرج عنه ، وفيما يصدر منه أو ما يؤول إليه ..

العقل وازع (يعقل) صاحبه عما يأباه له التكليف ..

العقل فهم وفكر يتقلب في وجوه الأشياء وفي بواطن الأمور ..

العقل رشد يميز بين الهداية والضلال ..

العقل رؤية وتدبير ..

العقل بصيرة تنفذ وراء الأبصار ..

والعقل ذكرى تأخذ من الماضي للحاضر ، وتجمع العبرة مما كان لما يكون ، وتحفظ وتعي وتبدىء وتعيد ..

---

(١) العلق : ١ - ٥ .

والعقل بكل هذه المعاني موصول بكل حجة من حجج التكليف ، وكل أمر بمعروف ، وكل نهي عن محظور .

(أفلا يعقلون ؟ أفلا يتفكرون ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يتدبرون ؟ أليس منكم رجل رشيد ؟ أفلا تتذكرون ؟) .

إن هذا العقل بكل عمل من أعماله التي يناط بها التكليف حجة على المكلفين فيما يعنيهم من أمر الأرض والسماء ، ومن أنفسهم ، ومن أمر خالقهم ، وخالق الأرض والسماء ، لأنهم :

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ﴾ (١) ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ (٢)

ومن هنا كان الإنسان أهلا لتحمل الأمانات والقيام بحق الاستخلاف فتمت بذلك مسؤوليته :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (٣) ، ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٤) ، ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (٥) .

ثمرة هذه النظرة ونتائجها :

١ - **التطابق والتكامل والانسجام : ونعني بالتطابق ما نراه من توافق** بين المخلوقات والكائنات المختلفة وبين الإنسان فرداً وجماعة ، وظهور ذلك

---

(١) آل عمران : ١٩١ .
(٢) الروم : ٨ « الإنسان في القرآن » ٢٤ - ٢٥ .
(٣) المدثر : ٣٨ .
(٤) البقرة : ١٤١ .
(٥) الأحزاب : ٧٢ .

بأوضح صورة وأجلاها بالتكامل الحادث بينها وبين بعضها بعضا ، وانسجام الجميع في صورة مؤتلفة متكاملة ، ووضوح دور الإنسان في الحياة ومع الكائنات والرباط المتين الذي أودعه الخالق عز وجل فيما بثه من سنن ونواميس ، تمضي ويمضي على أساسها الكائنات والإنسان .

إننا نلمح ذلك ونشهده ونراه في كل شيء ، وخذ لذلك مثلا ، الأرض التي نعيش عليها ، يقول الله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً ، فَامْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا ، وَكُلُواْ مِن رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (١) .

وانظر إلى (جعل لكم) ثم (ذلولا) ثم الأمر (بالمشي في مناكبها والسعي) في أنحائها وقدرة الإنسان على ذلك ، وطابق بين ذلك وواقع الإنسان وتعميره الأرض وزرعه وحصاده ، ثم اقرأ مع ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .

واسأل علماء التربة لينبؤوك عن مرحلة الاهتزاز التي تأتي بعد الري أو نزول الماء (واهتزازها) : تخلخلها واضطراب بعض أجسامها لأجل خروج النبات ، (وربت) أي : زادت وانتفخت أي ارتفعت وأشرفت فكأن الأرض بالماء تتطاول وتعلو . وضم إلى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) الملك : ١٥ .

(٢) فصلت : ٣٩ .

(٣) الرعد : ٤ .

وامض على هذه الطريقة في مطابقة الجوانب الكونية من تسخير السحاب وإنزال الماء مع الجوانب الحياتية المختلفة والجوانب النفسية والعملية في الإنسان، وتماسك كل شيء وانتظامه في أداء دوره بحيث لا يشذ ولا يتخلف. وصدق الله:

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ، وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ (١).

القضاء على الازدواجية: ونعني بها الازدواجية التي وجدت زوراً وبهتاناً نتيجة ردود الفعل التي حدثت في الفكر الغربي بين الدين والعلم والمادة والروح والخالق والمخلوقين، وقد توجد نتيجة التقليد والجمود في أذهان بعض المسلمين وعدم فهمهم الصحيح للإسلام، وما كان لها أن توجد أو تظهر، ذلك أن التعانق الموجود بين الكائنات الحية والجامدة لا يدع لذلك فرصة، وأن القوانين التي تجعل كلا منهما في حاجة إلى الآخر لا تسمح بهذه الانفصالية، بل إن الإنسان نفسه في تجربته القريبة أحس ولمس العذاب الذي جناه من هذه الانفصالية، وأن العلم الذي يصف ظواهر الأشياء وخصائصها ما كان له أن يقف عند حدود الأشياء المادية وحدها، لابد أن يتجاوزها إلى الحقائق النفسية والروحية بل إلى الحقائق العلمية التي لا يدرك كنهها ويرى آثارها. والحقائق الكونية الكبرى التي يتطامن عندها غرور العلماء وتنقطع عندها حجتهم وتسلم أمامها عقولهم. وهذا ما جاءت به مكتشفات القرن العشرين في ميادين الذرة والإلكترون والفضاء والأثير والمغناطيسية. وصدق الله العظيم حين أخبر بذلك:

(١) الحجر: ١٩ – ٢٢.

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولَا ، وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (٢) .

وهكذا انتهى العلم إلى الصورة التي لا تستطيع الأشياء المادية أو الروحية أن تقف كل منهما وحدها . وأصبح العلم الحق الذي يضع الشيء في صورته الشاملة ، وبذلك أصبح خادماً لنظرة الوحي التي أمرت الإنسان بالعلم والنظر ، وعصمته من الانحراف والمغالاة وصدق الله :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٢) .

٣ - وضع كل شي في مكانه ورؤية الأشياء في إطارها الصحيح :

فلا يحتل شيء غير مكانه ، فلا ينبغي للحيوان الأعجم أن يصبح مكان الإنسان العاقل ، كما لا يجوز أن تصبح المادة المخلوقة إلها يعبد ، وتكون صاحبة عقل وإرادة وقوانينها قادرة على المحو والإثبات والتغيير والتبديل ، وينزل الإنسان عن إرادته ووعيه للمادة فيمسخ ويكون عبداً تابعاً لها أو يضخم في الإنسان دور عقله وفكره فلا يرى غير ذاته ونفسه وتصبح حياته في حدود متعته ولذائذه ، وينطفىء فيه حسه الروحي والنفسي ، ويفقد حاجته إلى التزكية الخلقية والنفسية فينقلب إلى صورة هي أقرب إلى البهيمة منها إلى الإنسانية .

---

(١) فصلت : ٥٣ .
(٢) فاطر : ٤١ .
(٣) آل عمران : ١٩٠ - ١٩١ .

إن أهمية النظرة الشاملة أن تحل النظرة العادلة محل النظرة الظالمة ، فإن من العدل رؤية الكائنات كلها في صورة الخلق والتدبير والإحكام والإتقان لله رب العالمين ، ومن الظلم العظيم أن تحل النظرة المنحرفة التى تجزىء الأشياء محل النظرة العاقلة وذلك بأن يكون الشرك بالله محل الإيمان ثم تزيغ العقول والأفهام فتتخذ من دون الله أندادا ، وبهذا تنتكس الفطرة وتضطرب المناهج والسبل وتشتط ذات اليمين وذات اليسار ، فيحدث الفساد وينتشر البوار . وصدق الله :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ والأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (١) .

على ضوء هذه النتائج الثلاث لتلك النظرة الشاملة يأتي المنهج الإسلامي ، فيفصلها ويضع أسسها ويجعلها واقعاً فكرياً وعملياً يطبقها في حياة الناس ويطالبهم بها من غير إكراه ولا إعنات وهذا ما سنتحدث عنه في الفصل القادم من هذا الباب بعون الله .

---

(١) المؤمنون : ٧١

الفصـــل الثـــاني

شمول الإسْلام لجَوانب الحيَاة كلّها وحَاجَة الإنسان إلَيــه

انتهينا في حديثنا في الفصل السابق إلى قصور النظرة الجزئية وعجزها عن أن تقدم منهجاً سوياً يلائم الفطرة الإنسانية ، وقد ثبت ذلك نظرياً وعملياً كما بينا آنفاً ثم أوضحنا كيف أن النظرة الشاملة هي التي تعطي التفكير الإنساني استقامته وانسجامه مع الكون وفاطره . ونريد في هذا الفصل أن نبين كيف أن الإسلام قام على هذه النظرة وغذاها وأعطاها الأبعاد الحقيقية وأرسى دعائمها على أسس ثابتة من الفكر والاعتقاد والأخلاق والنظم والتكاليف . ويهمنا هنا أن نقدم تصوراً كلياً لمنهج الإسلام وكيف أخذ بيد الإنسان للتي هي أقوم في جميع مجالات حياته الفردية والجماعية ، ومن شأن هذا أن يضع أمامنا بناء الإسلام العام وعمارته الكبرى للحياة ، فندرك خطته وأهدافه وأين نحن من ذلك ، ونعرف طريقنا لتنفيذ هذا البناء فنأخذ الأهبة والعدة ... فما أكثر ما جنت النظرة القاصرة على أصحابها وعلى غيرهم حين قلصت الإسلام وحبسته في صورة عقيدية ، أو عبادية بحتة وعزلته عن الحياة وحركتها ، أو فكرية صرفة لا تتصل بالسلوك والأخلاق فأشبهت بذلك من يحاول عزل فرع الشجرة عن أصله فيصبح إلى الجفاف أقرب منه إلى النماء وإعطاء الثمر ، وما كذلك جاء الإسلام ، وإنما جاء حقيقة كبرى تمد الحياة برحيقها الأصيل الفريد ، وظلها الوارف الشامل ، وما أجمل وأكمل تصوير القرآن لهذه الحقيقة إذ يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

وتصوير النبي ﷺ للإسلام بالبناء الشامل الذي جاهد الأنبياء عليهم السلام قبله لإقامته ثم جاء هو ليكمله : « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلّا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة . وأنا خاتم النبيين » (٢) .

العقيدة الصحيحة وأهميتها في حياة الناس :

تقاس الأمور التي يحتاجها الإنسان في حياته بمدى أهميتها وأثرها على تفكيره وسلوكه ومنهج حياته . وإذا وضعنا سلماً لهذه الأمور نجد العقيدة الصحيحة تحتل المكان الأول ، ذلك لأنه لا يسد مسدها شيء آخر ، ولا يستعاض عنها بأي أمر مهما كانت قيمته ؛ فتأثيرها ينفذ إلى كل شيء يتناوله الإنسان ويمارسه في حياته ، وإذا أردنا مصداق ذلك فما علينا إلا أن ننظر في تاريخ الإنسان في القديم والحديث لنجد منزلة العقيدة ومكانتها ، وكيف أن انحراف العقيدة نزل بالناس إلى درك الأهواء والشهوات ، فعرب الجاهلية حينما عبدوا الأوثان صاروا إلى حياة الغاب أقرب منهم إلى حياة البشر ، والفرس حينما أغواهم (ماني) بعبادة إله النور والتخلص من الظلمة في نفوسهم بالتخلص من الشهوات كادوا ينتهون إلى الفناء . وفرعون حينما عبّد الناس له مسخهم وأذلهم .. وإنسان الحضارة الأوربية اليوم وحالة الشك والحيرة والقلق التي تؤرق عليه حياته وتنغص

---

(١) إبراهيم : ٢٤ - ٢٥ .

(٢) صحيح البخارى طبعة السلفية ؛ القاهرة : باب المناقب : ٦ - ٥٥٨ .

عليه عيشه ، وما نتج عن ذلك من اضطراب في النفوس والأخلاق والعلاقات والمجتمعات .

لقد فشلت العقائد الوضعية التي اخترعها الإنسان أو انحرف بها عن هداية السماء في أن تقدم التفسير الصحيح المقنع للوجود وخالقه ودور الإنسان فيه ، وفشلت في أن تلتقي مع الفطرة الإنسانية ذلك لأنها لا تملك المعرفة الشاملة للإنسان والكون الذي يعيش فيه ، فهي عاجزة بداهة عن تلك الإحاطة لقصورها ومحدوديتها ، وهي أشد عجزاً في معرفة خصائص الإنسان ونوازعه فأنى لها أن تتصدى لتلك المهمة الخطيرة .

إن العقيدة التي تملك اللقاء مع الفطرة البشرية وتقدم التفسير الصحيح المقنع لهذا الوجود ودور الإنسان فيه هي العقيدة الإلهية لأنها تتكلم بلغة فريدة متميزة هي لغة الخالق عزّ وجلّ فاطر هذا الوجود كله بما فيه ومن فيه ، ومن هنا فحديثها حديث الخبرة والعلم .

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) .

فلا تجنح أبداً إلى الفرض والتخمين أو الحدس والظن كما تفعل النظريات التي تحاول أن تتكلم على أصل الأرض أو أصل الإنسان وتفصلهما عن خالقهما وتنتهي بفكر الإنسان إلى المجهول فتتركه نهب الظنون والافتراضات .

﴿ وإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً ﴾ (١) .

الفطرة واستعدادها للإيمان بالله :

إن عقيدة الإيمان بالله الواحد تقوم في نفس الإنسان على أساس ما غرس الله في الفطرة البشرية من حب معرفته والإيمان به ، وعلى أساس من الآيات

---

(١) الملك : ١٤ .

(١) النجم : ٢٨ .

والدلائل التي بثها الله عز وجل في خلقه وأقامها برهاناً على ألوهيته وربوبيته ، هذه الدلائل والبينات التي تخاطب العقل وكل وسائل الحس في الإنسان ومن ثم يأتي الوحي الإلهي فيخاطب الفطرة بما استقر فيها ويعرض عليها من الآيات والبينات ما يوضح لها التصوّر الصحيح لله عزّ وجل فيحميها من التخبط والانحراف ، ذلك أن الله عزّ وجل لا يتحيز ولا يتحدد ولا يشبّه بشيء ، فهو سبحانه فوق الحس والتجربة البشريتين ، فهو كما قال عزَّ من قائل :

﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ (١) فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ (٢) . ﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ (٣) . ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٤) .

لقد جاء القرآن الكريم يؤكد خطاب الفطرة ويذكرها بما استقر فيها ، وركب في طبيعتها من معرفة الله والإيمان به يقول الله تعالى :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾ (٥) .

والتعبير في الآية الكريمة بلفظ (الناس) على الجمع بدلاً من لفظ (الإنسان) على المفرد أصرح وأوضح في الدلالة على أن الإسلام قد أنزله الله طبق

---

(١) يخلقكم في الأرحام نسلاً بعد نسل من الناس والأنعام .
(٢) الشورى : ١١ .
(٣) الأنعام : ١٠٢ - ١٠٣
(٤) الحديد : ٣ .
(٥) الروم : ٣٠ ، ٣١ .

فطرة الإنسان فرداً وجنساً ، قبائل وشعوباً ، أفراداً وجماعات . فلو كان التعبير (فطرة الله التي فطر الإنسان عليها) لكان هناك محل للتساؤل عن المقصود بالإنسان ، أهو آدم أم نسله أي هل أداة التعريف في (الإنسان) للعهد أم للجنس ، وهل الإسلام دين الفرد أو دين الجماعة ؟ أما التعبير في الآية بلفظ الجمع فقد منع هذا التساؤل وأوصد دونه الباب ، إذ قد أفاد أن الناس على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم يجدون تمام تحقيق فطرتهم في دين الله ، دين الإسلام .

والآية الكريمة تجعل الإسلام ليس فقط دين الفطرة ، ولكن نفس الفطرة التي فطر الله الناس عليها . وهذا أوجز تعبير وأوكده وأشمله بتمام انطباق الإسلام على سنن الله التي خلق عليها الإنسان ، سواء تعلقت بالبدن أو النفس ، وبالعقل أو القلب ، في الفرد والأسرة والطائفة ، أو في القبائل والأمم والشعوب .

وثبات تلك السنن ، أي في الإنسان وغيره ، واطرادها واتساقها فيما بينها ومع السنن الأخرى الجارية في الكون ، دلّ عليه أبلغ دلالة قوله تعالى : ﴿ لاتبديل لخلق الله ﴾ . كلمات قليلة حوت معاني جليلة شرحها يطول ، فهي أولاً أكدت المعاني السابقة المستفادة من الكلمات قبلها وهي ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ ، فزادت معنى الفطرة وضوحاً إذ فسرتها بالخلق ، وأضافت الخلق إلى الله سبحانه ، فأكدت كل معاني التشريف والتمام والكمال المنطوية في إضافة الفطرة إلى الله ، في قوله تعالى : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ . وإذا كانت هذه خصصت الفطرة بفطرة الناس للدلالة على الغرض الأساسي من الدين ، فإن التعميم في قوله : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ قد أكد مفهوم ذلك التخصيص لأنه شامل له ودال من ناحية أخرى على اتساق الإسلام وفطرة الإنسان مع الفطرة العامة في الكون ، فلا تناقض ولا خلف بين الفطرتين .

أما المعنى العجيب الجديد ، فهو المتمثل في الكلمتين الجليلتين ﴿ لا تبديل ﴾ من قوله : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ ، فالجلال والجمال والكمال كله

يتمثل في هذين الحرفين . فما خلق الله إنما خلقه على سنن كاملة لا تبديل لها ولا تحويل ، فليس في الوجود قدرة غير قدرة الله تتحكم فيه ، وإرادة الله التي شاءت للكون أن يكون فكان على مقتضى حكمته ورحمته لا تتغير بتغيُّر الأزمان كما تقول الأديان الأخرى غير الإسلام . والعلم الحديث يقوم وجوده ، رغم الفلسفة وشكوكها ، على هذا القانون الإلهي ، قانون (لا تبديل لخلق الله) ، إذ العلم وطريقته النظرية العلمية التجريبية متوقفة على اتساق الفطرة واتصاف سننها بالاطراد والثبوت .

وكما بدأ الله الآية الكريمة بقوله : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ﴾ ختمها عوداً على بدء بقوله : ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ . وأَمْرُ تمام اتفاق الإسلام وكمال انطباقه على فطرة الإنسان وفطرة الكون هو من الأهمية والجدة للإنسانية جميعاً بحيث يحتاج إلى كل هذا التوكيد [1] .

وهذا الكلام الذي نقلناه في توضيح الآية يدل على أن القانون الفطري لا يمكن تبديله بإحلال شيء آخر محله ... ولكن يمكن التأثير عليه وتوجيهه وجهة أخرى ولكنه يعود إلى فطرته حالماً يزول المؤثر وينتهي . وهذا يدل عليه ما رواه أبو هريرة في الصحيحين عن النبي ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » [2] ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم (فطرة الله ...) والحديث يدل على أن التغيير الذي يحدثه الأبوان في وليدهما يشبه ما يفعله صاحب البهائم في بهيمته الصغيرة حينما يشق أذنها أو يقطع أنفها ، ويقاس على ذلك كل من له سلطة أو تأثير فيغير تفكير الناس ووجهتهم إلى غير الوجهة السوية .

---

(١) « الإسلام فى عصر العلم » تأليف محمد أحمد الغمراوى ، إعداد أحمد عبد السلام الكردانى ص (١ - ٣) دار الإنسان القاهرة .

(٢) جدعه جدعاً قطع أنفه ، أو طرفاً من أطرافه .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن النبي ﷺ قال : « يقول الله تعالى : « إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً ، فأخبرهم أنه خلقهم حنفاء وذلك يتضمن معرفة الرب وتوحيده ومحبته فهذه الثلاثة تضمنتها الحنيفية وهي معنى قول : (لا إله إلا الله) » .

ويدل على تأصل هذا الأمر في الفطرة الميثاق الذي أخذه الله على بني آدم وهم في عالم الذر والذي أشار إليه الله بقوله سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ : بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (١) .

وخطاب الأنبياء لقومهم ، يقول الله في سورة إبراهيم :

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ (٢) .

أي ليس في الله شك وهو استفهام تقرير يتضمن تقرير الأمم على ما هم مقرون به من أنه ليس في الله شك ، فهذا استفهام تقرير . ولذلك كان رد الأنبياء على قومهم حينما وجدوا إصرارهم على الكفر تلك الحجة الأصيلة بأنهم يعبدون الذي فطرهم . يقول أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام لقومه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ (٣) .

---

(١) الأعراف : ١٧٢ .

(٢) إبراهيم : ١٠ .

(٣) الزخرف : ٢٦ - ٢٧ .

فربط الهداية بفاطره وخالقه للصلة الممتدة بين الفطرة وفاطرها . وفي نفس المعنى قال مؤمن (يس) :

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُواْ الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُّهْتَدُونَ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [1] .

وجاء الخطاب باسم الله في أول سورة نزلت على سيدنا محمد ﷺ يقول الله تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ثم يقول : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ .

يقول ابن تيمية : ذكر (ربك) في الموضعين بالإضافة التي توجب التعريف وأنه معروف عند المخاطبين ، إذ الرب تعالى معروف عند العبد بدون الاستدلال بكونه خلق ، وأن المخلوق مع أنه دليل ، وأنه يدل على الخالق ، لكن هو معروف في الفطرة قبل هذا الاستدلال ومعرفته فطرية مغروزة في الفطرة ، ضرورية ، بديهية أولية [2] .

ويقول : (فأصل علم الأنبياء وعملهم) أن أصل العلم الإلهي فطري ضروري ، وأنه أشد رسوخاً في النفوس من مبدأ العلم الرياضي كقولنا : إن الواحد نصف الاثنين ، ومبدأ العلم الطبيعي كقولنا : إن الجسم لا يكون في مكانين ، لأن هذه المعارف أسماء قد تعرض عنها أكثر الفطر ، وأما العلم الإلهي ، فما يتصور أن تعرض عنه فطرة وإنما الغرض هنا : أن الله - سبحانه - لما كان هو الأول الذي خلق الكائنات والآخر الذي تصير إليه الحادثات ؛ فهو الأصل الجامع ، فالعلم به أصل كل علم وجامعه ، وذكره أصل كل كلام وجامعه ،

---

(١) يس : ٢٠ - ٢٢ .

(٢) الفتاوى : ١٦/٣٢٤ .

والعمل له أصل كل عمل وجامعه ، وليس للخلق صلاح إلا في معرفة ربهم وعبادته . وإذا حصل لهم ذلك ، فما سواه إما فضل نافع وإما فضول غير نافعة ، وإما أمر مضر .

ثم من العلم به تتشعب أنواع العلوم ، ومن عبادته وقصده تتشعب وجوه المقاصد الصالحة ، والقلب بعبادته والاستعانة به معتصم مستمسك ، قد لجأ إلى ركن وثيق ، واعتصم بالدليل الهادي ، والبرهان الوثيق ، فلا يزال إما في زيادة العلم والإيمان ، وإما في السلامة عن الجهل والكفر .

وبهذا جاءت النصوص الإلهية ، في أنه بالإيمان يخرج الناس من الظلمات إلى النور ؛ وضرب مثل المؤمن - وهو المقر بربه علماً وعملاً - بالحي ، والبصير ، والسميع ، والنور ، والظل .

وضرب مثل الكافر بالميت ، والأعمى ، والأصم ، والظلمة ، والحرور . وقالوا في الوسواس الخناس : هو الذي إذا ذكر الله خنس ، وإذا غفل عن ذكر الله وسوس .

فتبين بذلك أن ذكر الله أصل لدفع الوسواس الذي هو مبدأ كل كفر وجهل وفسق وظلم . وقال الله تعالى :

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ (1) وقال : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (2) وقال : ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (3) ﴾ (4) .

---

(1) الحجر : ٤٢ .
(2) النحل : ٩٩ .
(3) آل عمران : ١٠١ .
(4) الفتاوى : ١٥/٢ - ١٧ .

مهمة الأنبياء :

وكانت مهمة الأنبياء عليهم السلام تذكير الفطرة بخالقها وتخويفها عاقبة النسيان والإهمال ، قال الله تعالى مخاطباً سيدنا موسى وهارون بشأن فرعون : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[١] أي يتذكر ما في فطرته من العلم الذي به يعرف ربه ويعرف إنعامه عليه ، وإحسانه إليه ، وافتقاره إليه ، فذلك يدعوه إلى الإيمان ، أو يخشى ما ينذره من العذاب ، فذلك أيضاً يدعوه إلى الإيمان ، وقد كان هذان الأمران قطبي دعوة كل نبي . يقول الله تعالى لنبينا محمد ﷺ : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴾[٢] .

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٣] ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[٤] .

وعلى العكس من ذلك كان التحذير من النسيان :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[٥] .

والتذكير هنا هو إيقاظ كل ملكات الحس والفكر والوجدان في الإنسان ليحصل على اليقين الذي به يستقر الإيمان في القلب ، ويدفع إلى العمل بما جاء به الأنبياء ، فقصة الخلق والتدبير والإحكام والإبداع تذكر الإنسان بربه وخالقه . إنها تُعرض عليه بصورة أخاذة رائعة . استمع إلى القرآن وهو يعرض عليك جانباً

---

(١) طه : ٤٤ .
(٢) الأعلى : ٩ - ١٢ .
(٣) الذاريات : ٥٥ .
(٤) ق : ٣٧ .
(٥) الحشر : ١٩ .

من حركة الفلك الدوار وتوالي الليل والنهار ، وانتظام الأحياء والحياة مع هذا النسق وذلك الترتيب . يقول سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

وانظر إلى بداية الآية وما يقتضيه هذا الخلق من دلالة على الخالق تستوجب الإيمان كما يستلزم الشعاع العلم بالشمس ، ثم انظر إلى ﴿ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ ثم انظر إلى نهاية الآية ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ .

لما سمع جبير بن مطعم سورة الطور من فم النبي ﷺ وهو يومئذ على الشرك ، فلما انتهى ﷺ إلى قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٢) قال : لما سمعتها أحسست بفؤادي قد تصدع ، وفي رواية كاد فؤادي يطير (٣) وذلك لأنها هزت كيانه ولأنها تعرض القضية بمنطق بسيط على هيئة استفهام يحمل الإنكار على المشركين ، فهي تقول : أوجدوا من غير مبدع فهم يعلمون أنهم لم يكونوا من غير مكون . أم هم أوجدوا أنفسهم ؟ وهم يعلمون أنهم لم يكوّنوا أنفسهم أي لا هذا ولا هذا ، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً يقول ابن كثير : إن هذه الآية من جملة ما حملت جبير على الدخول (٤) في الإسلام بعد ذلك .

---

(١) الأعراف : ٥٤ .
(٢) الطور : ٣٥ - ٣٦ .
(٣) الحديث مخرج فى الصحيحين من طرق عن الزهرى .
(٤) تفسير ابن كثير : ٦ : ٤٣٦ ، ٤٣٧ .

وقد كثر في القرآن الكريم عرض الآيات وخطابات الملكات الحسية والفكرية والنفسية في الإنسان ليحصل المقصود بها ، وهو إقامة عقيدة الإيمان بالله على اليقين الثابت الذي لا يعتوره شك ولا ريب .

عائقا الفطرة عن الهداية : الجحود والجمود :

ويعوق الفطرة عن هداية الله والإيمان به ، والخضوع لرسالته داءان وبيلان هما الجحود والجمود فإنهما إذا ما نشبا في النفس أو أصيبت بأحدهما عميت عن الحق وأعرضت عن سبيله .

والجحود : هو جحد الشيء وإنكاره مع العلم به وقيام دواعيه لدى النفس والعقل ، ويسبب ذلك ويدفع إليه الشهوات والشبهات ، فالشهوات إذا احتلت نفساً غطت منافذ الحس وقادت العقل إلى حيث تريد ، وزينت له سوء عمله . وأقوى الشهوات عموماً شهوة السلطان والجاه وما تجره من الكبر والاستعلاء واتباع الهوى الذي يضل عن سواء السبيل ، فقد دفعت هذه الشهوة فرعون وملأه إلى عدم الاستجابة لدعوة موسى عليه السلام ، قال الله تعالى :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا فانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِينَ ﴾ (١) .

ودفعت فرعون إلى التبجح والتطاول على الله ، حينما قال لوزيره هامان :

﴿ يَا هَامَانُ ٱبْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ ٱلسَّمَاوَات فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِني لأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ (٢) .

---

(١) النمل : ١٤ .
(٢) غافر : ٣٦ - ٣٧ .

وفعلت فعلها في زعماء قريش حينما دعاهم رسول الله إلى الإسلام ، قال الله تعالى :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ ٱلظَّالِمِينَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (١) .

• ذكر محمد بن إسحاق عن الزهري في قصة أبي جهل ، حين جاء يستمع قراءة النبي ﷺ من الليل هو وأبو سفيان صخر بن حرب ، والأخنس بن شريق ، ولا يشعر أحد منهم بالآخر ، فاستمعوها إلى الصباح ، فلما هجم الصبح تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقال كل منهم للآخر : ما جاء بك ؟ فذكر له ما جاء ، ثم تعاهدوا أن لا يعودوا لما يخافون من علم شباب قريش بهم ، لئلا يفتتنوا بمجيئهم ، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ، ظناً أن صاحبيه لا يجيئان ، لما سبق من العهود ، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق ، فتلاوموا ثم تعاهدوا أن لا يعودوا ، فلما كانت الليلة الثالثة جاؤوا أيضاً فلما أصبحوا ، تعاهدوا أن لا يعودوا لمثلها ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ، قال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها وما يراد بها ، قال الأخنس : وأنا الذي حلفت به ، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به ولا نصدقه ، قال : فقام عنه الأخنس

---

(١) الأنعام : ٣٣ .

وتركه »[1] . قال شداد بن أوس : يا نعايا العرب إن أخوف ما أخاف عليكم : الرياء والشهوة الخفية . قيل لأبي داود السجستاني : ما الشهوة الخفية ؟ قال : حب الرياسة فهي خفية تخفى على الناس وكثيراً ما تخفى على صاحبها[2] .

والشبهات : هي الأمور التي تتردد في النفس ولا يطمئن لها القلب ، وهي التي لا تكون من الأمور المحكمة الواضحة فإذا اتبعها الإنسان ووقع فيها قادته إلى الباطل والحرام ، وسبيلها الظن واتباع الهوى وعدم الوقوف عند الحدود التي حدها الله ورسوله ، وذلك كما فعل النصارى حينما ضلت عقولهم بسبب ما شبه عليهم بإحياء عيسى الموتى ، وإبراء الأكمة والأبرص ، فجعلوه كأنه الله ، أو أن الله حل فيه ، وكما حدث من الخوارج حينما اتبعوا هواهم ، ورفضوا التحكيم ، وخرجوا على الإمام علي رضي الله عنه وأعملوا السيف في رقاب المسلمين .

والشهوات والشبهات توقع أصحابها في الذنوب واقتراف الآثام وبذلك يظلم القلب وتقسو النفس وتغطيها الحجب فلا تبصر الحق ولا تهتدي إلى الخير . في الترمذي عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا أذنب العبد نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد نزيد فيها حتى تعلو قلبه فذلك الرين الذى قال الله فيه :

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[3] .

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[4] .

والجمود : هو أن يقفل الإنسان عقله ونفسه على شيء لا يتجاوزه ، وهو التصلب والتحجر ومنه وصف السائل حين يجمد بأنه : صلب (ضد ذاب)

---

(١) تفسير ابن كثير : ١٦/٣ .
(٢) الفتاوى لابن تيمية : ٣٤٦/١٦ .
(٣) المطففين : ١٤ .
(٤) البقرة : ٨٨ .

وجمدت عينه أي قل دمعها وذلك يعني عدم العطاء والتفكير . وأظهر ما يكون الجمود في تقليد الأشخاص والآراء بدون دليل ولا حكمة . ومن أول من فعل ذلك الكفار حينما دعاهم الأنبياء إلى التوحيد ، لم يناقشوا القضية ، ولم ينظروا في أدلتها ، وإنما قالوا كما حكى القرآن في سياق حواره مع مشركي مكة :

﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (١) .

وواضح أن المصيبة كانت في المترفين أصحاب الشهوات ، ولذلك أنكر عليهم القرآن ذلك الموقف فقال : ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٢) .

وقد ذم القرآن التقليد ، وشنع عليه ، بين خطره على وسائل الحس والتفكير في الإنسان وإنه يصيبها بالكلل والتوقف . قال تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ الله قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيهِ آبَاءَنَا أَوَ لَو كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

عن ابن عباس أنها نزلت في طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام فقالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، فأنزل الله هذه الآية ، ثم ضرب لهم مثلاً ، كما قال تعالى :

﴿ للذِيَن لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرةِ مَثَلُ السُوء ﴾ .

فقال : (ومثل الذين كفروا) فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها بل إذا نعق بها راعيها أي دعا إلى ما

---

(١) الزخرف : ٢٣ .

(٢) الزخرف : ٢٤ .

(٣) البقرة : ١٧٠ - ١٧١ .

يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه ، بل إنها تسمع صوته فقط ، وهم صم عن سماع الحق ، بكم لا يتفوهون به ، عمي عن رؤية طريقه ومسلكه (فهم لا يعقلون) لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه ، كما قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) (٢) .

وإذا نظرنا إلى هذه العوائق التي ذكرتها من الشهوات والشبهات والتقليد وجدنا أنها القاسم المشترك في صد الناس عن دين الله ، وقد يقع فيها المسلمون حينما يهملون أمر أنفسهم وأخلاقهم ، ولا يعتنون بتفكيرهم وإصلاح أحوالهم . وقد جاء الإسلام يقي المسلم سيطرة الشهوات وضغط الشبهات ، والوقوع في التقليد حينما طلب إليه النظر والتأمل ، وربط تفكيره بالحجة والدليل ، وربَّاه على ضبط نفسه وتزكية أخلاقه ، ومنعه من أن يكون إمّعة أو مستضعفاً ، وجعل بين يديه الكتاب الهادى وسنة رسول الله المعصوم .

رسالة الأنبياء ضرورة بشرية :

وإذاً فحاجة البشر إلى علم الأنبياء حاجة ضرورية ، ولا يمكن الاستغناء عنها ولا إيجاد بديل لها ، ذلك أنهم وسيلة التذكير ووصلة التعريف بالله بما عرف به نفسه ، وأخبر به عن جلاله وعظمته ، فقد سدت جميع الطرق إلا من طريقهم ، وقام الدليل على أن سبل غيرهم فيها حيرة وضلال وبعد عن الحق والصواب ، وفي قصة البشرية من لدن آدم عليه السلام إلى اليوم فصل الخطاب ، على ذلك مضت سنة الله ، وقامت نواميسه .

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ (٣) .

---

(١) الأنعام : ٣٩ .
(٢) تفسير ابن كثير : ٣٥٩/١ - ٣٦٠ .
(٣) فاطر : ٤٣ .

قال الله لآدم عليه السلام بعد نزوله إلى الأرض :

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ونَحْشُرُهُ يوْمَ القِيَامَةِ أعْمَى قَالَ رَبِ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسَى ﴾ [1] .

وقال إبراهيم عليه السلام لأبيه :

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا ﴾[2] .

وقال نوح لقومه :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَّبِّي وآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ [3] .

وخاطب الله نبينا محمداً ﷺ فقال :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهدِي بِهِ مَن نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللهِ الذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰواتِ وَمَا في الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ [4] .

---

(١) طه : ١٢٣ - ١٢٦ .

(٢) مريم : ٤٣ .

(٣) هود : ٢٨ .

(٤) آخر الشورى .

اختيار الأنبياء :

وقد جاء اختيار الأنبياء اختياراً يحمل على الثقة بهم والتصديق برسالتهم والتأسي بأخلاقهم ، فكان النبي يصطفى من قومه ليجمع إلى أصالة النسب فيهم القرابة التي توجب الألفة النفسية والقلبية معهم ، والإدراك العميق لظروفهم الفكرية وأحوالهم الاجتماعية لأنه نشأ بين ظهرانيهم وأمضى حقبة كبيرة من عمره يمارس الحياة معهم ، إذ كان يبعث على رأس الأربعين وكفى بها سناً تدعم التجربة وتصقل الموهبة ، يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ (٢) .

ويقول : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣) .

ويقول : ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٤) .

روى البخاري : عن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان

---

(١) إبراهيم : ٤ .
(٢) هود : ٥٠ .
(٣) الجمعة : ٢ .
(٤) يونس : ١٦

رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بإيلياء ، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : فقلت : أنا أقربهم نسباً ، فقال : أدنوه مني ، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره .

ثم قال لترجمانه :

قل لهم : إني سائل هذا الرجل ، فإن كذبني فكذبوه . فو الله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً ، لكذبت عنه . ثم كان أول ما سألني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا .

قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا ، قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقلت : بل ضعفاؤهم قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون .

قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا .

قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا .

قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا . ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها .

قال : ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة .

قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم .

قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه .

قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً : واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها .

وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتي بقول قبله .

وسألتك هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا ، قلت فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل .

وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .

وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك بم يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين . وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه

منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه) [1] .

ولم يكن اختيار النبي يأتي على حين بغتة أو فجأة ، بل كان يسبقه الإعداد والتربية لهذا الأمر العظيم والعبء الثقيل ، وتأتيهم الرسالة فتصقل هذا الإعداد وتنمي تلك الأخلاق وتصحبهم في تلك الرحلة العظيمة رحلة هداية الناس إلى ربهم ، فترى فيهم الخلق العظيم والصبر الجميل ، والعفاف الكريم والثبات على الحق والإصرار عليه ، والتجرد من الأغراض الشخصية والمنافع الذاتية . ترى فيهم صدق العبودية لله والحرص على هداية البشر والمثل الفذ للأخلاق الكريمة .

قال الله في شأن موسى عليه السلام :

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [2] .

وفي شأن نوح عليه السلام :

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [3] .

وفي توجيه محمد رسول الله ﷺ :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [4] .

---

(١) فتح البارى : ٣٠ - ٣٤ .

(٢) طه : ٣٩ .

(٣) الشعراء : ١٠٧ - ١٠٩

(٤) المزمل : ١ - ٥ .

وقوله سبحانه :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (١)

وقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢) .

ولهذا قص الله علينا قصصهم ليكونوا لنا مدرسة جامعة نعرف منها قصة البشرية وملحمتها مع الرسالة الإلهية لندرك منها سنن الله ونواميسه ، وليكون الأنبياء معنا في رحلة الحياة نعم القدوة والأسوة وصدق الله :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فى إِبْرَاهِيمَ والَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرآءوا مِنْكُم ومِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ والْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلُكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ . رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إنكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ . لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ وَمَنْ يَتولَ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الحَمِيدُ ﴾(٣) .

﴿ لَقَدْ كَانَ في قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ولكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) الانشراح : ١ - ٤ .

(٢) القلم : ٥ .

(٣) الممتحنة : ٤ - ٦ .

(٤) يوسف : ١١١ .

﴿ أولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

وقد دعا الأنبياء جميعا إلى دعوة واحدة وركزوا هدفهم نحو غاية واحدة ، ألا وهي عبادة الله وتوحيده :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٢) .

ذلك أن عبادة الله وإخلاص العمل له هو حجر الزاوية ومحور الاتجاه ، فإذا سلم هذا الأصل جاءت الشريعة والتكاليف تصوغ الفرد والجماعة على أساس ذلك الأصل الكبير ... أما إذا فسد ذلك الأصل ولعبت به الشهوات والشبهات ضل الناس عن سواء السبيل ، وشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله من غير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

ومن هنا أكد كل نبي دعوة أخيه وبنى عليها وصدقها ولم يخالفها ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (٣) .

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ ٱلإِنجِيلَ فِيهِ هُدى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَهُدى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) الأنعام : ٨٩ - ٩٠ .
(٢) النحل : ٣٦ .
(٣) الشورى : ١٣ .
(٤) المائدة : ٤٦ .

وكان الفرق الوحيد بينهم اختلاف أسلوب المعجزة التي يؤيد بها كل واحد منهم ، والشريعة التي يكلفون بها ، وذلك ملاءمة لظرف كل مجتمع وحاجة كل أمة ، قال الله تعالى :

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (١) .

وظلت دعوة الأنبياء تتوالى وتتتابع حتى تهيأت البشرية لرسالة خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ فكان مسك الختام ، والحجة على العباد ، به تمت الدعوات وكملت الرسالات ، وتبين الرشد من الغي وتميز الحق من الباطل فجاءت رسالة الإسلام تحمل أصلين مهمين : الديمومة والعالمية ، أما الديمومة فتأتي من معنيين :

١ - ختام الرسالات بمحمد ﷺ ، فلا رسول بعده ولا نبي بعده .

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِن رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (٢) .

وقول النبي ﷺ : « فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » (٣) ومن وعد الله عز وجل لرسوله بإظهار دينه على الدين كله .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) المائدة : ٤٨ .
(٢) الأحزاب : ٤٠ .
(٣) فتح البارى : ٥٥٨/٦ .
(٤) الصف : ٩ .

٢ - كمال الرسالة وتمامها :

﴿ اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ (١) .

وأما العالمية : فتأتي من خطاب القرآن للنبي ﷺ :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

ومن الرسائل التي وجهها النبي ﷺ إلى كل الأمم والممالك التي كانت موجودة في عهده ، وقوله ﷺ : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي ... ومنها : وكان النبي يبعث في قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة » .

إن معنى كمال الرسالة وختمها لما سبقها من رسالات ، وعالميتها ، نرى مصداقه في هدي الإسلام الذي خاطب الفطرة البشرية أين كانت وأينما وجدت ، وفي الطريقة التي نزل بها القرآن الكريم واهتمامه بإرساء القواعد والأسس الكلية وترك التفصيلات ، وفي الأسلوب الذي عالج به النبي ﷺ حياة الناس ومشكلاتهم ومعاملاتهم ودلهم على الهدى الذي يؤكد القيم الخالدة التي يحتاجها الناس في كل زمان ومكان ثم مطالبة أهل العلم والفقه من حملة الإسلام بالاجتهاد الدائم لمقابلة حاجات المجتمع المتغيرة ، وهذا باب طويل لا يفي به هذا الإيجاز .

صفاء الإسلام من التحريف والمغـالاة :

وجاء الإسلام على حين فترة من الرسل فوجد انحرافات كثيرة قد غيرت معالم الدين الحق ، وجد اليهود وقد انحرفوا في تصورهم لله عز وجل فجسموه وشبهوه .

---

(١) المائدة : ٣ (٢) سبأ : ٢٨ (٣) الأنبياء : ١٠٧

﴿ وقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ (١) .

وادعوا أنه إلههم من دون العالمين ، وأنهم شعبه المختار ، ثم غيروا وبدلوا وأشركوا بالله .

﴿ وقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ ﴾ (٢) . ﴿ وقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنْتُم بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٣) .

ووجد النصارى قد ضلوا حين أحلوا الله عز وجل في (عيسى) ونعتوه بأنه ابنه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِم يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُم اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٤) .

ومن ثم اتخذوا الوساطة بعد ذلك بينهم وبين المسيح عليه السلام طريقا للدين – وهو من ذلك براء – ثم أعطى آباء الكنيسة لأنفسهم سلطة التحريم والتحليل حتى غدت المسيحية طقوسا تنفذ وشرائع تبتدع وانتهت إلى وثنية مغرقة في الصور والتماثيل والتراتيل وإلى مداهنة للأهواء والشهوات ولا حول ولا قوة إلا بالله .

واختار الله عز وجل أن تبدأ مسيرة الإسلام من العرب لأنهم كانوا من أقل الأمم فسادا ، وكانت فطرتهم لا تزال على سجيتها ، وخصائصهم الأخلاقية لا تزال سليمة لا تشوبها إلا شائبة الانحراف والمغالاة ومن ناحية أخرى كانوا من

---

(١) المائدة : ٦٤ .
(٢) التوبة : ٣٠ .
(٣) المائدة : ١٨ .
(٤) التوبة : ٣٠ .

أبعد الأمم عن استبداد الأباطرة والقياصرة ، وكانت الحرية والكرامة من أغلى القيم التي يفتدونها بالمهج والأموال ، ولا غرو فقد أورثتهم البيئة والتقاليد التي نشأوا عليها تلك الثقة النفسية والاعتزاز الشديد بقبائلهم وأصولهم والقدرة الفكرية على التأمل والنظر ، فكان لهذا ولغيره أن ابتعث الله رسوله محمدا ﷺ فيهم .

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (١) .

فكان من أولى مهماته أن يصحح عقيدة التوحيد في نفوسهم وأن ينقيها مما شابها وران عليها وأن يضعها في مكانها الصحيح من بناء الدين وفي سبيل ذلك ناقش اليهود في مفترياتهم والنصارى في انحرافاتهم ، وجاء وحي الله يخاطب الفريقين بقوله :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) .

وقال للنصارى :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرُسلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ (٣).

وناقش العرب في وثنيتهم وردهم إلى التوحيد الخالص بأسلوب رائع ومحكم .

---

(١) الأنعام : ١٢٤ .

(٢) آل عمران : ٦٤ .

(٣) النساء : ١٧١ .

أهمية العقيدة في الإسلام وأثرها في النفس والمجتمع :

ووقف النبي ﷺ يطالب الناس بالإيمان بالله فاطرهم ومبدع الكائنات من حولهم ... ذلك الإيمان الذي يجد استجابته في فطرتهم وتصديقه وبرهانه في الآيات المبثوثة في كل صغيرة وكبيرة في هذا الوجود كله على نحو ما أوضحنا سلفاً ... وكانت وسيلة النبي ﷺ في عرضه دعوته الحجة والإقناع وبرهانه الوحي والآيات :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (١) .

ولم يكن معه جاه ولا سلطان ولا عدة ولا عتاد ولا قبيلة ولا ناد وإنما سلاحه صدقه وأمانته وإخلاصه وحلمه وثباته وعزمه .

لقد طلب إليهم أن يعودوا إلى أنفسهم ، وأن يفكروا في حياتهم ، وأن يختاروا بين الإيمان والشرك ، بين التوحيد والوثنية من غير إكراه ولا ضغط .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾(٢) ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾(٣) ، ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٤) .

---

(١) النحل : ١٢٥ .
(٢) الكهف : ٢٩ .
(٣) سبأ : ٤٦ .
(٤) البقرة : ٢٥٦ .

وظلت آية الإسلام الكبرى وطريقته العظمى الدعوة باللين والرفق والأناة والحلم وإزالة العقبات التي تعوق الفطرة عن الإيمان ، فلم يرفع سيفاً لإكراه على عقيدة ، وإنما رفعه لإزالة الطواغيت ورد الظلم عن المظلومين وعلى الناس بعد ذلك أن يختاروا ، يقول ﷺ : « ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين العرب » .

ولقد سلك النبي الكريم الطريق العملي إلى القلوب والعقول ، فتدرج بهم مرحلة بعد مرحلة وخطوة بعد خطوة دعاهم إلى العقيدة أولا وأفرغ همه في ذلك لأنها أساس التصور وركيزة البناء الأولى وجاء القرآن المكي يتحدث عن الله عز وجل وصفاته وآلائه ونعمه وآياته المبثوثة في الكون ، وعن خلقه وتدبيره ، وعن إحاطته وعلمه وهيمنته وعن وجوب الإيمان به والاستعداد للقائه وعن البعث والحساب والجنة والنار ، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : « إنما نزل أول ما نزل منه (أي القرآن) سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ولو نزل : لا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنى أبداً لقد نزل بمكة على محمد - ﷺ - وإني لجارية ألعب :

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (١) .

وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده » (٢)

لقد حددت عقيدة الإيمان بالله الواحد مكان الإنسان من ربه ومكانه في الكون ، ثم حددت الشريعة حقوق الله عليه ، وواجبه تجاه نفسه وإخوانه المؤمنين ، وتجاه جنسه ودوره ورسالته في الحياة ، لقد وضعته العقيدة أمام خالقه وفاطره وإلهه وبينت له أنه منه البداية وإليه النهاية : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٣) ، ووضحت له أن هذه الكائنات والعوالم

---

(١) القمر : ٤٦ .

(٢) البخارى : باب تأليف القرآن .

(٣) الحديد : ٣ .

كلها المنظور منها وغير المنظور ، محكم ومقدر تقديراً وبأنها لم تخلق سدى ولا عبثاً وأن مقتضى ذلك ، الإيمان بالله وحكمته وعلمه وقدرته ، وبكل صفات الكمال التي أخبر بها عن نفسه وأن ذلك يتضمن الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره . ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بالله وَمَلائِكَتِهِ وكُتُبِه ورُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (١) .

وحينما يختار الرجل الإيمان بالله ويفيء إليه ، ويضع يده في يد النبي الكريم ﷺ كان يتعهده بالتربية النفسية والعلمية والفكرية ، فيفتح آفاق نفسه بالعبادة والذكر ، وينشط فكره بالتأمل والنظر ، ويقرأ عليه آيات الله والحكمة ، فيخرج من ضيق الدنيا إلى سعتها ويترك عبادة أهوائه وشهواته إلى عبادة الله وتسبيحه ويتحول من ضيق النظرة المادية والجنسية والقبلية والإقليمية إلى الإحساس بنعم الله في نفسه والمخلوقات من حوله فتصبح نظرته نظرة الشكر والحمد لا نظرة الجحود والنكران فيمنحه الإيمان سعة وامتداداً وأملاً وانشراحاً وتآخياً وعملاً صالحاً ، إنه يرى ذلك في نداء الله له :

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فاعْبُدُونِ ﴾ (٢) .

ويراها في قوله سبحانه :

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (٣) .

ومن ثم يجد الطمأنينة والأمن والرضى واليقين .

---

(١) البقرة : ٢٨٥ .
(٢) العنكبوت : ٥٦ .
(٣) البقرة : ١٥٢ .

﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُهْتَدُونَ ﴾ (١) .

ثم كان يسلكه ﷺ في جماعة المؤمنين ، وينظمه في عقدهم فيتفاعل معهم ويتآلف قلبه مع قلوبهم ومن ثم يتحرك المعنى الاجتماعي للإيمان في الحياة بنظرته الجديدة ومفاهيمه الجديدة . فلم تصبح الرابطة رابطة نسب أو طين وإنما رابطة إيمان في الله وحب فيه ونعاون على البر والتقوى ، فتحدث النقلة الجديدة من حياة الشرك إلى حياة الإيمان ، ومن مجتمع الجاهلية إلى مجتمع الإسلام وصدق رسول الله : « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام دينا وبمحمد رسولاً » (٢) .

وهكذا يصبح طريق المسلم في دعوة غيره هو الطريق الذي سلكه محمد رسول الله وربى عليه أصحابه ، ألا وهو التركيز على العقيدة وما يثبتها أولاً ، فإذا وضحت ودخلت إلى القلب تحركت النفس وتغيرت وملأت الدنيا خيراً وعملاً صالحاً .

الإسلام والمسؤولية الفردية والجماعيـة :

لقد دعا ﷺ الناس فرادى وجماعات للدخول في دين الله ، ولكن كانت عملية القبول أو العدول عن الإسلام يقررها كل إنسان بنفسه لأنه مسؤول عن عمله محاسب عما يقدم بين يديه :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ (٣) ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (٤) ، ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (٥) .

---

(١) الأنعام : ٨٢ .
(٢) رواه مسلم .
(٣) فصلت : ٤٦ .
(٤) المدثر : ٣٨ .
(٥) النجم : ٣٨ .

ولهذا جعل الإسلام مناط التكليف أمرين : أمر يتعلق ببلوغ الدعوة إلى المكلفين حتى تسقط حجتهم وينتفي عذرهم ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (١) .

﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعد الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ (٥) .

والأمر الثاني : أن يكون هؤلاء المخاطبون قد بلغوا مرحلة التكليف بأن تكون قواهم العقلية سليمة ، وأن يكونوا قد تجاوزوا مرحلة الصبا ووصلوا مرحلة البلوغ والرشد حتى يجوز عليهم القلم ويكتب أعمالهم . يقول ﷺ : « رفع القلم عن ثلاث : عن الصبي حتى يبلغ ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يفيق » .

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾(٣) ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنْ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾(٤) .

وقد اهتم الإسلام – تبعاً لنظرية مسؤولية الفرد عن أعماله – بإيقاظ إرادته وإحياء نفسه بأن جعل الأعمال وقبولها مرتبطاً بالنية والقصد ، فقال ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل أمرىء ما نوى » .

بل واهتم بتحرر الإرادة وإخلاصها من كل شائبة من شوائب الرياء والنفاق . يقول الله تعالى :

---

(١) الإسراء : ١٥ .
(٢) النساء : ١٦٥ .
(٣) الإسراء : ١٣ ، ١٤ .
(٤) مريم : ٩٣ ، ٩٥ .

﴿ وَمَا أُمِرُواْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُواْ الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ (١) . وقال : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ (٢) .

وحتى تصبح التكاليف بعيدة عن حدي الغلو والتفريط ، ربطها الإسلام بوسع الفرد وطاقته فقال سبحانه :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (٣) .

فأي شيء جاوز طاقة الفرد بأن عرض له ما يعجزه عن أداء ما كلف به من مرض أو غيره أو عارض يؤثر في طريقة الأداء كالسفر والحرب وغيرهما ، حدث التخفيف والتجاوز تحقيقاً للقاعدة الآنفة .

ومتى دخل الفرد في عقد الإيمان وأعطى صفقة يمينه وأقرّ به جنانه ، ونطق به لسانه وأدى أركانه ، فقد دخل في جماعة المؤمنين فيصبح عضواً حياً فيها ، نافعاً لها ، لا كلاً عليها ، ولا سلبياً تجاهها ، وتحقيق وجوده بوجودها ، فتصبح جزءاً من كيانه ويصبح مسؤولا عنها وهي مسؤولة عنه ، ومن هنا جاء خطاب المؤمنين بوصف الإيمان وطولبوا بأداء التكاليف الجماعية لتنمو روح الفرد من خلال الجماعة وتسمو الأخلاق وتزكو النفوس ، ولهذا وصف الله الجماعة بالأوصاف الطيبة أوصاف الألفة والنصرة والرحمة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاهد على الحق والصبر .

---

(١) البينة : ٥ .
(٢) الكهف : ١١٠ .
(٣) البقرة : ٢٨٦ .

يقول الله تعالى :

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ (١) ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (٢) .

وعلى النقيض من ذلك جاء وصف الإنسان مربوطاً بالذم لبعده عن الإيمان بالله وجماعة المؤمنين .

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسرٍ إِلَّا الَّذِيَن آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾(٣) . ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ (٤) . ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ (٥) ، ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (٦) .

نظام الإسلام وتحقيقه سعادة الفرد والجماعة :

يمضي الإسلام بالمؤمنين فينظم لهم حياتهم ويصنع بهم عمارته الكبرى في الحياة ، لا يتركهم هملاً ولا يكلفهم من أمرهم عسراً ، وإنما يختط بهم الخطة الرشيدة التي تجعلهم يقومون بأعباء الحياة على نحو فاضل كريم ... إن رحلة الحياة تحتاج الزاد المتواصل ، فقد خلق الإنسان ومعه طموحه وحرصه ، وفي نفسه حب الشهوات التي تزين له مآربه من أعراض هذه الحياة ومنافعها ، ثم الشيطان يترصده بالغواية والوسوسة ، ومن هنا كانت الحياة امتحاناً كبيراً ، وبلاء عظيما :

---

(١) البلد : ١٧ .
(٢) التوبة : ٧١ .
(٣) العصر : ٢ - ٣ .
(٤) المعارج : ١٩ - ٢٢ .
(٥) العاديات : ٦ .
(٦) الأحزاب : ٧٢ .

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾(١) ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُم أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (٢) ، ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُم أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ (٣) .

ولكي يواجه الإنسان هذا الامتحان وينجح فيه كان لابد له من عون أصيل ومدد دائم لا ينقطع ، مدد ينبع من داخل نفسه وينمو في أقطارها ، وتتغذى به جوارحه وملكاته الحسية والفكرية والروحية ، وكان لابد حينئذ أن يكون متصلاً بخالقه وفاطره ليكون الغذاء أصيلاً والزاد شافياً ، وقد كانت أولى مهمات النبي الكريم ﷺ ، تعليم العلم النافع الذي يزكي نفوسنا ويزودها بالخير قال الله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٤) .

فلم تكن مهمته مجرد تعليم الكتاب والحكمة بل تعليمهما ليكونا سبيلاً إلى تزكية النفوس وتطهيرها :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهاً ﴾ (٥) ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنَ تَزَكَّى ﴾ (٦) .

قال الراغب في تفسير مفردات القرآن تحت كلمة زكا : « أصل الزكاة النمو الحاصل عن بركة الله تعالى ويعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية ، يقال : زكا الزرع يزكو إذا حصل منه نمو وبركة ، وقوله : ﴿ أيها أزكى طعاماً ﴾ .

---

(١) الإنسان : ٢ .
(٢) الكهف : ٧ .
(٣) الملك : ٢ .
(٤) الجمعة : ٢ .
(٥) الشمس : ٧ - ١٠ .
(٦) الأعلى : ١٤ .

إشارة إلى ما يكون حلالاً لا يستوخم عقباه ومنه الزكاة لما يخرج الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء وتسميته بذلك لما يكون فيها من رجاء البركة أو لتزكية النفس أي تنميتها بالخيرات والبركات أولهما جميعاً فإن الخيرين موجودان فيها . وقرن الله تعالى الزكاة بالصلاة في القرآن بقوله : ﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ﴾ وبزكاة النفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة ، وفي الآخرة الأجر والمثوبة . وهو أن يتحرى الإنسان ما فيه تطهيره وذلك ينسب تارة إلى العبد لكونه مكتسباً لذلك نحو ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ وتارة ينسب إلى الله تعالى لكونه فاعلاً لذلك في الحقيقة نحو ﴿ بل الله يزكي من يشاء ﴾ وتارة إلى النبي لكونه واسطة في وصول ذلك إليهم نحو ﴿ تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ ﴿ يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ﴾ وتارة إلى العبادة التي هي آلة في ذلك نحو : ﴿ وحناناً من لدنا وزكاة ﴾ ﴿ لأهب لك غلاماً زكيا ﴾ . أي مزكي بالخلقة وذلك عن طريق ما ذكرنا من الاجتباء وهو أن يجعل بعض عباده عالماً وطاهر الخلق لا بالتعلم والممارسة بل بتوفيق إلهي كما يكون جل الأنبياء والرسل . ويجوز أن يكون تسميته بالمزكى لما يكون عليه في الاستقبال لا في الحال والمعنى سيزكى ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ أي يفعلون ما يفعلون من العبادة ليزكيهم الله أو ليزكوا أنفسهم ، والمعنيان واحد » [1] .

إن التزكية التي يهتم بها الإسلام في سائر نظمه هي التي تثمر سعادة الفرد والجماعة ، فليس أقتل للفرد ولا أظلم للجماعة من أن يعيشا لمجرد الطعام واللباس والمنام فينزلا إلى درك الحيوانات بل يصبحا أضل منها لأنهما لم يستفيدا من ملكاتهما الحسية والفكرية والروحية ؛ ولهذا نعى الله على الكافرين حياتهم حينما قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوى

---

(١) المفردات فى غريب القرآن تأليف أبى القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى : ٢١٣ - ٢١٤ .

لَهُمْ ﴾ (١) . وكان الخلود إلى الأرض واتباع الهوى هما سبيل ذلك ، قال تعالى :

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

دور الأخلاق والقيم الفاضلة من الحياة :

إن القيم الفاضلة لا تنبع إلا من النفس ، فوسائل الحياة المختلفة من مال ومركز وظيفي وعمل لا تمنح الإنسان هذه القيم ، ولكن الإنسان هو الذي يضفي عليها الطابع الخلقي والأسلوب الكريم إذا ما كان يملك الخلق الكريم والنفسية الفاضلة ، وإلا تحولت هذه الوسائل إلى مباءة سيئة تزكم الأنوف وتقزز النفوس إذا ما تولاها صاحب الخلق السيء والطبع اللئيم ، فكم من مال جلب لصاحبه اللعنة وسوء العاقبة والذكرى وصدق الله :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٣) .

ومن هنا فإن الإسلام إذا كان قد بدأ الرحلة مع الإنسان بالعقيدة الصالحة فوجهه إلى ربه وجعل غايته مرضاته وسبيله إلى ذلك عبادته ، فإنه جعل الإطار الذي يتحرك فيه المسلم وجماعته هو إقامة الأخلاق الفاضلة . وصدق رسول الله : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

---

(١) محمد : ١٢ .
(٢) الأعراف : ١٧٥ - ١٧٦ .
(٣) آل عمران : ١٨٠ .

إن عملية البناء الخلقي للفرد والجماعة في الإسلام عملية تستغرق جهدا كبيرا وعملا متواصلا ، إنها عملية صقل للنفس وتدريب للجوارح ، عملية تحتاج للممارسة اليومية واليقظة الدائمة وتضافر المجتمع حتى تكتسب النفس الأخلاق الفاضلة . والأخلاق الفاضلة تعمل في الحياة والمجتمع كما تعمل القوانين المادية سواء بسواء كل منهما يعمل وفق السنن والنواميس التي بثها الله تعالى في خلقه . هذه تعمل في الكائنات غير العاقلة وتلك تظهر نتائجها في الإنسان وحياته ومعاملاته ومجتمعه ، خذ لذلك مثلا الصدق فإنه يوجد البر في النفس والطمأنينة في القلب والاستقامة في الخلق ويمنع النفاق والازدواجية ويثمر في نفس الوقت الثقة في المجتمع ، وبعكس ذلك تماماً يفعل الكذب فإنه يهدي إلى الفجور فيورث الاضطراب والخلل في الشخصية ويضعف الثقة في صاحبه ويؤدي إلى زعزعة الثقة في المجتمع ، وعلى ذلك فقس جميع الأخلاق .

إن الحضارات الكبرى لم تقم إلا على رصيد هائل من الأخلاق يتمسك بها أهلها يرعونها ويؤدون حقوقها ، وحالما يتحرك الخط البياني للمجتمع في طريق التحلل من الأخلاق يبدأ هذا المجتمع في طريقه إلى الانهيار ثم الهاوية ذلك قانون الله عز وجل :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (١) . ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ ﴾ (٢) .

إن ميزة الأعمال والأخلاق في الإسلام أنها موصولة الأسباب بالله دائمة العطاء ، ذلك أن المسلم يعملها ابتغاء وجه الله ومرضاته ، فهي وإن كانت تحقق

---

(١) الإسراء : ١٦ .
(٢) الأنعام : ٦ .

نفع صاحبها والمجتمع إلا أنها تتميز عن الأخلاق النفعية المادية بأنها ليست آنية يقصد بها تبادل النفع فقط فلا تنحصر في هذه الدائرة ، وإنما تتجاوز ذلك إلى عملها وأدائها لوجه الله دون النظر لما يأتي من ورائها من ربح قد يحدث أو لا يحدث فلا تتوقف صورة العمل وأداؤه على الجانب الذاتي الأناني ، وإنما يندفع إليه المسلم بنية أدائه على وجه صحيح قاصداً به وجه ربه ، وبذلك تتخلص النفس من أنانيتها فيكون الإخلاص تاماً والعمل خالدا ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ ﴾ (١) ولهذا تكفل الله عز وجل ببركة الأعمال وزيادة ثمرتها والمجازاة عليها في الدنيا والآخرة جزاء ذلك الأداء الصالح قال تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَو أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

وتأتي أنظمة الإسلام كلها لتعمل عملين كبيرين تنمية عقيدة الإيمان بالله وتأكيدها ببذل الجهد المستمر في تزكية النفس وتطهيرها لتصل بالفرد والمجتمع إلى المستوى الخلقي الكريم . وبإقامة المجتمع الإسلامي الذي تترعرع فيه هذه العقيدة وتنمو فيه هذه الأخلاق ، ولذلك نجد أن المسلم مطالب بعملين في وقت واحد لأن كليهما مكمل للآخر ومتمم له . عليه أن يبذل مع نفسه فيصلحها ويكملها ، ويبذل مع إخوانه المؤمنين لإقامة المجتمع الإسلامي بإيجاد مؤسساته وأنظمته ، وفي القرآن التوجيهان :

﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ (٣) ، ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) النحل : ٩٦

(٢) النحل : ٩٧ .

(٣) العنكبوت : ٦

(٤) العنكبوت ٦٩

إن أنظمة الإسلام تبدأ من النظام العبادي الذي شرع الله فيه التكاليف العبادية المختلفة من صلاة وزكاة وصيام وحج .. إلى النظام الاجتماعي الذي يشتمل على نظام الأسرة والوصايا والنفقة والمواريث والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتكافل والتعاون على البر والتقوى . ونظام المعاملات وفقه الحلال والحرام ونظام الحدود والعقوبات ... إلى نظام الحرب والسلم والجهاد في سبيل الله ... إلى النظام القضائي والتشريعي الذي يقيم القسط ويواجه حاجة المجتمع بما يحتاج من تشريعات وقوانين ... إلى النظام السياسي وما فيه من طريقة اختيار الحاكم وبيان الحقوق والواجبات لكل من الحاكم والمحكوم ، إن هذه الأنظمة كلها نسيج واحد مترابط يخدم كل منها الآخر ولا ينفك عنه وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٢) .

كيف نبني أنفسنا ومجتمعنا ؟

لقد وضح من الصفحات الماضية طريقة الإسلام في بناء الفرد والمجتمع بشكل موجز ومجمل ونريد في ختام هذا الفصل أن نركز القول في الخطوات التي يجب أن نسلكها لنشرع في البناء ، ونأخذ الأهبة للجهاد ، إن أخطر ما تواجهه أي أمة في مرحلة البناء والنهوض تعدد المناهج واختلاف الصيحات وتعدد الأفكار والنزعات

ومن هنا فإن الخطوة الأولى تكمن في وضوح التصور وفي النظرة إلى الحياة والكون ، ولا يكون ذلك إلا بفهم عقيدة الإيمان بالله وامتلاء القلب والعقل بها ورؤية الأمور من خلالها . جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال له : قل لي في

---

(٣) البقرة : ٢٠٨ .

الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك يا رسول الله ، قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » (١)

والخطوة الثانية : استقامة النفس على نهج الإيمان بممارسة شرائع الإسلام والتزود من رحيقه ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ (٢) ﴿ إنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ ﴾ (٣) ولا تتأتى هذه الاستقامة إلا بأن يفقه المسلم دينه ويرعى أخلاقه وتصرفاته وأعماله كما يرعى عباداته وابتهالاته وذكره ؛ فيصبح بذلك القدوة الصالحة والأسوة الحسنة فيكون هاديا بعمله وخلقه مؤثرا بلسان حاله ومقاله .

والخطوة الثالثة : صبغ الحياة بالإسلام وقيام المؤسسات وفق شريعته وعلى هديه وهذه ضريبة الإيمان يطالب بها المؤمنون فالإسلام لا يقبل العزلة والانزواء ولا يرضى أن تقود مجتمعه أفكار أو فلسفات أخرى ، وهذا يقتضي تعاون المؤمنين وتكاتف المخلصين في أن يعوا واقعهم ، ويفهموا مجتمعهم والتيارات التي تتجاذبه ويعدوا الكفاءات التي تستطيع بناء المجتمع في جميع نواحيه على أساس من قيم الإسلام وهديه ، ولا يتأتى ذلك إلا بأن تكون المعايير التي نزن بها الأمور ونعدل بها الأشياء نابعة من فقه رشيد بالإسلام وإدراك لمراميه وأهدافه ، ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى معرفة مصادر الإسلام الأولية وكيف نفهمها ونرد الأمور إليها إذا اختلفنا أو انبهم علينا أمر ؛ ولذا أتبعنا هذا الفصل بفصل مصادر الإسلام ومن خلال هذه المصادر نعرف نظم الإسلام المختلفة في الأسرة والمجتمع والاقتصاد والحكم والسياسة والله المستعان .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) النساء : ١٢٥ .
(٣) فصلت : ٣٠ .

الفصـل الثالـث

مَصَادرُ الإسْـلَام

القرآن الكريم والسنة النبوية مصدرا الإسلام الأصليان الخالدان ، ويتفرع عنهما مصادر أخرى ، تستمد منهما ، وتنبع من دوحتهما وهي : الإجماع والقياس والمصلحة المرسلة والاستحسان وغيرها مما يندرج تحت كلمة الرأي أو الاجتهاد ، وسنعرج عليها بعد أن نوجز القول في المصدرين الأصليين .

القـرآن الكريـم :

قال الراغب : « والقرآن في الأصل مصدر نحو الغفران والشكران » قال تعالى :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (١) .

قال ابن عباس : إذا جمعناه واثبتاه في صدرك فاعمل به . وقد خص بالكتاب المنزل على محمد ﷺ ، فصار كالعلم كما أن التوراة لما أنزل على موسى ، والإنجيل لما أنزل على عيسى صلى الله عليهما وسلم .

قال بعض العلماء : تسمية هذا الكتاب قرآنا من بين كتب الله لكونه جامعا لثمرة كتبه ، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم كما أشار إليه تعالى بقوله : (وتفصيل كل شيء – تبيانا لكل شيء – قرآناً عربيا غير ذي عوج – وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس – في هذا القرآن – وقرآن الفجر) أي قراءته . والقراءة ضم الحروف والكلمات بعضها على بعض في الترتيل (٢) .

---

(١) القيامة : ١٧ – ١٩ .

(٢) المفردات : ٤٠٢ .

تعريفـــه :

(والقرآن يتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص بحيث يكون تعريفه حدا حقيقيا . والحد الحقيقي له : هو استحضاره معهودا في الذهن أو مشاهدا بالحس كأن تشير إليه مكتوبا في المصحف أو مقروء باللسان فتقول : هو ما بين الدفتين أو تقول : هو (بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين . إلى قوله : من الجنة والناس) .

ويذكر العلماء تعريفا له يميزه عن غيره فيقولون : كلام الله المنزل على محمد ﷺ المتعبد بتلاوته) [1] .

خواصـــه :

١ - ألفاظه ومعانيه من عند الله :

فقد تلقاها جبريل الأمين من الله عز وجل وبلغها للنبي ﷺ :

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [2] .

وقد كان الرسول الكريم من شدة حرصه ، وبالغ اهتمامه يخشى على نفسه أن ينسى كلمة أو حرفا منه ، فأنزل الله عليه :

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [3] ، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [4] .

---

(١) مباحث علوم القرآن للشيخ مناع القطان منشورات العصر الحديث : ١٧ - ١٨ .

(٢) النمل : ٦ .

(٣) القيامة : ١٦ - ١٩ .

(٤) الحجر : ٩ .

ويتفرع على هذا أنه مهما يبذل المفسر أو المترجم للقرآن من الجهد والصياغة لا يعتبر عملهما قرآناً ، مرادفاً للقرآن ، لأن القرآن ألفاظ عربية خاصة أنزلت من عند الله .

٢ - قربة يتعبد بتلاوته :

فقد اختص القرآن عن الحديث القدسي [١] والنبوي [٢] بأنه الذي تتعين القراءة به في الصلاة فلا يجوز القراءة بأي ترجمة مهما كانت ، بل يتعين النص العربي قال تعالى :

﴿ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ [٣] .

وأنه أفضل الذكر على الإطلاق فهو شفاء لما في الصدور وراحة للقلوب وأنس للنفوس . قال الله عنه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِن رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٤] .

كما يثيب الله قارئه ، قال ﷺ : « من قرأ حرفا من كتاب الله ، فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول (ألم) حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

---

(١) والحديث القدسى معناه من عند الله ولفظه من عند الرسول ﷺ ، فهو وحى بالمعنى دون اللفظ كقول الرسول ﷺ فيما يرويه عن ربه « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته عليكم محرما فلا تظالموا » .

(٢) والحديث النبوى هو ما أضيف إلى النبى صلى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير .

(٣) المزمل : ٢٠ .

(٤) يونس : ٥٧ .

٣ - منقول إلينا بالتواتر كتابة ومشافهة جيلا عن جيل :

محفوظا من أي تغيير أو تبديل .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) .

وقد سماه الله بأسماء كثيرة منها : الفرقان ، والذكر ، والتنزيل ، وغلب من أسمائه القرآن والكتاب . وفي ذلك يقول الدكتور دراز عليه رحمة الله : « روعي في تسميته قرآنا كونه متلوا بالألسن ، كما روعي في تسميته كتابا مدونا بالأقلام ، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه .

وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد ، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعا ، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب ، المنقول إلينا جيلا بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة ، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر .

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها بقي القرآن محفوظا في حرز حريز ، إنجازا لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٢) .

ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند » (٢) .

---

(١) الحجر : ٩ .

(٢) النبأ العظيم - محمد عبد الله دراز - ط - دار القلم الكويت - ١٢ - ١٣ .

٤ – حجة للرسول على أنه رسول من عند الله :

وبرهان هذه الحجية إعجازه الناس أن يأتوا بمثله .

إعجـــازه :

والإعجاز يتحقق بأمور ثلاثة :

(أ) التحدي بطلب المباراة والمنازلة .

(ب) وجود المقتضي الذي يدفع المتحدي إلى المباراة والمنازلة .

(ج) انتفاء المانع الذي يمنع المتحدي من المباراة والمنازلة .

أما التحدي فإن الرسول الكريم ﷺ أعلن للناس أنه رسول الله إليهم ، وأن هذا القرآن الذي يتلوه وحي من عند الله ، فلما أنكروا دعواه قال لهم : إن كنتم في ريب أو شك أنه من عند الله فأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة مثله ، وقد كرر عليهم التحدي وطلب منهم المعارضة واستفزهم وأثارهم .

قال الله تعالى :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

وقال تعالى :

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (٢) .

---

(١) البقرة : ٢٣ – ٢٤ .

(٢) الإسراء : ٨٨ .

أما المقتضي للمباراة والمعارضة ، فقد جاءهم الرسول بدين يبطل دينهم ، ويلغي عقيدتهم ، وسفه عقولهم وسخر من أوثانهم ، فكانوا حريصين أشد الحرص على أن يأتوا بمثله ليبطلوا أنه من عند الله فيدحضوا حجة الرسول وينتصروا لأنفسهم وآلهتهم ويتجنبوا المعارك والمنازعات معه .

أما انتفاء المانع ، فإن القرآن جاء بلسان عربي مبين ، وقد كانوا أهل بيان وفصاحة . قال ابن كثير : هذا وهم أفصح الخلق وأعلمهم بالبلاغة والشعر وقريض الكلام وضروبه ، لكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد من البشر به من الكلام الفصيح البليغ الوجيز المحتوي على العلوم الكثيرة الصحيحة النافعة ، والأخبار الصادقة عن الغيوب الماضية والآتية ، والأحكام العادلة المحكمة ، كما قال تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ﴾ (١) .

واستمر هذا التحدى ثلاثة وعشرين عاما ، فلم يأتوا بمثل هذا القرآن مع شدة حرصهم وتوافر الدواعي لهم وانتفاء الموانع من بين أيديهم ولكنهم لجؤوا إلى المحاربة بدل المعارضة والمؤامرة على الرسول بدل المحاجة والمجادلة ، وهذا دليل عجزهم وتسليمهم على أن هذا القرآن من عند الله .

وإعجاز القرآن لا يقتصر على ناحية معينة منه ، ولكن الإعجاز يأتي من نواح متعددة لفظية ومعنوية وروحية وعلمية وتشريعية ، يقول الشيخ خلاف عليه رحمة الله : « اتفقت كلمة العلماء على أن القرآن لم يعجز الناس عن أن يأتوا بمثله من ناحية واحدة معينة . وإنما أعجزهم من نواح متعددة ، لفظية ومعنوية وروحية ، تساندت وتجمعت فأعجزت الناس أن يعارضوه . واتفقت كلمتهم أيضاً على أن العقول لم تصل حتى الآن إلى إدراك نواحي الإعجاز كلها وحصرها في وجوه معدودات . وأنه كلما زاد التدبر في آيات القرآن ، وكشف البحث

---

(١) ابن كثير : ٤٣٣/٧ .

العلمي عن أسرار الكون وسننه وأظهر كر السنين عجائب الكائنات الحية وغير الحية تجلت نواح من نواحي إعجازه وقام البرهان على أنه من عند الله » [1] .

وللإعجاز كتبه وأبحاثه فلتراجع [2]

كيف أنزل :

نزل مفرقا حسب الوقائع والأحداث ليتدرج بالناس وليكون أيسر عليهم أخذه والعمل به ، وأعون لهم على استيعابه وأثبت في نفوسهم وقلوبهم.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ [3]
﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ [4]

توجيهاته :

١ - أرشدنا الله فيه إلى النظر والتدبر في ملكوت السماوات والأرض لنعرف أسرار الله في كونه وإبداعه في خلقه فتمتلىء القلوب إيمانا بعظمته عن نظر واستدلال لا عن تقليد ومجاراه . (كما أنه فتح للناس بهذا الإرشاد باب البحث عن خواص الأجسام في أرضه ، وسمائه وهوائه ومائه ، فينتفعون بها في حياتهم ويستخدمونها في مقاصد التعمير والإنشاء . وعلى الرغم من الإرشادات المتكررة

---

(١) علم أصول الفقه /٢٨ ، للأستاذ عبد الوهاب خلاف ط ٨/ الدار الكويتية للطباعة والنشر والتوزيع .

(٢) من أمهات الكتب القديمة التى عالجت علوم القرآن كتاب الإتقان فى علوم القرآن لجلال الدين السيوطى وكتاب إعجاز القرآن للباقلانى ، ومن الكتب الحديثة « مناهل العرفان لعلوم القرآن » للزرقانى ، وكتاب مباحث فى علوم القرآن للشيخ مناع القطان - ومن الكتب التى تحدثت عن إعجاز القرآن النبأ العظيم للمرحوم د . محمد عبد الله دراز .

(٣) الفرقان . ٣٢ - ٣٣ .

(٤) الإسراء : ١٠٦ .

في هذه الناحية فقد أهمل المسلمون هذا الجانب (في عصورهم المتأخرة) ولم ينتفعوا بإيحاء القرآن فيه ، بينما انتفع به غيرهم ممن خاضوا غمار هذا الكون وعرفوا أسراره ، واستخدموها في نواحي هذه الحياة بعد أن كانوا في عماية وضلالة) [1] .

٢ - قص علينا فيه قصص الأولين أفراداً وأمماً ، ليثير فينا الاعتبار والاتعاظ ، ويرشدنا إلى سنن الله في معاملة خلقه الصالحين والمفسدين ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [2] .

٣ - رغبنا في نعيم الآخرة ورهبنا عذابها .

﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ . وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ . وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ . خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ . ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ . إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ . وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَا هُنَا حَمِيمٌ . وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ . لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ [3] .

أنـواع أحكامـه :

وضع أصولا وكلفنا اتباعها في تنظيم علاقاتنا بالله سبحانه ، وعلاقاتنا بعضنا ببعض وهي المسماة (فقه القرآن) فجاء في العبادات على اختلاف أنواعها من صلاة وصوم وزكاة وصدقة وحج وجهاد ويمين ونذر ما يقرب من مائة

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة : ٤٨٨ - ٤٨٩ .

(٢) يوسف : ١١١ .

(٣) الحاقة : ٢٠ - ٣٧ .

وأربعين آية . وجاء في أحكام الزواج والطلاق وما يتبعهما من مهر ونفقة وحضانة ورضاع ونسب وعدة ، ووصية وإرث ما يقرب من نحو سبعين آية . وجاء في أحكام المعاملات المالية كالبيع والإجارة ، والرهن والمداينة والتجارة ما يقرب من نحو سبعين . وجاء في أحكام الجنايات كالقتل والسرقة ومحاربة الله في أرضه والزنى والقذف ما يقرب من ثلاثين آية . كما جاء نحو هذا في أحكام الحرب والسلم ، وما يجب على الحكام من الشورى والعدل والمساواة وسائر ما يجب عليهم للناس ، أو يجب على الناس لهم ، كما جاءت آيات يصح أن تكون أساسا لتنظيم الحياة الاجتماعية وعلاقة الأغنياء بالفقراء والقيام بحقوق (العمال) مما يعرفه الناس اليوم باسم (العدل الاجتماعي) [1] .

واجبنا نحــو القــرآن :

لقد أنعم الله علينا بالقرآن فهدى به قلوبنا ، وأنار به بصائرنا ، وهذب به أخلاقنا ، ونظم به حياتنا ، وجعلنا به أمة وسطا ندعو الناس به إلى الخير ونهديهم إلى الطريق المستقيم . فكان به وحدة الفكر والاتجاه والعقيدة والسلوك ، وصيانة اللغة واللسان ، وعصمة التشريع والتقنين ، فإذا نظرت إلى الأمم من حولنا وجدتهم قد تفرقوا شيعاً وتباعدت لهجاتهم عن لغتهم الأولى ، وما عليك إلا أن تنظر إلى اللغة اللاتينية وهي أصل لغات الطليان والأسبان والفرنسيين والإنجليز والألمان ، فأين هم الآن من لغتهم الأولى ؟ ثم انظر إلى التشريعات كيف تبدلت وتغيرت وتباعدت ، ثم انظر إلى تردي السلوك والأخلاق وانحلالهم لتقدر نعمة الله علينا بالقرآن حق قدرها فنشكرها بالعلم والعمل به .

إن سر عظمة هذه الأمة وقوتها ومغالبتها للصعاب والمحن جاءت من هذا الكتاب العظيم ، وإن الكيد السري والعلني موجه بطريق مباشر وغير مباشر إلى

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة : ٤٩٠ .

القرآن الكريم والسنة النبوية لأنهما إذا هدما هدمت مصادر الإشعاع والخير في هذه الأمة .

ولقد كانت عناية سلف هذه الأمة بالقرآن عظيمة أحلوا حلاله وحرموا حرامه ، ووقفوا عند أمره ونهيه ، وتأدبوا بآدابه وتخلقوا بأخلاقه فما كانوا يتجاوزون السورة حتى يعملوا بها فيحفظوا العلم والعمل معاً . وقد جمعوه وحفظوه ، وأسسوا العلوم المختلفة لخدمته ، فكان تقعيدهم لعلوم القرآن نفسه واهتمامهم بها ثم العناية بتفسيره بتفاسير متعددة يعنى كل واحد منها بجانب منه : التفسير بالمأثور وتفسير آيات الأحكام ، والتفسير البياني والتفسير الإشاري والتفسير اللغوي .. إلخ . ثم كان وضعهم العلوم العربية المختلفة من نحو وصرف وبلاغة وأدب وذلك لصيانة اللسان العربي من العجمة واللحن ولتظل الأمة قادرة على فهمه وقراءته .

ومن هنا فعلينا أن نسلك في فهم القرآن مسلك سلفنا فنعطي الثقافة القرآنية حقها من للعناية ، وأن نأخذ أنفسنا بالتدرج ودوام الصلة بكتاب الله حتى نحوز هدايته ونوره وذلك يتطلب ما يأتي :

١ - الإعداد النفسي بأن نهيء أنفسنا لقراءته لحديث : « اقرؤوا القرآن ما أئتلفت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفت فيه فقوموا عنه » (١) .

وحديث : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ، طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كالتمرة ، طعمها طيب ، ولا ريح لها ، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها » (٢)

---

(١) راوه مسلم .

(٢) ابن كثير : ٧ /٤٧٦

٢ - إحسان التلاوة بتعلم التجويد والترتيل : قال تعالى في كتابه : ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ (١)

قال ﷺ : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » (٢) .

٣ - إحسان التدبر والفهم : قال تعالى :

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (٣)

٤ - أن نتعلم الطريق الصحيح لفهمه : فنفهم أولاً معاني الألفاظ وسبيل ذلك معرفة اللغة العربية ثم نعرف أسباب النزول وبماذا فسر النبي الآية لأنه ﷺ أعلم الناس بمراد ربه ، وبماذا فسر الصحابة لأنهم من أدرى الناس بتفسيره ﷺ وليكن دليلنا ورائدنا لذلك كتب التفسير الموثوقة كتفسير الطبري ، وابن كثير والقرطبي ولنحذر أهواء من يقولون في كتاب الله برأيهم ، أو من يحاولون إخضاعه لنظرية علمية ، فقد جاء القرآن كتاب هداية شامل يصدقه العلم والعقل فيؤخذ من العلم لبيانه ، ولكن لا يفسر على هدى العلم وحده فالعلم منه ما هو ظني يتغير بتغير العصور ومنه ما هو يقيني .. والظني هو الكثرة الكاثرة واليقيني هو القليل . فإذا أخضع القرآن لهذه النظريات الظنية حدث التغيير والتبديل وحمل القرآن ما لم يحتمل .

---

(١) المزمل : ٤ .

(٢) ابن كثير : ٤٩٨/٧ .

(٣) ص : ٢٩ .

السنــة النبويــة :

تعريفهــا :

هي ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير . فالقول كقوله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري : « إنما الأعمال بالنيات » والفعل ، كوضوئه ﷺ مرة مرة ومرتين مرتين ومشاهدة الصحابة لذلك .

والتقرير كإقراره ﷺ أفعال الصحابة بسكوت منه دلالة على الرضى أو إظهار الاستحسان وذلك كإقراره اجتهاد الصحابة في أمر صلاة العصر في بني قريظة حين قال لهم : « لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة » . فقد فهم بعضهم أن المقصود الإسراع في السير فصلاها في وقتها ، وفهم البعض الآخر النهي على حقيقته ، فأخرها حتى صلاها بعد المغرب ، وبلغ النبي ما فعل الفريقان ، فأقرهما ولم ينكر عليهما .

حجيتهـــا :

لقد أمرنا الله عز وجل بطاعة الرسول وتنفيذ أمره وجعل طاعته من طاعة الله ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾[1] ، وقال : ﴿ قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [2] ، وقال : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُواْ واتَّقُواْ اللهَ إنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [3] .

ولهذا فكل ما صدر عنه ﷺ مقصوداً به التشريع والاقتداء يكون حجة على المسلمين ومصدراً تشريعيا ، يستنبط منه المجتهدون الأحكام الشرعية وقانونا

---

(١) النساء : ٨٠ .
(٢) آل عمران : ٣١ .
(٣) الحشر : ٧ .

واجب الاتباع ، فقد أخبر الله في كتابه الكريم عن مهمة الرسول بالنسبة للقرآن أنه مبين له وموضح لمراميه وآياته ، حيث يقول الله في كتابه :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

كما بين أن مهمته إيضاح الحق حين يختلف فيه الناس :

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

وأوجب النزول على حكمه في كل خلاف :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٣) .

وأخبر أنه أوتي القرآن والحكمة ليعلم الناس أحكام دينهم فقال :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٤) .

وقد ذهب جمهور العلماء والمحققين إلى أن الحكمة شيء آخر غير القرآن ، وهي ما أطلعه الله عليه من أسرار دينه وأحكام شريعته ، ويعبر العلماء عنها بالسنة ، قال الشافعي رحمه الله : « فذكر الله الكتاب وهو القرآن ، وذكر الحكمة فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله ، وهذا يشبه ما قال والله أعلم ، لأن القرآن ذكر ، واتبعته الحكمة ، وذكر الله مَنَّهُ على

---

(١) النحل : ٤٤ .

(٢) النحل : ٦٤ .

(٣) النساء : ٦٥ .

(٤) آل عمران : ١٦٤ .

خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة ، فلم يجز – والله أعلم – أن يقال : الحكمة هنا إلا سنة رسول الله ، وذلك أنها مقرونة مع الكتاب ، وأن الله افترض طاعة رسوله ، وحتم على الناس اتباع أمره ، فلا يجوز أن يقال لقول : فرض إلا لكتاب الله وسنة رسوله لما وصفنا من أن الله جعل الإيمان برسوله مقرونا بالإيمان به » (١) .

وواضح مما ذكره الشافعي هنا رحمه الله أنه يجزم بأن الحكمة هي السنة ، لأن الله عطفها على الكتاب ، وذلك يقتضي المغايرة ، ولا يصح أن تكون شيئا غير السنة ، لأنها في معرض المنة ، من الله علينا بتعليمنا إياها ، ولا يمنّ إلا بما هو حق وصواب ، فتكون الحكمة واجبة الاتباع كالقرآن ، ولم يوجب علينا إلا اتباع القرآن والرسول ، فتعين أن تكون الحكمة هي ما صدر عن الرسول من أحكام وأقوال في معرض التشريع .

وإذا كان ذلك كذلك ، كان رسول الله ﷺ قد أوتي القرآن وشيئا آخر معه يجب اتباعه فيه ، وقد جاء ذلك مصرحا به في قوله تعالى في وصف الرسول ﷺ :

﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٢) .

وما دام اللفظ عاماً فهو شامل لما يحله ويحرمه مما مصدره القرآن ، أو مصدره وحي يوحيه الله إليه ، وقد روى أبو داود عن المقداد بن معديكرب عن رسول الله ﷺ قوله : « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه » (٣) .

---

(١) الرسالة ص ٤٥ تحقيق محمد سيد كيلانى .

(٢) الأعراف : ١٥٧ .

(٣) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى : تأليف د . مصطفى السباعي المكتب الإسلامى .

منزلتها من القــرآن :

أما نسبة السنة إلى القرآن فهي في المرتبة التالية له . فالمجتهد يطلب حكم الواقعة أولاً في القرآن لأنه أصل التشريع ومصدره الأول ثم يتبعه بالسنة لأن الجو التشريعي والعلم بالظروف التي نزل فيها القرآن لا يعرف إلا بالسنة ، فليس من السهل الفصل بينهما ، ولقد أوتي ﷺ القرآن والسنة كما أخبر ، ومن هنا تكمن ضرورة معرفة السنة لمعرفة الإسلام والعلم به ولا يمكن أن يتأتى فهم القرآن إلا بالتزود من رحيق السنة وهديها ، كما لا يمكن العمل بتكاليف الإسلام وفهم روحه إلا بتطبيقات السنة والتأدب بآدابها ، ولذا فالسنة تأتي على الوجوه الآتية :

١ - إما أن تكون مقررة أو مؤكدة لما جاء في القرآن كالنهي عن الشرك بالله والأمر بعبادته وإقام الصلاة والوصايا بمكارم الأخلاق كبرِّ الوالدين ، وغير ذلك مما هو كثير في السنة .

٢ - وإما أن تكون مفصلة ومفسرة لما جاء في القرآن مجملاً ، فقد جاء الأمر بالصلاة والعبادات الأخرى مجملاً ، فبينت لنا السنة أوقاتها وعدد ركعاتها . « صلوا كما رأيتموني أصلي » وكذلك في الحج « خذوا عني مناسككم » وفي المعاملات بينت لنا البيوع الصحيحة من البيوع الفاسدة وفصلت في العقوبات .. إلخ .

٣ - وإما أن تكون السنة مثبتة أو منشئة حكماً سكت عنه القرآن ، وذلك كتحريم الرسول الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ، وتحريم الأكل في آنية الذهب والفضة ، وتحريم لبس الحرير والتختم بالذهب على الرجال وتحريم أكل لحوم الحمر الأهلية ... إلخ .

قال الإمام الشافعي في رسالته الأصولية :

« ولم أعلم من أهل العلم مخالفاً في أن سنن النبي ﷺ من ثلاثة وجوه ، فاجتمعوا منها على وجهين : أحدهما ما أنزل الله عز وجل فيه نص كتاب فبين رسول الله مثل ما نص الكتاب ، والآخر مما أنزل الله عز وجل فيه جملة كتاب فبين عن الله ما أراد ، والوجه الثالث ما سن رسول الله فيما ليس فيه نص كتاب » .

الصحابة والسنـة :

لقد تلقى الصحابة رضوان الله عليهم من الرسول الكريم القرآن الكريم ، وتلقوا عنه شرح القرآن وتفصيله وتبيينه ألا وهو السنة .

وكانوا من أحرص الناس على الأخذ عنه ، والتعلم على يديه يدفعهم إلى ذلك عقيدة خالطت شغاف قلوبهم وحب للرسول ﷺ ملك عليهم مشاعرهم فكانوا بحق كما وصفهم ابن القيم عليه رحمة الله : « أولئك أصحابه ﷺ ألين الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، وأحسنها بياناً ، وأصدقها إيماناً ، وأعمها نصيحة ، وأقربها إلى الله وسيلة ، وكانوا بين مكثر منها ومقل ومتوسط » [1] .

وكانوا من العدالة والصدق بحيث استحقوا أن يكونوا هم خير القرون ، ولهذا تحروا الأحاديث واهتموا بها علاوة على قوة حافظتهم وجودة قريحتهم وما ورثوه من علوم الأنساب وقريض الشعر وروايته ، فكان كل أمر ذي بال عندهم منضبطاً بالسند وهو نسبة الشيء إلى قائله ، فما بالك بحديث نبيهم ﷺ .

ولما حدثت الفتن وأراد أصحاب الأهواء أن يستغلوا السنة في تأييد شبهاتهم وأهوائهم بوضع أحاديث لتأييد عصبيتهم وأحزابهم كانت السنة الصحيحة معلومة

---

(١) أعلام الموقعين / ابن قيم الجوزية / ج ١٢/١ . ط ١/ مطبعة السعادة بمصر .

واضحة يحميها القرآن وتحفظها صدور الرجال ويقوم عليها الكتبة الأمناء في كتبهم ومسانيدهم ، ومنذ عصر الصحابة ، وللسنة حفاظها وعلماؤها .

وقد كان الاهتمام بالكتابة موجودا منذ بداية الوحي دل على ذلك : كتاب الوحي لرسول الله – اشتراط الرسول على أسرى بدر المتعلمين منهم أن يعلموا أبناء المسلمين الكتابة مقابل الفدية – الكتب التي بعثها رسول الله للملوك والأمراء – الكتب التي كتبها رسول الله لبعض أصحابه ككتابه في تبيين أنصبة الزكاة ، والديات – الصحائف التي دون فيها بعض الصحابة أحاديث الرسول كالصادقة التي كتبها عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

دور التابعين وتابعيهم في تدوين السنة :

« وتكاد تجمع الروايات أن أول من فكر بالجمع والتدوين من التابعين عمر بن عبد العزيز ، إذ أرسل إلى أبي بكر بن حزم عامله وقاضيه على المدينة : « انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاكتبه ، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء » . وأراد أن يكتب له ما عند عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية (٩٨ هـ) والقاسم بن محمد بن أبي بكر (١٢٠ هـ) والذي يظهر أنه لم يخص ابن حزم بهذا العمل الجليل ، بل أرسل إلى ولاة الأمصار كلها وكبار علمائها يطلب منهم مثل هذا ، فقد أخرج أبو نعيم في تاريخ أصبهان أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أهل الآفاق : انظروا إلى حديث رسول الله فاجمعوه [١] . وبذلك نفذ عمر رغبة جده عمر بن الخطاب التي جاشت في نفسه مدة ثم عدل عنها خوفاً من أن تلتبس بالقرآن أو يصرف الناس إليها ، والذي يظهر أن ابن حزم كتب لعمر شيئاً من السنة فقد أنفذ إليه ما عند عمرة والقاسم ، ولكنه لم يدون كل ما في المدينة من سنة وأثر ، وإنما فعل هذا الإمام محمد بن مسلم بن شهاب

---

(١) وفى رواية للخطيب فى (تقييد العلم) أنه كتب بذلك إلى أهل المدينة .

الزهري (١٢٤ هـ) الذي كان علماً خفاقاً من أعلام السنة في عصره والذي كان عمر بن عبد العزيز يأمر جلساءه أن يذهبوا إليه لأنه لم يبق على وجه الأرض أحد أعلم بالسنة منه .

ثم شاع التدوين في الجيل الذي يلي جيل الزهري . وكان أول من جمعه بمكة ابن جريج (١٥٠) وابن إسحاق (١٥١) وبالمدينة سعيد بن أبي عروبة (١٥٦) والربيع بن صبيح (١٦٠) والإمام مالك (١٧٩) وبالبصرة حماد ابن سلمة (١٧٦) وبالكوفة سفيان الثوري (١٦١) وبالشام أبو عمرو الأوزاعي (١٥٦) وبواسط هشيم (١٨٨) وبخراسان عبد الله بن المبارك (١٨١) وباليمن معمر (١٥٣) وبالري جرير بن عبد الحميد (١٨٨) وكذلك فعل سفيان بن عيينة (١٩٨) والليث بن سعد (١٧٥) وشعبة ابن الحجاج (١٦٠) . وهؤلاء جميعاً كانوا في عصر واحد ولا يدرى أيهم سبق إلى ذلك » [1] .

« ثم جاء القرن الثالث فكان أزهى عصور السنة وأسعدها بأئمة الحديث وتآليفهم العظيمة الخالدة ، فقد ابتدأ التأليف في هذا القرن على طريقة المسانيد ، وهي جمع ما يروى عن الصحابي في باب واحد رغم تعدد الموضوع ، وأول من فعل ذلك عبد الله بن موسى العبسي الكوفي ، ومسدد البصري ، وأسد بن موسى ونعيم بن حماد الخزاعي ، ثم اقتفى أثرهم الحفاظ فصنف الإمام أحمد مسنده المشهور وكذلك فعل إسحاق بن راهويه ، وعثمان بن أبي شيبة وغيره ، وكانت طريقة هؤلاء في التأليف أن يفردوا حديث النبي ﷺ بالتأليف دون أقوال الصحابة وفتاوى التابعين ، ولكنهم كانوا يمزجون فيها الصحيح بغيره ، وفي ذلك من العناء ما فيه على طالب الحديث ، فإنه لا يستطيع أن يتعرف على الصحيح منها

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى : ١٢٢ - ١٢٣ .

إلا أن يكون من أئمة هذا الشأن ، فإذا لم يكن له وقوف على ذلك اضطر إلى أن يسأل أئمة الحديث فإن لم يتيسر له بقي الحديث مجهول الحال عنده .

وهذا هو ما حدا بإمام المحدثين ودرة السنة في عصر محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦) أن ينحو في التأليف منحى جديداً بأن يقتصر على الحديث الصحيح فقط دون ما عداه ، فألف كتابه الجامع الصحيح المشهور ، وتبعه في طريقته معاصره وتلميذه الإمام مسلم بن الحجاج القشيري (٢٦١) فألف صحيحه المشهور ، وكان لهما فضل تمهيد الطريق أمام طالب الحديث ليصل إلى الصحيح من غير بحث وسؤال ، وتبعهما بعد ذلك كثيرون ، فألفت بعدهما كتب كثيرة من أهمها : سنن أبي داود (٢٧٥) والنسائي (٣٠٣) وجامع الترمذي (٢٧٩) وسنن ابن ماجه (٢٧٣) وقد جمع هؤلاء الأئمة في مصنفاتهم كل مصنفات الأئمة السابقين ، إذ كانوا يروونها عنهم كما هي عادة المحدثين ، ثم جاء القرن الرابع فلم يزد رجاله على رجال القرن الثالث شيئاً جديداً إلا قليلاً مما استدركوه عليهم ، وكل صنيعهم جمع ما جمعه من سبقهم ، والاعتماد على نقدهم ، والإكثار من طرق الحديث ، ومن أشهر الأئمة في هذا العصر الإمام سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠) ألف معاجمه الثلاثة : ١ - الكبير ورتب فيه الصحابة على الحروف ، وهو مشتمل على خمسمائة وخمسة وعشرين ألف حديث ، ٢ - والأوسط ، ٣ - والأصغر ، رتب فيهما شيوخه على الحروف أيضاً ، ومنهم الدارقطني (٣٥٨) ألف سننه المشهورة وابن حبان البستي (٣٥٤) وابن خزيمة (٣١١) والطحاوي (٣٢١) .

بهذا تم تدوين السنة وجمعها وتمييز صحيحها من غيره ، ولم يكن لعلماء القرون التالية إلا بعض استدراكات على كتب الصحاح ، كمستدرك أبي عبد الله الحاكم النيسابوري الذي استدرك فيه على البخاري ومسلم أحاديث يرى أنها من

الصحاح متفقة مع شرطيهما مع أنهما لم يخرجاها في صحيحيهما ، وقد سلم له العلماء قسماً منها وخالفوه في قسم آخر » [1] .

علــوم السنــة :

وكان من نتاج حركة التدوين ومقاومة الوضع في السنة أن قامت علوم لخدمتها ومن أهمها :

١ - علم الجرح والتعديــل [2] :

وهو الذي يهتم بتزكية الرواة وتضعيفهم على حسب النظر في سلوكهم وقوة ذاكرتهم وضعفها وإلى أي مدى اعتمدوا في نقلهم على كتبهم وكتب غيرهم ، وهل كانت هناك إمكانية اللقاء بين الراوي وشيخه أم لا ... إلى غير ذلك ، ولذلك كانوا يجمعون تاريخ الرواة ، وأحوالهم وظروفهم .

٢ - علم المصطلــح [3] :

وهو الذي يبحث في تقسيم الخبر إلى صحيح وحسن وضعيف ، وتقسيم كل نوع من هذه الثلاثة إلى أنواع وبيان الشروط المطلوبة في الراوي والمروي وما يدخل الأخبار من علل واضطراب وشذوذ .

---

(١) المصدر السابق : ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) ابتدأ الكلام عن الرواة توثيقاً وتوهيناً منذ عصر صغار الصحابة كابن عباس (٦٨) وعبادة ابن الصامت (٣٤) وأنس بن مالك (٩٣) وتابعهم التابعون كابن المسيب إلى ابتداء تصنيف الكتب فى الجرح والتعديل ومن أوائل من ألف فى هذا العلم يحى بن معين (٢٣٣ هـ) وأحمد بن حنبل (٢٤١) ثم توالت التصانيف .

(٣) أول من ألف فى هذا العلم على بن المدينى شيخ البخارى كما تكلم البخارى ومسلم فيه فى بعض أبحاثهم . ولكن أول من صنف فى هذا الفن تصنيفاً علمياً بحيث جمع كل أبوابه وبحوثه فى مصنف واحد هو القاضى أبو محمود الرامهرمزى (٣٦٠) فى كتابه (المحدث الفاصل بين الراوى والسامع) ثم توالت التصانيف بعد ذلك .

وقد تفرع عن هذين العلمين علوم أخرى أوصلها بعضهم إلى اثنين وخمسين علماً [1] .

هذه العلوم التي لم يلحق المحدثين أحد فيها من حيث المنهج والدقة والأمانة والتجرد ... والتي تجعلك على ثقة كاملة بسنة نبيك .. تجعلك تسعى لأن تتعلم شيئاً منها كي تزداد يقيناً تدحض به شبهات المبطلين وتخرصات الكاذبين .

إن علوم السنة جزء لا يتجزأ من الحفاظ على السنة ورعايتها ، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وإن كثيراً من أدعياء العلم من أصحاب الهوى والنحل الضالة يستغلون في المسلمين عدم إدراكهم للسنة وعلومها ويسعون لإطلاق الشبهات للتقليل من شأن السنة وروايتها ، ولا يمكن رد هؤلاء على أعقابهم إلا بمعرفة السنة وعلومها ... ومن فضل الله علينا أن أصبحت السنة ميّسرة مطبوعة منظمة من كتب الأربعين حديثاً إلى كتب الصحاح والمسانيد .

الـــــرأي :

والمصدر الثالث من مصادر الإسلام الرأي والاجتهاد فيما لا نص فيه . فقد جاء الإسلام منهجاً خالداً دائماً ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِن رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [2] ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً ﴾ [3] . وكان آية خلوده ودوامه أن يترك ما يطرأ عليه التغيير والتبديل بتغير الظروف والأحوال لاجتهاد المسلمين ، ولذا « لم يكن القرآن في أكثر أحكامه مفصلاً يذكر الوقائع ويتبع الصور والجزئيات ولكنه يؤثر الإجمال ويكتفي في أغلب الشأن بالإشارة إلى مقاصد التشريع وقواعده الكلية ثم يترك للمجتهدين فرصة الفهم والاستنباط على ضوء هذه القواعد وتلك

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى / ١٣١ .
(٢) الأحزاب : ٤٠ .
(٣) المائدة : ٣ .

المقاصد . وكثيراً ما تساعد السنة في بيان ما أجمله أو تشريع ما تركه . على أنه قد فصل في نواح لابد فيها من التفصيل سموا بها عن مواطن الخلاف والجدل كما في العقائد والعبادات أو لأنه يريدها مستمرة على الوضع الذي حدده لابتنائها على أسباب لا تختلف ولا تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة ، وذلك كما نراه في تشريع المواريث ، ومحرمات النكاح ، وعقوبة بعض الجرائم . وفي غير هذين النوعين آثر الإجمال وترك التفصيل ، ليحكم فيه أهل الرأي في دائرة ما بين لهم من مقاصد أو أشار من قواعد » (1) .

وقد أقر الرسول الكريم أصحابه على الاجتهاد ، ففي حديث معاذ حينما أرسله إلى اليمن قال له : « بم تحكم ؟ قال : أحكم بكتاب الله . قال : فإن لم تجده ؟ قال : بسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجده قال : أجتهد رأيي ولا آلو (أقصر) قال رسول الله : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضي الله ورسوله » .

ولقد انداحت رقعة الإسلام واتسعت بعد وفاة رسول الله ودخلت في دين الله أمم وشعوب مختلفة البيئات والظروف ، وجدت تبعاً لذلك أحداث وأقضية لم تكن على عهد رسول الله فاجتهد فيها الصحابة اعتماداً على ملكتهم اللسانية والتشريعية ، ومعرفتهم بمقاصد الشريعة ، وامتثالاً لما أمروا به من الشورى ، ورد التنازع فيها إلى أولي الأمر وهم الذين أوتوا الفهم والحكمة وطرق الاستنباط ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ (2) ، ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (3) ، ولذا كان أبو بكر وعمر يستشيران رؤساء الصحابة فيما لا يجدان فيه نصاً من كتاب ولا سنة . فقاسوا الأمور غير

---

(1) الإسلام عقيدة وشريعة : ٤٩٧ .
(2) الشورى : ٣٨ .
(3) النساء : ٨٣ .

المنصوصة على الأمور المنصوصة إذا وجدت علة مشتركة وأخذوا بما يحقق مصالح الناس فأعملوا المصلحة المرسلة .

وصار الاجتهاد أمراً عاماً يتناوله كل من له أهلية الاجتهاد في كل عصر ومصر ، وقد أخذ المجتهدون بطرق ووسائل اعتبرت مصادر مع المصدرين الأصليين وهي بإيجاز :

الإجماع – القياس – المصالح المرسلة – الاستحسان – العرف الصالح – الاستصحاب – شرع من قبلنا – مذهب الصحابي .

ومكان بحث هذه الأدلة ومعرفتها هو علم أصول الفقه ، وإنما أوردناها لنبين سعة مجالات الاجتهاد وتعدد طرقه وقد أغنى هذا الفقه الإسلامي ومنحه ذخيرة هائلة من الفكر الفقهي في كل مجالات الحياة . وكما نمت شجرة الفقه نمت شجرة العلوم المختلفة ، فقد أطلق الإسلام عنان الفكر وحرره من قيود الخرافة والتقليد ، ودفع به في مجال الإبداع فرأينا الفكر الإسلامي ينمو في العلوم الطبيعية والرياضية والعسكرية والاجتماعية واللغوية والأدبية كما نما في علوم الشريعة سواء بسواء . ولكن مما يؤسف له أن ركدت ريح الفقه الإسلامي بوجه خاص والفكر الإسلامي بوجه عام نتيجة التقليد والعصبية المذهبية وضعف المجتمع الإسلامي نتيجة وقوعه تحت غول الاستعمار الصليبي الحاقد الذي أناخ عليه بكلكله بغزوه العقائدي والفكري والسياسي والاجتماعي .

ومن هنا فالمسلمون اليوم بحاجة إلى نهضة فكرية تستوعب الإسلام أصولاً وقيماً واتجاهات ، والعصر فكراً ومذاهب وخبرات ، لتخرج لنا برحيق إسلامي يمد الحياة الإسلامية المعاصرة بما يمكنها من رد الغارة الصليبية الحاقدة والصهيونية الماكرة ، وبما يعيد الأمة من جديد إلى مكان القيادة والشهادة على الناس ، وإنه لواجب خطير ونداء ملح وهو معقود بأهل العلم وطلبته فليقدروا واجبهم ويأخذوا العدة لأدائه ، وعلى الله قصد السبيل .

البـــاب الثانـــي

أهـداف الإســـلام

في تكوين الأسْــرَة

الفصل الأول : الأسرة في نظر الإسلام .

الفصل الثاني : الإسلام والدافع الجنسي .

الفصل الثالث : مكانة المرأة في الحضارات الأخرى وفي الإسلام .

الفصل الرابع : المرأة والحجاب .

الفصـــل الأول

الأسْـرَة في نَظَر الإسْـلَام

الترابط الوثيق بين الأسرة والمجتمع :

يهدف الإسلام إلى تكوين مجتمع سعيد ، جذوره العميقة تنبع وتمتد من الإيمان بالله عز وجل ، وسداه ولحمته المحبة والمرحمة ، وقيمه ومعاييره تقوم على القيم الفاضلة والأخلاق الكريمة ، وغايته في حياته وفي أنشطته المعاشية والعمرانية تهدف إلى رضى الله عز وجل ، وقانونه الذي يظله وينظم علاقاته مرتكز ومستمد من شرع الله ومنهجه . يصور ذلك أصدق تصوير قول الله عز وجل في سورة البلد وهو يتكلم عن الإنسان :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ . أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ .... أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ... ﴾ .

إلى أن يقول :

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ . أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ .

وقولـــه :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

---

(١) التوبة : ٧١

ولما كان الفرد هو اللبنة الأولى في بناء المجتمع ، فإن حياطته ورعايته تأخذ من الإسلام المقام الأول ، وينصب هذا الاهتمام على المحيط الذي ينشأ فيه والبيئة التي يتربى فيها ، ولا يقتصر هذا الاهتمام على محيط الأسرة وحدها ، بل يتعدى ذلك إلى المجتمع الكبير الذي تعتبر الأسرة خلية من خلاياه ووحدة من وحداته ، وقد مضى الزمن الذي كان يمكن أن تنغلق فيه الأسرة على نفسها وتنعزل عما يدور حولها ، فقد أصبحت وسائل الإعلام المختلفة تلقاك أينما كنت وأصبح دور المدرسة مؤثرا إلى أبعد مدى ناهيك عن أندية الرياضة وملتقيات الفتوة والشباب والدور الذي تلعبه في التأثير والتوجيه . إن الثقافة التي تربط بين أفراد المجتمع وتوجد الروح الذي يسري بينهم والأخلاق التي تهيمن على سلوكهم تعمل لها مؤسسات المجتمع المختلفة من تعليمية وتشريعية وإعلامية ورياضية وسياسية بطريق مباشر وغير مباشر ، ومن غير شك فإن الدور الذي تلعبه هذه المؤسسات مؤثر في نمو القيم [1] لدى الفرد ، وبقدر الانسجام المتبادل والعطاء الحي بين الأسرة وهذه المؤسسات في بلورة القيم الصحيحة ونشر الأفكار النافعة وغرسها في النفوس تؤدي الأسرة واجبها وتقوم برسالتها خير قيام ، أما إذا اضطربت التوجيهات وحدث خلل في سلم القيم الصحيحة التي تعمل لها مؤسسات المجتمع المختلفة وتبنت كل مؤسسة القيم التي تروق لها ، أولم يحدث اهتمام بتنقية ما يقدم لأفراد المجتمع وتركت الأمور فوضى دون ميزان صحيح ومعيار سليم تكون المحصلة النهائية انفراط عقد المجتمع وانحلال أواصره وهذا شر ما ينتهي إليه مجتمع فعلينا أن ندرك ذلك الترابط الوثيق والتفاعل المتبادل بين المجتمع والأسرة ، وتأثير ذلك في تربية الفرد وتنشئته ومما يبين ذلك ويرشد إليه الآيات التي مرت بنا في أول الفصل .

---

(١) انظر مشكلة الثقافة لمالك بن نبى - ٢٧ - ٤٦ ط . دار العروبة بالقاهرة ١٩٥٩ .

الأسرة في نظر الإســـلام :

قلنا : إن الفرد هو اللبنة الحية في بناء المجتمع الإسلامي ، ولذا كان من البديهي أن يهتم الإسلام اهتماما كبيرا بالمحضن الطبيعي الذي يقوم على رعايته ، وليس هناك أجدر ولا أحق من الأسرة مكانا لهذه الرعاية بل لا يوجد بديل عنها على الإطلاق . فقد أثبتت الإحصاءات العلمية أن تربية الملاجىء تؤثر في النمو اللغوي والاتزان العاطفي للطفل ، كما ثبت أيضاً أن أهم الفترات في حياة الطفل هي السنوات الأولى ، وأن طفل الأسرة المستقرة المتوافقة غير طفل الأم العاملة المرهقة المشتتة . كما أن نتائج التفكك الأسري في الغرب سبب ويسبب الجنوح والتشرد والانحراف ، فالأسرة في نظر الإسلام هي أساس المجتمع وخليته الأولى وهي ذات كيان دائم يراد له السعة والامتداد والوئام ، وإلى ذلك الإشارة بقول الله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَ الأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (١) .

« والرحم اسم لكافة الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره » (٢) .

قال الضحاك : « واتقوا الله الذي تعاقدون وتعاهدون به واتقوا الأرحام أن تقطعوها ولكن بروها وصلوها » ، قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن (٣) .

وقد نمى الإسلام الشعور الفطري الذي ينشأ من خلال الرابطة الأسرية ، واهتم بتقوية هذه الآصرة ، وحافظ عليها بالأمور الآتية :

---

(١) النساء : ١ .

(٢) تفسير القرطبي : ٥ - ٧ .

(٣) ابن كثير : ٢/١٩٦ .

١ – حدد دائرة معينة من الأقارب حرم فيها الزواج سموا بهذه القرابة ، ووقاية لهذه الدائرة القريبة من شواجر الخصومة والبغضاء التي تنشأ من خلال الممارسات اليومية للحياة فقال تعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ ، وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاتِى أَرْضَعْنَكُمْ ، وَأَخَوَاتُكُم مِنَ الرَّضَاعَةِ ، وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُم وَرَبَائِبُكُم اللاتِى فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ اللاتِى دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمْ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (١) .

٢ – وقرر حق الرضاعة والحضانة اهتماماً بالطفولة وحفاظاً على الرابطة الأسرية كي تمتد وتزدهر فلا تنقطع ولا تتوقف .

٣ – وقرر حق النفقات للأصول على الفروع ، والفروع على الأصول على تفصيل مذكور في كتب الفقه .

٤ – وقرر حق التوارث بنظام فريد يحفظ لكل ذي قرابة حقه .

٥ – وقرر حق العتق لمن ملكه قريبه ففي الحديث الذي رواه الترمذي والنسائي : « من ملك ذا رحم محرم فهو حر » ، وبهذا الحديث أفتى عمر وابن مسعود وجمهور أهل العلم (٢) .

٦ – قرر وجوب صلة الأرحام بالبر والتعهد والزيارة . قال تعالى :

﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى ﴾ (٣) .

---

(١) النساء : ٢٣ .

(٢) تفسير القرطبي : ٥ – ٦ .

(٣) النساء : ٣٦ .

وجعل قطيعتها من خصال الكافرين ، ومن الفساد الذي نهى الله عنه فقال تعالى :

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ (١) .

أهداف الإسلام في تكوين الأسـرة :

يهدف الإسلام في بناء الأسرة إلى أن يحقق بالغريزة المقاصد الصالحة والعليا للإنسان في هذه الحياة وترجع هذه المقاصد إلى الأمور الآتية :

١ - إشباع الدافع الجنسي على نحو يصون العفة ، ويحفظ الأعراض

٢ - الحفاظ على بقاء النوع الإنساني وصيانته من الانقراض .

٣ - نقاء النسل ، وصيانة الأنساب من الاختلاط .

٤ - إيجاد جو صالح لضمان النشأة السوية للكائن الإنساني .

٥ - صيانة المجتمع من التحلل والفساد .

وهذه المقاصد الخمسة متداخلة ومتلازمة بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر ، فكل واحد منها يستلزم الآخر ويستتبعه ، ولعلنا إذا أدركنا حقيقة العلاقة التي تربط بين الرجل والمرأة أو بأسلوب آخر الطريق الذي يسلكه كل منهما في إشباع غريزته الجنسية ونظرة كل منهما للآخر تحدد أمامنا الاتجاه الذي سينتهي إليه المطاف ، وتتبعه نتائجه ، فإما أن يكون الطريق سليما بأن يؤدي إلى نقاء النسل والحفاظ على الأعراض والأنساب والقيم والأخلاق... إلخ ، وإما أن يكون الطريق معوجا منحرفا فيؤدي إلى الزنى ، ومن ثم يقود سالكيه إلى إيلاد اللقطاء والأبناء

---

(١) محمد (ص) : ٢٢ .

غير الشرعيين وما يستتبع ذلك من النشأة غير السوية واختلاط الأنساب والعقد النفسية والانحراف الخلقي إلى غير ذلك من الثمرات المرة والنتائج المفجعة .

* * *

الفصل الثاني

الإسلام والدافع الجنسي

نظرة الإسلام إلى الدافع الجنسي :

ينظر الإسلام إلى الدافع الجنسي نظرته إلى الدوافع الفطرية الأخرى فيحترمه ولا يحقره ويسعى لإشباعه بما يتناسب وكرامة الإنسان ، فقد خلق الله المخلوقات كلها موفق قانون الزوجية ليتم التكاثر والتعمير لهذا الكون .

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1] ، ﴿ وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾[2] .

﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ [3] .

ولما كان الإنسان قد كرمه الله وفضله ، كانت طريقته في إشباع دوافعه الفطرية تختلف كل الاختلاف عن الحيوانات والبهائم الأخرى ، فطريقته في مأكله ومشربه ، وسعيه إلى معاشه وتمتعه بالحياة ، تختلف تماما عن مسلك الحيوانات لما له من عقل وتمييز وشعور وإحساس ، وكان الدافع الجنسي من أقوى الدوافع ، لأنه متعلق ببقاء النوع الإنساني وامتداد حياة الإنسان على هذه المعمورة وكان تحقيقه وفق قانون الفطرة هو الذي يليق بالإنسان ويضمن تحقيق النتائج الصالحة المترتبة عليه . يقول الله تعالى :

---

(١) الذاريات : ٤٩ .

(٢) الزخرف : ١٢ .

(٣) الشورى : ١١

﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾[1] .

طريقة تلبية الرغبة الجنسية :

. وقد حدد الإسلام طريقة تلبية الرغبة الجنسية وحصرها في الزواج ، وفتح كل الأبواب الميسرة له وأغلق الأبواب الأخرى وجعل تلبية هذه الرغبة بهذا السبيل نعمة من نعمه يعقبه النسل الطيب الذي يرى الزوجان فيه قرة أعينهما وامتداد حياتهما .

﴿ واللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وحَفَدَةً ورزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾[2] .

وانظر كيف قرن الزوجية بالرزق من الطيبات ، فهما من باب واحد ومن منهل واحد يمضيان مع الفطرة ويتحقق وجودها بهما ، ولهذا كان ختام الآية :

﴿ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ .

والباطل والفاسد كل ما خالف الفطرة فى كلا الأمرين وأعنى بهما الزواج والرزق من الطيبات ، وكما أنه جعل هذا الطريق نعمة من نعمه جعل الزواج سبيل المودة الحقيقية والرحمة المتبادلة والسكن النفسى والأمن العاطفى والقلبى ، يقول الله تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3] .

---

(١) الفرقان : ٥٤

(٢) النحل : ٧٢

(٣) الروم : ٢١

تقدير الإسلام للدافع الجنسي :

وقد قرر الإسلام أهمية الغريزة وسورتها ، فرغب في الزواج وحرم التبتل والرهبانية ، وعنف الرسول الكريم من أرادوا الإعراض عن الزواج طلبا للقربة من الله ، وسمى ذلك انحرافا عن سنته وهديه . عن أنس بن مالك : « جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : أين نحن من النبي ﷺ ؟ فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبدا ، وقال الآخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبدا . فجاء رسول الله ﷺ فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » [1] .

يعقد ابن القيم فصلا ممتعا في كتابه : « زاد المعاد » يبين فوائد تلبية الغريزة بطريقة سليمة فيقول : « فصل ، وأما الجماع والباه [2] فكان هديه (أي النبي ﷺ) فيه أكمل هدي يحفظ به الصحة ويتم به اللذة وسرور النفس ويحصل به مقاصده التي وضع لأجلها فإن الجماع وضع في الأصل لثلاثة أمور هي مقاصده الأصلية . أحدها : حفظ النسل ودوام النوع إلى أن تتكامل العدة التي قدر الله بروزها إلى هذا العالم . الثاني : إخراج الماء الذي يضر احتباسه واحتقانه بجملة البدن . والثالث : قضاء الوطر ونيل اللذة والتمتع بالنعمة » [3] .

ومن هنا كان سلوك المسلمين تجاه الغريزة سلوكا فطريا وطبيعيا لا تحكمه العقد النفسية والفكرية التي وقع فيها آباء الكنيسة المسيحية ولا التخبطات

---

(١) فتح البارى : ٩ - ١٠٤ ط . السلفية بالقاهرة .

(٢) الباه : النكاح .

(٣) زاد المعاد فى هدى خير العباد - ٣ - ٣٠٧ .

والانحرافات الحادة التي وقع فيها الفرس ، ولا الإغراق في الشهوات والإدمان عليها كما حدث في الحضارة الهندية ، ولا الفوضى الجنسية التي وقع فيها عرب الجاهلية ، ولا التحلل والإباحية التي غطت وجه الحضارة الصناعية الحديثة ، وإنما تحكمه نظرة الإسلام إلى فطرة الإنسان وما جبل عليه من دوافع لا يغلب دافعا على حساب دافع آخر وإنما يشبع الدوافع كلها بعدل وتوازن وانسجام ومن غير إسراف أو تجاوز . فهذا عبد الله بن عمر يروي لنا فيقول : « كنا مع النبي ﷺ شبابا لا نجد شيئا فقال رسول الله : يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » (١)

وانظر إلى قول عبد الله بن عمر : « شبابا لا نجد شيئا » أي أنهم لا يملكون ما يبدؤون به الحياة الزوجية ، فوجه همتهم إلى الاستعداد لهذه المرحلة فمن استطاع فليبادر وإلا فليضبط نفسه ويقوي عزيمته ويستعين بالصيام على ذلك ولهذا قال النووي في تفسير (الباءة) :

« اختلف العلماء في المراد بالباءة هنا على قولين يرجعان إلى معنى واحد أصلهما أن المراد معناها اللغوي وهو الجماع فتقديره من استطاع منكم الجماع لقدرته على مؤنه – وهي مؤن النكاح – فليتزوج ومن لم يستطع الجماع لعجزه عن مؤنه فعليه بالصوم ليدفع شهوته ويقطع شر منيه ، كما يقطعه الوجاء ، وعلى هذا القول وقع الخطاب مع الشباب الذين هم مظنة شهوة النساء ، ولا ينفكون عنها غالبا » (٢)

ويؤكد العلم أهمية انضباط الغريزة وعدم الإفراط فيها فيقول الكيس كاريل : « ومن المعروف أن الإفراط الجنسي يعرقل النشاط العقلي . ويبدو أن

---

(١) فتح البارى : ٦/١٢٢ ط . السلفية القاهرة .

(٢) المصدر السابق : ٩ – ١٠٨ .

العقل يحتاج إلى وجود غدد جنسية حسنة النمو ، وكبت مؤقت للشهوة الجنسية ، حتى يستطيع أن يبلغ منتهى قوته »[1] .

وإذا تحدد موقف الإسلام من الغريزة وطريقة تلبيتها بالزواج ، تحقق ما يرجوه الإسلام من نقاء النسل وعدم اختلاطه ، ويصبح الناشىء عضوا بناء في المجتمع .

موقف المجتمعات الأخرى من الغريزة الجنسية وطريقة تلبيتها :

يقرر الدكتور علي عبد الواحد وافي في كتابه : « الأسرة والمجتمع » وهو عالم متخصص في هذا الموضوع ، بأن الشيوعية الجنسية نظام لم يعثر عليه في أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية سواء في ذلك البدائي منها والمتحضر ويقول : فليس بين المجتمعات الحاضرة والغابرة التي وقفنا على نظمها عن طريق ملاحظتها أو ملاحظة ما خلفته من آثار أو عن طريق ما كتبه المؤرخون أو الرحالة أو علماء القانون أو الأثنوجرافيا Ethnographie أي مجتمع أخذ بنظام الشيوعية المطلقة في علاقة الرجال بالنساء[2] . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الفطرة الإنسانية تنفر من ذلك ولا تقبله ، وإن حدث فإنما يكون شذوذا وانحرافا عن سنن الفطرة . وسنرى أن ذلك الشذوذ و الانحراف سببهما الاضطراب الفكري والنظم الاجتماعية والسياسية المنحرفة .

المجتمع الفارســي :

فالمجتمع الفارسي تعرض لتلك الاضطرابات بسبب ظهور دعوتين خطيرتين كانت إحداهما على نقيض الأخرى ، فقد ظهرت الدعوة الأولى على

---

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة ، سيد قطب - ١٣٢ نقلا عن الإنسان المجهول ص ١٧٤

(٢) الإسرة والمجتمع ، د . على عبد الواحد وافى ط ٦ ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة القاهرة سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .

يد - مانى - في القرن الثالث المسيحي ، وكان ظهورها رد فعل عنيف غير طبيعي ضد النزعة الشهوية السائدة في البلاد ، ونتيجة منافسة النور والظلمة الوهمية فدعا إلى حياة العزوبة لحسم مادة الفساد والشر من العالم ، وأعلن أن امتزاج النور بالظلمة شر يجب الخلاص منه ، فحرم النكاح استعجالا للفناء وانتصارا للنور على الظلمة بقطع النسل [1] . والدعوة الثانية ظهر بها - مزدك في القرن الخامس والذي أعلن أن الناس ولدوا سواء لا فرق بينهم ، فينبغي أن يعيشوا سواء . ولما كان المال والنساء مما تحرص النفوس على حفظهما وحراستهما كان ذلك عند مزدك من أهم ما تجب فيه المساواة والاشتراك « وحظيت هذه الدعوة بموافقة الشبان والأغنياء والمترفين وصادفت من قلوبهم هوى ، وسعدت كذلك بحماية البلاط فأخذ (قباذ) يناصرها ونشط في نشرها وتأييدها حتى انغمست إيران بتأثيرها في الفوضى الخلقية وطغيان الشهوات ، قال الطبري : « افترص السفلة ذلك واغتنموا وكاتفوا (مزدك) وأصحابه وشايعوهم فابتلي الناس بهم وقوي أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم ، وحملوا (قباذ) على تزيين ذلك وتوعدوه بخلعه فلم يلبثوا إلا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه ولا يملك شيئا مما يتسع به » [2] .

المجتمع الهندي :

أما المجتمع الهندي القديم فقد عصفت به الشهوة الجنسية الجامحة . ويقرر الأستاذ الندوي ذلك فيقول : « فلعل المواد الجنسية والمهيجات الشهوية لم تدخل في صميم ديانة مثلما دخلت في صميم الديانة في البلاد الهندية ، وقد تناقلت الكتب الهندية وتحدثت الأوساط الدينية بوقوع الحوادث العظيمة وعن تعليل

---

(١) ماذا خسر العالم : ٣٨ ، ٣٩

(٢) المصدر السابق : ٣٩ نقلا عن تاريخ الطبرى : ٢/٨٨ .

الأكوان بروايات وأقاصيص عن اختلاط الجنسين من الآلهة وغارة بعضها على البيوتات الشريفة بأشياء تستك منها المسامع ويتندى لها الجبين حياء . زد إلى ذلك عبادتهم لآلة التناسل لإلههم الأكبر (مهاديو) ، وتصويرها في صورة بشعة ، واجتماع أهل البلاد عليها من رجال ونساء وأطفال وبنات ، وكذلك ما يرويه بعض المؤرخين : أن رجال بعض الفرق الدينية كانوا يعبدون النساء العاريات والنساء يعبدن الرجال العراة ، وكان كهنة المعابد من كبار الخونة والفساق الذين كانوا يرزؤون الراهبات والزائرات في أعز ما عندهن ، وقد أصبح كثير من المعابد مواخير يترصد فيها الفاسق ما يطلبه وينال فيها الفاجر بغيته » [1]

العرب في الجاهليـــة :

وكان العرب في الجاهلية يمارسون أنواعا من النكاح أبطل الإسلام منها ما كان زنىً أو شبيها بالزنى وأقر النكاح الصحيح يصور ذلك أصدق تصويرما رواه الإمام البخاري عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته : « أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها . ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها [2] : أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان ، تسمي

---

(١) المصدر السابق : ٤٨ - ٤٩ .

(٢) حيضها .

من أحبت باسمه ، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل . ونكاح رابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها ، وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما ، فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جُمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطته (١) به ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم » (٢) .

وكان نظام البغايا شيئا معروفا عند الأمم القديمة وكان منظوراً إليه على أنه استثناء لا يمثل مطلقا الحالة السوية الصحيحة لاتصال الرجل بالمرأة وينظر إليه نظرة سخط وازدراء .

وقد كان العرب في الجاهلية يحتقرون البغايا ومن يتصل بهن ، وكانت البغايا يتوارين عن العيون ويسكن بعيداً عن المدائن والقرى ومضارب خيام البادية وكان لا يذهب إليهن إلا سفلة الناس وسوقتهم يذهبون إليهن في الظلام يجرون أطراف مآزرهم وراءهم لتطمس آثار أرجلهم على الرمال . ولذلك أطلق على البغايا اسم « المظلمات » و« المهينات » . وكان من جوامع كلمهم في المدح : « فلان لا يرخي لمظلمة إزاره » . وفي ذلك تقول العوراء بنت سبيع :

أبكي لعبد الله إذ حُشّتْ قبيل الصبح ناره (٣)
طيان طاوي الكشح لا (٤) يرخي لمظلمة إزاره

---

(١) الصقته به .

(٢) فتح البارى : ٩ : ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٣) حشت ناره أى أوقدت ، وهذا مثل أرادت به أنه قتل قبيل الصبح ، فضربت لقتله مثلاً بإيقاد النار والعرب تقول أوقدت نار الحرب إذا هاجت .

(٤) الطيان صفة مشبهة من الطوى وهو الجوع ، والعرب ترى من السيادة ألا يشبع الرجل . وطاوى الكشح أى ضامر ليس بضخم الجنبين .

ومن أمثالهم المشهورة : « تجوع الحرة ولا تأكل بثديها » ، وكان البغاء عندهم يكون مقصوراً على الإماء ، أي غير الحرائر . ومن ذلك ما كان يفعله (ابن أبيّ) من اتخاذ بعضهن وسيلة للكسب حتى نزل القرآن ينهى عن ذلك :

﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (١) .

المجتمع الغربي :

أما المجتمع الغربي المسيحي فقد انحرف به آباء الكنيسة ورسلها ودعوا الناس إلى العفة عن طريق التبتل والبعد عن المرأة باعتبارها المسؤولة عن خطيئة آدم وأنها أحبولة الشيطان فكان الطريق الأمثل كبت الغريزة وقتلها ، وتتمثل في الرهبنة من جانب الرجل والمرأة ، ذلك أنهما لا يجدان طريقهما إلى ملكوت السماء إلا بالانقطاع والتفرغ للعبادة ، ففي العهد القديم :

« فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر وأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضا فأكل » « والمرأة التي جعلتها معي هي التي أعطتني من الشجرة » .

وفي العهد الجديد : « أن آدم لم يغو ولكن المرأة أغويت فحصلت في التعدي » . ومن هنا انطلق آباء الكنيسة وشراح نصوصها يفضلون العزوبة وينفرون اتباعهم من الزواج . يقول بولس : « إن من يزوج ابنته يأت عملاً طيباً ، ولكن من لا يزوجها يأت ما هو خير وإنه من الخير أن يظل أعزب إلا إن خاف الوقوع في الخطيئة » .

---

(١) النور : ٣٣ . وانظر تفسير ابن كثير في تفسير الآية وسبب نزولها وقوله سبحانه ﴿ إن أردن تحصناً ﴾ . خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له !!

« إني لأنصح الأيامى من الرجال والنساء أن يقتلوا بي فيظلوا على ما هم عليه فإن لم يقدر أحدهم على العفة فلا مندوحة له حينئذ من الزواج » .

ويقول ترتوليان : « فلو كان آدم لم يعص ربه لعاش طاهراً حصوراً ولتكاثر النوع الإنساني بطرق غير هذه الطرق البهيمية »[1] .

انحرافات آباء الكنيسة ورأي الإسلام فيها :

وواضح الفرق الشاسع والبون البعيد بين الإسلام وهذا التحريف الذي ابتدعه آباء الكنيسة ، فيقرر الإسلام :

أولاً : أن الخطيئة وقعت من آدم وحواء على سبيل الامتحان والابتلاء بالأكل من الشجرة وأنهما ندما على خطئهما وتابا وقبل الله توبتهما وأنزلهما إلى الأرض لتتم حكمته من استخلاف أبنائهما ، وأن بني آدم سيمضون في حياتهم على الفطرة السوية التي خلقهم ربهم عليها ، وحاشا لله أن يعاقبهم بذنوب أبيهم ، وأن حكمة خلق حواء كانت سكناً وأمناً لأبينا آدم عليه السلام ، وليتم التكاثر وبقاء النوع ، وفي ذلك يقول القرآن العظيم :

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ . فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ . قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

---

(١) النصوص منقولة من كتاب دراسة فى أدب منحل /٣٩ ، ٤٠ لجلال كشك . الناشر مكتبة الأمل . الكويت .

قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (١) . وقوله : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى .. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ (٢) . وقوله سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ (٣) .

وثانيا : إن الكنيسة دعت إلى العزوبة وجعلتها سبيلاً إلى العفة كما نصح « بولس » ، واعتبرت تلبية الرغبة الجنسية شيئاً بهيمياً كما تمنى « ترونليان » بقاء آدم في الجنة حتى لا يكون التكاثر من هذا الطريق البهيمي ، وذلك كله على عكس ما نادى به الإسلام الذي حض على الزواج وأمر به ورغب فيه طريقا للإحصان والعفاف ، بل واعتبر القرآن الدعوة إلى العزوبة دعوة إلى تحريم ما أحل الله فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٤) .

بل إن اللذة الجنسية في موضعها المشروع نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى على الإنسان وهي نعمة السكن « ليسكن إليها » ونظر إليها الشرع على أنها تكليف كلف به كلاً من الزوجين نحو الآخر يثاب عليه إذا أداه له ، ويسأل إذا قصر فيه ، ففي الحديث الصحيح : « وفي بضع أحدكم صدقة » .

نتائج النظرة الكنسية :

ولقد نتج عن هذه التعاليم الكنسية التى أسلفت نموذجاً منها اتجاه إلى الرهبانية العاتية والإغراق في تعذيب الجسد (٥) نتج عنه خطف الأطفال لإدخالهم

---

(١) الأعراف : ١٩ - ٢٥ .
(٢) النجم : ٣٨ - ٤١ .
(٣) الأعراف : ١٨٩ .
(٤) المائدة : ٨٧ .
(٥) راجع ماذا خسر العالم : ١٦٧ ، ١٦٨ .

الأديرة ، فتزلزلت دعائم الحياة المنزلية وصار المثل الأعلى عند المسيحيين الفرار من ظل النساء وعدم الاجتماع بهن ولو كن أمهات وأزواجا ، إذ إن ذلك يحبط أعمالهم وجهودهم الروحية"[1]. وكانت ردود الفعل حدوث الانفجار ضد هذا الكبت فلم يقف عند حد ، فاستشرى الفساد حتى صارت نفس المراكز الدينية مباءة للفساد ومحلاً لانتشار الزنى والخنا والفجور[2] ثم جاءت الثورة الفرنسية نتيجة لهذا الصراع الذي أقامته الكنيسة بين الدين والفطرة البشرية ، وبين الدين والعلم – ولظروف أخرى ليس هنا محل لذكرها – بمفهوم الحرية المتطرفة فأبطلت النظريات الخلقية القديمة وأحيت النظريات الطبيعية وما أن نجحوا في الجانب السياسي « حتى أنحوا بمعول انتقادهم على التصورات الأساسية لنظام الأخلاق الإنسانية يجرحونها ويشككون فيها ويتساءلون : ما هذا العفاف ؟ وما هذا الظلم والتضييق على الشباب الجامح بقيود التقوى ؟. وأي نازلة تنزل بالأرض إن أحب المرء حبيبته بدون زواج ؟.. ثم إذا تزوج المرء فهل يفارقه قلبه حتى يحرم عليه الحب فيما بعد ؟ فمثل هذه الأسئلة أخذت تنشأ وتوجه من كل جانب في المجتمع الجديد ، وأثار ضجتها بوجه خاص الطبقة المنتمية إلى المذهب الرومانتيكي (Romantics Chool) وكانت زوجة جورج صاند (Georg Sand) زعيمة هذه الطبقة بدأت بنفسها الخروج على جميع المبادىء الخلقية التي ما زال عليها مدار الكرامة الإنسانية وعفاف المرأة على الأخص منذ الأزل ، فاتخذت الأخدان ، وآل الأمر بينها وبين زوجها إلى الفراق ، وغدت بعد ذلك تستبدل زوجا بزوج ولم تعاشر أحدا منهم أكثر من عامين ، وأصبح في حياتها ستة أشخاص تخادنهم علناً »[3]... وهكذا بدأ الانحدار وتدفق سيل أقلام رجال الأدب وعلماء الأخلاق وكتاب المسرحيات في فرنسا بوجه خاص وأوروبا بوجه عام يشيعون

---

(١) المصدر السابق : ١٦٨ .

(٢) المصدر السابق : ١٧٢ .

(٣) الحجاب /٥٢ ، ٥٣ للمودودى . ط . دار الفكر بيروت .

الفكرة القائلة بأن الحرية والتمتع بلذات الحياة حق فطري للإنسان ومن عدوان المجتمع على الفرد أن يقيد حقه هذا بسلاسل الأخلاق والتمدن (١).

أمثلة عملية للواقع الغربي المؤلم :

ومضى سبيل المجون الانحلال حتى بلغ مداه في النصف الأخير من هذا القرن ، وأضحت شريعة الفساد تحضراً ومدنية فأصبحت التجربة الجنسية في الغرب قبل الزواج شيئاً عادياً ، وبدأ الدمار الاجتماعي يزحف من كل جانب . فالأمراض السرية من الزهري والسيلان منتشرة (٢)، والانفصال الجسدي بين المتزوجين صار حديثاً عادياً على ألسنة المجتمع وفي الصحافة . وظاهرة الفتيات الضالات المنقطعات عن أسرهن أزعجت المجالس الاجتماعية في مدينة لندن فحاولوا دراسة الظاهرة وفي الدراسة إثبات لأشياء خطيرة يندى لها الجبين ويستحي الإنسان من ذكرها (٣). وقد اضطر مجلس الكنائس بانجلترا لتفاقم الأوضاع الاجتماعية أن يكون لجنة لدراسة الصلة بين الجنس والأخلاق ، واستعرض التقرير الحالة ووقف أمامها عاجزاً تمام العجز ، وذلك للميوعة التي أصيب بها رجال الكنيسة وعدم قدرتهم على مواجهة طوفان الفساد . ومن هنا أقر التقرير الزنى ، وحاول أن يلطف الأموز بتوصيات للعائلة وللجامعات والمدارس

---

(١) المصدر السابق : ٥٥ - ٥٩ .

(٢) من دراسة إحصائية تقدم بها التليفزيون البريطاني سنة ١٩٦٨ ليبين المخاطر المحدقة بالمجتمع وليغرى الشباب بالعلاج .

(٣) (الفتيات الضالات) ص ٤٧ - ٥١ .

Rootless in the city, Noel Timms,-Published for the National Institnte for Social Work Training by the Bedford Square Press of the National Council of Social Service, 26 Bedford Square London WCI.

وقد ذكر الكتاب عدة حالات واقعية ... ولكنها حالات يعجز القلم عن تصويرها . من ذلك حالة الطالبة (بيتى) وقد عرفت الأخصائية الاجتماعية الفتاة عام ١٩٦٥ ، وقصتها فى سطور ، فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها عاشت مع أم وأخوات يكبرنها يمارسن الجنس وأصبح لهن أولاد غير شرعيين ، ومشت =

ووسائل الإعلام[1] . وقد وصل الحال في المجتمع الأميريكي أن كوّنت نواد لتبادل الزوجات : « فقد أورد المراسل الخاص لصحيفة نيوز أوف ذي ورلد News of the World في مدينة نيويورك هذا الخبر : إن رجال الشرطة الذين فاجأوا بالتفتيش عمارة حديثة مكونة من عدة طوابق في مدينة (اتلانتا) Atlanta بولاية جورجيا Georgia بالولايات المتحدة – صادروا عدداً من السجلات والملفات ، يعتقدون أنها لناد وطني لتبادل الزوجات .

... وذكر اليوم المتحدث باسم الشرطة بأنه طبقاً للمجلة التي يديرها النادي : أن باب النادي مفتوح للعزاب والمتزوجين من الجنسين . وتدعي الشرطة أن له فروعاً في نيويورك . وشيكاغو .. ودلاس .. وأورلندو .. وفلوريدا ، وأن أصحاب الطلبات من السيدات يلتزمن بتسجيل الإحصائيات الحيوية ، ومن تقبل منهم تزكى من عدد آخر من الأعضاء .

والوثائق التي صودرت سلمت إلى المحكمة الكلية كي يقوم بنظرها الادعاء العام .

=(بيتى) فى نفس الطريق ، وتركت مدرستها لاختلاطها بالشباب ثم أدخلت مدرسة أخرى Approrval hchool ولما حملت أرسلت إلى بيت (الأم والطفل) فى شمال انجلترا ذلك أنها تعودت الهروب ، وارسالها بعيداً قد يساعدها على عدم الهروب ولكنها بعد وضع طفلها بأربعة أشهر ، هربت إلى لندن تاركة طفلها . وفى السبعة أشهر التالية وجدت فى البارات الليلية نائمة هنا أو هناك مع الرجال .. وأدخلت المستشفى ثلاث مرات .. وقد أحست العائلة أن (بيتى) تبحث عن مكان آمن تأوى إليه بعيداً عن ضغط المجتمع وقد عبرت (بيتى) للأخصائيين الاجتماعيين والنفسيين بشعورها بالذنب وعدم السعادة فى حياتها . وقد دخلت تجارب أخرى مؤسفة ومحزنة وحملت ثم أجهضت وحاولت أن تعيش فى كنف رجل ولكن باءت محاولتها بالفشل وأدخلت المستشفى ثم تركتها بعد ثمانية أشهر ، وعرضت عليها أختها أن تعتنى بأطفالها غير الشرعيين ، فلم تطق ذلك . ثم رأوا أنه قد يكون من المفيد أن ترى طفلها الذى بلغ سنتين ونصف والذى لم تره منذ تركته رضيعاً ، ولكنها قررت أنها لا تستطيع الذهاب بمفردها ، ولما ذهبت إحدى العاملات معها ورأته لم تستطع الكلام عن مقابلتها لطفلها بعد عودتها ، وكانت كئيبة حزينة .. ويقول التقرير أن الأسابيع التالية كانت صعبة بالنسبة (لبيتى) فهى تشعر بأنها قد فشلت فى جميع المحاولات ولا يوجد ما يستحق العيش من أجله ؟ !!

(١) كتاب الجنس والأخلاق .

Sex and Morality, Afiepovt to the British.

وما وجد في هذا النادي يكشف لأول مرة عن مدى انتشار هذا اللون من التحلل على مستوى الولايات كلها[1] وهذا شيء مؤسف زد على ذلك نوادي العراة[2]، ونوادي الشذوذ الجنسي[3] .

أخطار جريمة الزنى :

والخلاصة أن جريمة الزنى تسبب من الأخطار الاجتماعية والأمراض النفسية والخلقية مالا يمكن حصره ، وقد ذكر الأستاذ المودودي بعضها ، وإليك ملخصاً لما ذكره :

١ - أول ما يجنيه الزاني أن يعرض نفسه لخطر الإصابة بالأمراض السرية القاتلة . يقول الأطباء في مرض السيلان : « إن هذه القرحة في الإحليل قلما تندمل ولا يخلص من أذاه الإنسان إلا في النادر » . ويقول آخر : « من أصيب بالسيلان مرة أصيب به للأبد » وهذه العاهة كثيراً ما تتلف الكبد والمثانة والخصيتين وغيرها . وأما مرض الزهري فيسمم الجسد كله ، ولا يبقى من قمة الرأس إلى أخمص القدم عضو من أعضاء الجسد غير متأثر بسمومه وأذاه ، وينتقل من المريض إلى أولاده وأولاد أولاده .

٢ - وإن لم يصب الزاني بالأمراض السرية فمن اللازم المحتوم ابتلاؤه بالسفاسف الخلقية التي تتعلق بهذا الإثم بالضرورة . فالوقاحة والخديعة والكذب والدغل والأثرة والخضوع للشهوات وجموح النفس وشرود الفكر وذواقية الطبع وتطلعه إلى كل جديد ، والغدر وقلة الوفاء كل أولئك من آثار الزنى التي تترتب

---

(١) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر ، مشكلات الأسرة والتكافل ، دكتور محمد البهى ١٤٥ . دار الفكر ، بيروت .

Council of churehes, October 1966 Scmpress LTD.

(٢) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر ، مشكلات الأسرة والتكافل .

(٣) التايم الأمريكية الصادرة فى ١٩ يولية ١٩٧١ م / ٥٠ ، ٥١ .

على أخلاق الزاني نفسه ، ومما لا شك فيه أن من يجمع في نفسه هذه الخصال ، لا تنحصر آثار سفاسفه الخلقية في الشؤون الجنسية فحسب ، بل هو يتحف الجماعة بهذه الخصال في كل شعبة من شعب الحياة .

٣ – ومما تستلزمه إباحة الزنى أن تجري في المجتمع حرفة البغاء ويترتب على ذلك بأن تكون في المجتمع طبقة من الأناث تكون في أسفل الذل والمهانة بكل اعتبار ، ليكن كمراحيض البلدية موضع قضاء الوطر لكل خليع داعر ويتجردن من جميع الخصائص النسوية الشريفة ، ويتدربن على التكسب بالغنج والدلال ، ويسفلن إلى أن يبعن محبتهن وقلوبهن وأجسامهن لكل زائر جديد ، ويبقين أداة لقضاء الشهوات لغيرهن بدل أن يقمن بخدمة نافعة مثمرة للمجتمع .

٤ – وإباحة الزنى وترويجه لا يقطع دابر التمدن والعمران فحسب ، بل يستأصل النسل الإنساني .

٥ – وإباحة الزنى يقدم للمجتمع أطفالاً جاؤوا نتيجة للعواطف البهيمية الخالصة ، فولد الزانية لا يرث عن أبويه إلا خصائص الطبع البهيمي ، وشتان بين طفل يأتي نتيجة العواطف الإنسانية الطاهرة التي تغمر الزوجين المتناكحين وقت اتصالهما ، وطفل نزل نزول النكبة المفاجئة والذي يفقد في أغلب الأحوال عطف الأبوة ووسائلها ولا تتيسر له إلا تربية الأم الناقصة التي تكملها تربية الأب ، وهذه أيضاً ربما يخالطها الضجر والإعراض والذي لا يتمتع برعاية الأجداد والجدات والأخوال والأعمام ومن يليهم من ذوي القربى ، لا جرم أن ينشأ إنساناً ناقصاً غير تام الإنسانية ، فلا تتكون له سيرة صحيحة ، ولا تتجلى فيه كفاءات موهوبة ، ولا تتوفر له وسائل التقدم والإجادة العملية ، فيكون في حد ذاته ناقص الإنسانية ، عادم الوسيلة ، فاقد الحامي والنصير ، مظلوماً مدحوراً ، ويكون للتمدّن نكداً عقيماً ، لا ينفعه النفع الذي كان ينفعه إياه لو ولد حلالاً .

ولهذه الأسباب كلها وما يتبعها فإن إعطاء الأفراد حرية الزنى والفحشاء غلو في مسامحتهم ، وعدوان على المجتمع بل هدم لكيانه . والمجتمع الذي يتهاون بهذا الأمر ويغمض عن الزنى عينه زاعماً إياه شيئاً من باب الترفيه عن النفس وقضاء الوقت في المتعة واللذة (Havingao good time) ويسامح في نثر بذور النسل هنا وهناك بلا قيد (Wildoats Sowing) ، هو في الحقيقة مجتمع جاهل ، لا يعرف حقوقه ، ومن ثم يعادي نفسه . ولو أنه يشعر بحقوقه ويتفطن للآثار السيئة التي تترتب على المصالح الاجتماعية من جراء إباحة الحرية الفردية في العلائق الجنسية ، لنظر إليها كنظره إلى السرقة والتلصص والقتل . بل هذه الإباحية في الفحشاء أشد من السرقة ، فإن السارق أو اللص أو القاتل لا يسلب إلا فرداً أو بضعة أفراد من المجتمع ، ولكن الزاني يعتدي على المجتمع بأسره وعلى أجياله القادمة أيضاً ، فهو يخون ملايين من الناس في آن واحد[1] .

* * *

---

(1) الحجاب : ١٦٣ - ١٧١ بإيجاز وتصرف .

الفصـــل الثالـــث

مَكانَة المَرْأة في الحَضَــارات الأخــرىٰ وَفي الإســـلَام

لعله من المناسب بعد أن بيّنّا أهداف الإسلام في تكوين الأسرة ونظرته إلى الغريزة وطريقة تلبيتها ، أن نبين المكان الذي تشغله المرأة في البناء الأسري والاجتماعي في الإسلام ، إذ إنها ركن أساسي فيهما . ولعله من الواجب أن نبين مكانتها بإيجاز في النظرة المغايرة للإسلام لتتضح أمامنا الصورة وندرك فضل الإسلام .

ففي الصين كانت المرأة تشغل مكاناً هيناً في المجتمع وتعطى أحقر الأعمال ، وينظر للولد الذكر على أنه إله سقط من السماء ، أما البنت فلا يسر بمولدها أحد . وإذا كبرت اختبأت في حجرتها تخشى أن تنظر في وجه إنسان ولا يبكيها أحد إذا اختفت من منزلها[1] .

وفي اليونان القديم لم يكن حظها أفضل من حظها عند الصينيين ، فكانت تعيش في أعماق البيوت على أنها من سقط المتاع حتى نادىٰ بعض مفكريهم ومؤرخيهم بأنه « يجب أن يحبس اسم المرأة في البيت كما يحبس جسمها » ، ويصور ديموستين خطيبهم المشهور وضع المرأة فيقول : « إننا نتخذ العاهرات للذة ،

---

(١) الإسلام والمرأة المعاصرة / ١٠ ، ١١ نقلا عن قصة الحضارة ول ديورانت حضارة الصينة ٢٧٣ .

ونتخذ الخليلات للعناية بصحة أجسامنا اليومية ، ونتخذ الزوجات ليلدن لنا الأبناء الشرعيين »[1] .

وفي **الحضارة الرومانية** كانت قاصراً لا تملك من أمرها شيئاً ، فالسلطة كلها مركزة في يد الزوج وكان له مطلق الحرية حتى إنه يستطيع أن يلحق بالأسرة من ليس منها ، كما أنها كانت محرومة من الميراث ، إذ الميراث يعطى للابن الأكبر[2] .

وفي **الحضارة الهندية** كانت تابعة لزوجها وكانت بمنزلة الإماء وربما يخسرها زوجها في القمار ، وإذا مات صارت كالمعضلة لا تتزوج وتظل تعمل كخادمة في بيت أقربائه لا تخرج عنهم ، وقد تحرق نفسها تفادياً من عذاب الحياة وشقاء الدنيا ، وينظر إليها على أنها عائق للخلاص من دولاب الحياة الجسدية وخلاص الرجل مرهون بالانفصال عنها[3] .

أما العرب في الجاهلية فكان كثير منهم لا يرحب بالأنثى ، بل كان يئدها مخافة العار ، وقد سجل القرآن ذلك[4] ، وكانت لا تستطيع الخروج عن حوزة الأسرة إذا مات زوجها فإذا ألقى أحد أفراد أسرة زوجها ثوبه عليها صارت له ولا تخرج منه إلا بفدية[5] . وتحرم من الميراث لأن الميراث لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل ، وحاز الغنيمة ، وتعضل بعد الطلاق ، وتمسك ضراراً

---

(١) المصدر السابق / ١١ ، ١٢ نقلا عن قصة الحضارة ل ول ديورانت حياة اليونان /١١٤ .

(٢) انظر تنظيم الإسلام للمجتمع /٧ ، ٨ للشيخ أبى زهرة ، دار الفكر العربى ، وانظر أيضاً حقائق الإسلام وأباطيل خصومه /٢٣١ للمرحوم العقاد نشر دار الكتاب العربى - بيروت .

(٣) المصدر السابق /٢٣١ ، وماذا خسر العالم /٥٢ .

(٤) انظر الآيات فى سورتى النحل /٥٨ ، ٥٩ ، والزخرف /١٧ ، ١٨ .

(٥) ماذا خسر العالم /٥٩ ، انظر رواية ابن عباس وعطاء ابن أبى رباح المنقولتين عن الطبرى /٤/٣٠٨ .

للاعتداء[1] ، ويطفف معها الكيل ويحرم عليها بعض الطعام[2] ، ويتزوج عليها الرجل ما يشاء من النساء من غير تحديد[3] .

المرأة في المجتمع المسيحي القديم :

قدمنا آنفاً كيف أن آباء الكنيسة تطرفوا في النظرة إلى المرأة وحملوها خطيئة آدم ، وأنها تعتبر ينبوع المعاصي وأصل المصائب التي لحقت بالإنسانية جمعاء ، وبالتالي فالعلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة نجس في نفسها يجب أن تجتنب ولو كانت عن طريق نكاح أو عقد رسمي ، وترتب على ذلك أن أصبحت الحياة الزوجية مبعث حرج وضيق للرجل والمرأة ، وانحطت تبعاً لذلك منزلة المرأة في المجتمع وكان من نتائج ذلك :

١ - أصبحت المرأة تحت سلطة الرجل وفقدت أهليتها الاقتصادية ، وصار كل ما عندها ملكاً لزوجها .

ومن آثار ذلك : « أن المرأة في فرنسا كانت إلى عهد قريب بل لا تزال في الوقت الحاضر ، أشبه شيء بحالة الرق المدني . فقد نزع منها القانون صفة الأهلية في كثير من الشؤون المدنية كما تنص على ذلك المادة السابعة عشر بعد المائتين من القانون الفرنسي إذ تقرر : (أن المرأة المتزوجة - حتى لو كان زوجها قائماً على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها - لا يجوز لها أن تهب ولا أن تنقل ملكيتها ولا أن ترهن ولا أن تملك بعوض أو من غير عوض بدون اشتراك زوجها في العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية) . ومع ما أدخل على هذه المادة من قيود وتعديلات فيما بعد فإن كثيراً من آثارها لا يزال ملازماً لوضع المرأة الفرنسية

---

(١) البقره /٢٣١ ، ٢٣٢ والعضل منعها من الرجوع إلى زوجها . والإمساك ضرارا هو مراجعتها قبل انقضاء العدة حتى لا تذهب إلى غيره . انظر تفسير الآيات فى ابن كثير ج ١ .

(٢) ﴿ وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ﴾ [الأنعام : ١٣٩] .

(٣) ماذا خسر العالم /٥٩ ، ٦٠ .

المتزوجة من الناحية القانونية في الوقت الحاضر . ولتأكيد هذا الرق المدني المفروض على المرأة المتزوجة في الأمم الغربية تقرر قوانينهم ويقضي عرفهم أن المرأة بمجرد زواجها تفقد اسمها واسم أسرتها فلا تعود تسمى فلانة بنت فلان ، بل تحمل اسم زوجها وأسرته ، فتدعى مدام فلان ، أو تتبع اسمها باسم زوجها وأسرته بدلاً من أن تتبعه باسم أبيها وأسرته وفقدان اسم المرأة وحملها لاسم زوجها كل ذلك يرمز إلى فقدان الشخصية المدنية للزوجة واندماجها في شخصية الزوج » (١) .

ويقول برنارد شو الأديب الإنجليزي المعروف : « في اللحظة التي تتزوج فيها المرأة تصبح جميع ممتلكاتها ملكاً لزوجها بمقتضى القانون الإنجليزي » . ثم يشرح كيف احتالوا على هذا القانون « بابتكار خدعة قانونية بارعة لتسوية المنازعات الزوجية في هذا الصدد فأمكنهم أن يحتالوا لحفظ حقوق المرأة قبل الزواج إلى شخص أو أشخاص وهميين ، أو لم يولدوا بعد ، وبهذه الطريقة تصبح معدمة تماماً ولكنها تستمر في الحصول على دخلها من ممتلكاتها طول حياتها ، وهكذا لا يتاح لزوجها أن يبدد أموالها كما يشاء . ثم مضى زمن واضطرت الطبقة الوسطى في البرلمان إلى استصدار قوانين ملكية النساء المتزوجات لحماية حقوق المرأة في ممتلكاتهم » (٢) .

٢ - أبدية الزواج وديمومته أمران يحتمهما الدين والقانون ، فكان لا يحق لأي منهما مهما بلغ الشقاق والنزاع أن يطلب الانفصال بالطلاق والخلع وأقصى ما يمكن فعله هو الانفصال الجسدي ، ولا يجوز لأي منهما تجديد الحياة الزوجية واختيار الموافق أو المناسب له ، بل حكم عليهما « إما أن يختارا عيش الرهبان والراهبات أو يتعاطيا الفجور ويتساقيا كؤوس الفحشاء طول أعمارهما الباقية » (٣) .

---

(١) الأسرة والمجتمع : ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٢) دراسة في فكر منحل : ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) الحجاب : ٢٤ .

٣ - وفي حالة وفاة أحد الزوجين لا يعطي الحي فرصة الزواج الثاني ، بل إنه من أقبح العار ومن كبائر الإثم أن يذعن أحدهما لشهوته البهيمية ويتزوج وإذا حدث كانوا يسمونه (الزنى المهذب) !!!

٤ - وبناء على تفضيل حياة العزوبة كان لا يسمح لرجال الكنيسة بالزواج وخاصة الكنيسة الكاثوليكية .

وكان من نتائج هذه النظرة وتلك القيود والأغلال أن انحطت المرأة ، وأهمل دورها وانتشر الفساد من جراء ذلك النظام المناقض لسنن الفطرة ونواميسها فلا غرو أن يحدث الانفجار الذي لا يبقي ولا يذر والذي لم يقف عند حد الفطرة ، بل تعداها ووصل إلى ما يناقضها . وهذا ما سنتعرض له في الفقرة القادمة .

المرأة في المجتمع الغربي الحديث :

كانت الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في أوروبا تئن تحت ثقل أغلال الاتحاد الثلاثي المكون من الكنيسة والإقطاع والنظام الأخلاقي الفاسد ، وكان وضع المرأة كما أسلفنا خير مثال لتجسيد هذا الانحراف والفساد ، ولما استيقظت أوروبا وحاولت القضاء على ذلك النظام برمته ودعا مفكروها وأولو الرأي فيها في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر إلى إعطاء الفرد حريته وحماية حقوقه الاجتماعية ونالت المرأة نصيبها من ذلك فارتفعت مكانتها ، فأعطيت بعض حقوقها الاقتصادية ، وفتح لها باب التعليم العالي ، وعدلت قوانين الطلاق ، والقوانين الاجتماعية . « وبهذه الطرق والتدابير الفعالة المختلفة انبعثت مواهب النساء وبرزت كفاءاتهن التي كانت مطمورة تحت أثقال فادحة من قوانين المجتمع الخاطئة وتصورات الأخلاق الجاهلية . فقمن بتعهد البيوت وتحسين آداب العشرة وأبلين بلاء حسناً في سبيل الخير وأعمال البر ، فترقية الصحة العامة وتربية

الجيل الناشىء ومواساة المرضى وتنمية النظام العائلي وآدابه كل أولئك كان من بواكير ثمار اليقظة التي حصلت بين النساء بفعل الحضارة الجديدة »(١) .

ولو أن النهضة الأوروبية الحديثة وقفت بالمرأة عند الحدود المناسبة لفطرتها والمناسبة للاجتماع البشري من حيث الإسهام في رقي الأسرة لما حدث ذلك الإفراط والإنحراف ، ولكن النظريات التي أسسوها وأقاموا عليها بنيان مجتمعاتهم كانت أساس البلاء وعلة الداء . وتلك النظريات هي :

١ - المساواة بين الرجال والنساء .

٢ - الاختلاط المطلق بين الرجال والنساء .

٣ - تشجيع عمل المرأة واستقلالها في شؤونها المعاشية والاقتصادية .

قضيـــة المســاواة :

لم تطبق قضية المساواة في إطار المساواة في المنزلة الإنسانية والخلقية والتبعات والمسؤوليات مع رعاية الفروق والخصائص لكل من الرجل والمرأة ، كلا بل انطلقت المرأة إلى كل ميدان ناسبها أو لم يناسبها فجنت على نفسها وعلى المجتمع . ورب قائل يقول : ولم لا تترك تمضي في دروب الحياة والنشاط كالرجل سواء بسواء ؟

وجواب الاعتراض يكمن في أن قوانين الفطرة التي خلقها الله عليها لا تمكنها من ذلك إذ إن تكوينها العضوي والوظائفي يأبيان ذلك ، وفي هذا يقول الطبيب والعالم الفرنسي الدكتور أليكس كاريل : « إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ، ومن وجود الرحم والحمل ، أو من طريقة التعليم ، إذ إنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك . إنها تنشأ

---

(١) الحجاب : ٢٦ .

من تكون الأنسجة ذاتها ، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماوية محددة يفرزها المبيض . ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة ، إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليما واحدا ، وأن يمنحا سلطات واحدة ومسؤوليات متشابهة ، والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافا كبيرا عن الرجل . فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها . والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها . وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين ، شأنها شأن قوانين العالم الكوكبي . فليس في الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها . ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هي . فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعا لطبيعتهن ، دون أن يحاولن تقليد الذكور . فإن دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال . فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة » (١) .

ويبين الأستاذ العقاد عليه رحمة الله في فصل ممتع بيان هذه الاختلافات بين النوعين فيقول : « وفضل الرجال على النساء ظاهر في الأعمال التي انفردت بها المرأة ، وكان نصيبها منها أوفى وأقدم من نصيب الرجال . وليس هو بالفضل المقصور على الأعمال التي يمكن أن تقال : إنها قد حجبت عنها ، وحيل بينها وبين المرانة عليها ، ومنها الطهي والتطريز والزينة وبكاء الموتى وملكة اللهو والفكاهة التي اقترنت فيها السخرية بالتسخير ، عند كثير من المضطهدين أفرادا وجماعات » (٢) .

ثم يتحدث عن هذه الصناعات والمهارات وتفوق الرجال عليهن مما يدل على تفوق الرجل في طاقته وقدرته ، ولا يمنع ذلك من ظهور نساء نابغات متفوقات في بعض الميادين ولكن الاستثناء لا يكون قاعدة تعم وتشمل جميع النساء ، وفي هذا يقول :

---

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة : ١٣٠ ، ١٣١ نقلا عن الإنسان ذلك المجهول /١١٤ .
(٢) المرأة في القرآن : ٩ .

« وليس بالمجهول أن النساء قد نبغن من قبل ، وينبغن الآن في طائفة من الأعمال التي يضطلع بها الرجال ، وقد اشتهر منهن الملكات وقائدات العسكر ، واشتهر منهن الباحثات والخطيبات كما اشتهر منهن الصالحات الممتازات في شؤون الدين والدنيا ، وشمائل الفضائل والأخلاق ، وقد تكون منهن من تفوق جمهرة الرجال في بعض هذه الأعمال . ولكن فضائل الأجناس لا تقاس بالنصيب المشترك ، بل تقاس بالغاية التي لا تدرك ولا تؤخذ بالاستثناء الذي يأتي من حين إلى حين بل القاعدة التي تعم وتشيع بين جملة الآحاد . وقد يوجد بين الصبيان من هو أقدر على أعمال الرجال ، بل قد توجد في أثناء الليل ساعة أضوأ من بعض ساعات النهار ، وإنما تجري الموازنة على الغايات القصوى ، وعلى الأغلب الأعم في جميع الأحوال ، وما عدا ذلك فهو الاستثناء الذي لابد منه في كل تعميم .

وعلى هذا يمكن أن يقال : إن (الاستثناء) يحمل في أطوائه دلائل القاعدة التي يخلفها ، ولا يخلو من ناحية تعزز القاعدة ولا تنفيها . إن اسم السيدة – ماري كوري – أول الأسماء التي يذكرها القائلون بالمساواة التامة بين الجنسين ، ولو صح أن هذه السيدة تضارع علماء الطبقة الأولى من الرجال لما كان في هذا الاستثناء النادر ما ينفي أنه استثناء نادر ، وأن القاعدة العامة باقية ، لم تنقض ، ولا ينقضها تكرار مثله من حين إلى حين » [1] .

ثم بين الاختلافات الجسدية التي تؤثر في استعداد الجنسين فيقول :

« ومن الاختلافات الجسدية التي لها صلة باختلاف الاستعداد بين الجنسين أن بنية المرأة يعتريها الفصد كل شهر ، ويشغلها الحمل تسعة أشهر ، وإدرار لبن الرضاع حولين قد تتصل بعدهما في حمل آخر ، ومن الطبيعي أن تشغل هذه الوظائف جانبا من قوى البنية ، فلا تساوي الرجل في أعماله التي يوجه إليها بنية

---

(١) المصدر السابق /١٢ ومدام كورى كانت تلميذة لزوجها كما قالت ابنتها (إيف) تراجع بقية القصة فى المصدر السالف /١٢ .

غير مشغولة بهذه الوظائف الأنثوية . وينبغي أن تظهر هذه الحقيقة بغير مشقة عند الموازنة بين استعداد البنيتين ، وأحرى أن تكون ظاهرة مفهومة عند الذين يدينون بالآراء المادية ، ويربطون بين قوى الجسد وكل قوة باطنة أو ظاهرة في الإنسان وسائر الأحياء ، وليس من اللازم أن يتعلق الاختلاف بالحالة التي تشغل فيها بنية المرأة بتلك الوظائف والأعمال فعلا ، لأن الاستعداد لها مركب في الطباع ، معقود بتكوين الخلايا الدقيقة ، فضلا عن الجوارح والأعضاء ، بل من الطبيعي أن يكون للمرأة تكوين عاطفي خاص لا يشبه تكوين الرجل لأن ملازمة الطفل الوليد ، لا تنتهي بمناولته الثدي وإرضاعه ، ولابد معها من تعهد دائم ومجاوبة شعورية تستدعي شيئا كثيراً من التناسب بين مزاجها ومزاجه ، وبين فهمها وفهمه ، وبين مدارج حسها وعطفها ومدارج حسه وعطفه ، وهذه حالة من حالات الأنوثة شوهدت كثيرا في أطوار حياتها في صباها الباكر ، إلى شيخوختها العالية فلا تخلو من مشابهة للطفل في الرضى والغضب ، وفي التدليل والمجافاة ، وفي حب الولاية والحدب ، ممن يعاملها ولو كان في مثل سنها أو سن أبنائها . وليس هذا الخلق مما تصطنعه المرأة وتتركه باختيارها ، إذ كانت حضانة الأطفال تتمة لرضاع ، تقترن فيها أدواته النفسية بأدواته الجسدية ، ولا تنفصل إحداهما عن الأخرى . ولا شك أن الخلائق الضرورية للحضانة وتعهد الأطفال الصغار أصل من أصول اللين الأنثوي ، الذي جعل المرأة سريعة الانقياد للحس ، والاستجابة للعاطفة ، يصعب عليها ما يسهل على الرجل من تحكيم العقل ، وتغليب الرأي ، وصلابة العزيمة ، فهما ولا شك مختلفان في هذا المزاج اختلافا لا سبيل إلى الممارة فيه » (١) .

وأظنك بعد ما علمت هذه الفروق الجوهرية تدرك الجناية الكبرى التي جناها المجتمع الغربي على الإنسانية حينما مسخ المرأة وحملها ما لا تطيق ، فطالبها

---

(١) المصدر السابق : ١٤ ، ١٥ .

بأن تعمل كالرجل وأطلق لها العنان ، ولم يقدم لها التعليم الذي يؤهلها لأداء رسالتها ويبين لها واجبها زوجا وأما ، بل جعلها مساوية للرجل تماما ثم كان لابد مما ليس منه بد ، وهي أن تكون زوجة وأما وأنى لها أن تؤدي واجبات لم تؤهل لها ؟ ثم كيف تستطيع أن تجمع بين مطالب العمل ومطالب الأسرة ؟ وحينئذ سيظلم جانب على حساب الآخر (١) .

جنايـة الاختـلاط :

لقد زاد الطين بلة فتح باب الاختلاط المطلق بين الجنسين ، وأعان على ذلك النظام الاجتماعي الغربي ودخول ذلك في صلب تقاليده وعاداته في المناسبات الرسمية والعائلية وعند إقامة حفلات الترفيه والزواج والأعياد ناهيك عن الجو الذي يتم فيه ذلك الاختلاط من ذهاب المرأة كاملة الزينة وتبادل كؤوس الخمر على أنغام الموسيقى والألحان كل ذلك يلعب بالقلوب ويغري بالفساد .

وأترك للقارىء الكريم أن يتصور النتائج والمخاطر من تيسر قضاء الشهوة وانحلال الرابطة الزوجية ، وعلى حد ما قال ول ديورانت : (غير أنه من المخجل أن نرضى فى سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الأباحية ، وهي تعرض علينا في المسارح وكتب الأدب المكشوف ، تلك التي تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية في الرجال والنساء المحرومين ، وهم في حمى الفوضى الصناعية من حمى الزواج ورعايته للصحة) (٢) .

---

(١) انظر مقال (طفولة مهشمة) فى مجلة العربى العدد رقم ١٩١ رمضان ١٣٩٤ أكتوبر ١٩٧٤ وكيف أن الاضطراب الذى حدث للمرأة نتيجة وضعها فى المجتمع الغربى جعل فريقا من النساء لا يصبرن على أطفالهن وصرن يخرجن عن طورهن بالاعتداء عليهم اعتداء يصل درجة الخطورة أو يسبب العاهات أو الاضطراب ، فقد وجد باحثون أمريكيون أن من بين كل ٧٤٩ طفل مصاب أن ١٠٪ منهم ماتوا نتيجة الضرب المتكرر ، وأن هذا من الحالات التى وصلت إليها المستشفيات الرسمية فما بالك بالحالات الأخرى التى لم تصل .

(٢) الإسلام ومشكلات الحضارة : ١٣٦ نقلا عن مباهج الفلسفة (ص ١١٧ - ١٢٨)

جناية استقلال المرأة اقتصاديا :

ثم يأتي استقلال المرأة الاقتصادي فيدفعها خارج البيت دفعا ويغريها بالاستقلال ، ويملؤها بغرور الغنى وعدم الحاجة ، ويجعلها غير مستعدة أن تتنازل عما وصلت إليه لتعود إلى بيت الزوجية أو رعاية الأطفال . وفي ذلك يقول ول ديورانت مبينا فساد ذلك النظام الاجتماعي الغربي : (وقد ترجع حرية سلوكها في بعض الأحيان إلى انعكاس حريتها الاقتصادية . فلم تعد تعتمد على الرجل في معاشها ، وقد لا يقبل الرجل على الزواج من امرأة برعت مثله في فنون الحب . فقدرتها على كسب دخل حسن هو الذي يجعل الزوج المنتظر مترددا . إذ كيف يمكن أن يكفي أجره المتواضع للإنفاق عليهما معا في مستواهما الحاضر من المعيشة ؟) [1] .

النتائج المرة للنظريات الثلاث :

١ - إهمال الفروق الجوهرية بين الرجل والمرأة ، فانتكست العلاقات بينهما وانحدرت إلى مستوى بهيمي لا يليق بالإنسان وكرامته .

٢ - انعكس ذلك على الأجيال الناشئة ، فنشأ كثير منهم محروما من الرعاية الأسرية الحانية مما كان له الأثر البعيد في جفاف الرابطة الأسرية وانحلالها ومن وجود روح النقمة وعدم التقدير للمجتمع برمته .

٣ - فقدان الأمن النفسي لدى كل من الرجل والمرأة ، فَقَدْ فَقَدَ الرجل البيت الحاني الذي يأوى إليه والقلب الرحيم الذي يخفف متاعبه ، والعقل الهادىء الذي يبادله الرأي ووقعت المرأة في صراع بين متطلبات العمل والجهد الذي يأخذه ، وبين الميل الفطري والعاطفي والنفسي الذي يشدها إلى بيتها ووليدها ، وبين مغريات الترفيه الاجتماعي والذهاب إلى المنتديات والحفلات .

---

(١) المصدر السابق ١٣٨

٤ – وقد سبب الاختلاط المطلق وفرص الترفيه العابث وحرية الفرد اللا أخلاقية والنظرة إلى الغريزة على أنها متعة فقط ، نضوب الحياء وفقدان العفة وانهيار الضوابط الخلقية والمسلكية ، فكانت الفوضى والانحلال والضياع .

٥ – ولما كانت هذه النتائج كلها جاءت بسبب النظرة المادية والنفعية للحياة وضروب النشاط فيها ، واختفاء نور الهداية العليا من النفوس ، وانعدام المقاييس والموازين التي توزن بها الأعمال والأخلاق أصبحت الأسرة هناك خلواً من روح يربط بينها وأصبحت علاقة الرجل بالمرأة علاقة مصالح ونزوات ، وتضاءل وانتهى ذلك الرباط القدسي الكريم .

وخلاصة الرأي في المرأة الغربية أنها مع بلوغها شأوا طيبا في المعرفة والمهارة الاجتماعية والتربوية ودخولها ميادين متعددة إلا أن الاعتداء على قوانين الفطرة والتي أسلفت بيانها أوصلها إلى حالة من المسخ أفقدتها وأفقدت المجتمع أعز ما خلقت له وهو الزوجية الكريمة والأمومة الحانية والطفولة الصالحة وَلِمَ تَكُن هي بدعا ؟ أليست جزءاً من إطار حضاري مادي مظلم ؟ وصدق الله : ﴿ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾

المرأة في نظر الإســـلام :

قلنا في المقدمة عند الحديث عن خصائص المنهج الإسلامي : إنه يتسم بالشمول والكمال ويبتعد عن الجزئية في النظرة إلى الحياة والمخلوقات كما يهتم بالإنسان باعتباره المخلوق المميز الذي وقع عليه عبء الخلافة في هذه الأرض . ومن هذين الاعتبارين : الشمول والاستخلاف تأخذ المرأة مكانها باعتبارها شريكا للرجل في مهمة الخلافة ، إذ لا يقوم العمران وتمتد الحياة إلا بهما متعاونين متكاملين وما أجمل خطاب القرآن في ذلك إذ يقول : ﴿ يَا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً

وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (١) . ومن هنا خلقت من آدم وقطعت معه رحلة الابتلاء والصراع مع الشيطان ، وتحملت معه المسؤولية كاملة في حالتي الاقتراف والمتاب ، ومضت سنة الله عز وجل على تحملهما المسؤولية كل حسب خصائصه وقدراته .

وإذا كانت الحضارات الأخرى التي أسلفنا القول عنها أجحفت في حق المرأة وحادت عن جادة الحق والإنصاف في النظرة إليها . فالإسلام جاء يخلص المرأة من الأغلال التي قيدتها والتفريط الذي مسخها ، والإجحاف الذي نزل بها . وصدق الله : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٢) .

وأول ما يطالعنا به الإسلام للمرأة ما يأتي :

١ – إبطال النظرة الجاهلية برمتها والتشنيع عليها واجتثاث آثارها من الناحية النفسية والعملية وإبطال كل ما ترتب على ذلك في أمور الزواج والطلاق والميراث ، والأمر باستقبال البنت والترحيب بها ، يقول الرسول الكريم ﷺ : « من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات ، أو بنتان أو أختان فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن – وفي رواية فأدبهن وأحسن إليهن وزوجهن – فله الجنة » (٣) .

٢ – اعتبار مسؤوليتها وتوجيه خطاب التكليف لها كالرجل سواء بسواء .

---

(١) النساء : ١ .
(٢) سورة الأعراف : ١٥٧ .
(٣) رواه أبو داود وابن حبان فى صحيحه والترمذى واللفظ له .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾(١)

والنفس تشمل الذكر والأنثى .

﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ (٢)

والإنسان يشمل الذكر والأنثى . ومن هنا أوجب الإسلام عليها – كما أوجب على الرجل – معرفة العقائد والعبادات ومعرفة الحلال والحرام في المأكل والمشرب وسائر التصرفات . « ولا نعرف بينها وبين الرجل فارقا دينيا في التكليف وأهليته سوى أن التكليف يلحقها قبل أن يلحق الرجل ، وذلك لوصولها بطبيعتها إلى مناط التكليف وهو البلوغ قبل أن يصل الرجل إليه .

نعم رفع الإسلام عنها الإلزام ببعض التكاليف ، لا لأنها غير أهل لها ولو فعلتها لم تقبل منها ولم تثب عليها ، ولكن أبيح لها تركها تخفيفاً عنها ، وترخيصاً لها ، وبعداً بها عن مزاحمة الرجال ، وتفريغاً لها في خدمة البيت والإشراف عليه ، ورعاية الأبناء . وذلك كما في صلاة الجمعة والجهاد ، ولو أنها آثرت حضور الصلاة الجامعة أو دخلت الصفوف المحاربة لما كان عليها من حرج في الدين » (٣) :

٣ – مطالبتها بالعلم والعمل « طلب العلم فريضة على كل مسلم » (٤) والمسلم يشمل الذكر والأنثى كما قال العلماء وقالت عائشة : « رحم الله نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء من التفقه في الدين » ولن يكون عمل صحيح إلا إذا انبنى على علم وفقه .

---

(١) المدثر : ٣٨ .

(٢) النجم : ٣٩ .

(٣) الإسلام عقيدة وشريعة : ٢٣٧ .

(٤) رواه ابن ماجة رقم (٢٢٤) وله طرق ، تبلغ به رتبة الحسن .

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ﴾ [(١)] . ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [(٢)] .

ووعدت بحسن الجزاء كما مر آنفا ، وجاء تقرير ذلك في معرض الهجرة والجهاد والابتلاء ليبين أنها قامت بدورها مع الرعيل الأول في تلك الميادين من أول يوم فيقول الله سبحانه :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ [(٣)] .

وليقف المتأمل عند التعبير الإلهي : ﴿ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ ليعرف كيف سما القرآن بالمرأة حتى جعلها بعضا من الرجل وكيف حد من طغيان الرجل فجعله بعضا من المرأة .

وقد حفظ لنا تاريخ الدعوة الأولى دور خديجة أم المؤمنين وسمية أول شهيدة في الإسلام وغيرهما .. وسجل القرآن بيعة النساء ، وقصة المهاجرات [(٤)] ، وخروجهن للغزو والجهاد . قال البخاري : (باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال) [(٥)] ، وروى عن إحدى الصحابيات قالت : « كنا نغزوا مع رسول الله ﷺ نسقى القوم ونخدمهم ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة .. » [(٦)] .

---

(١) محمد : ١٩ .

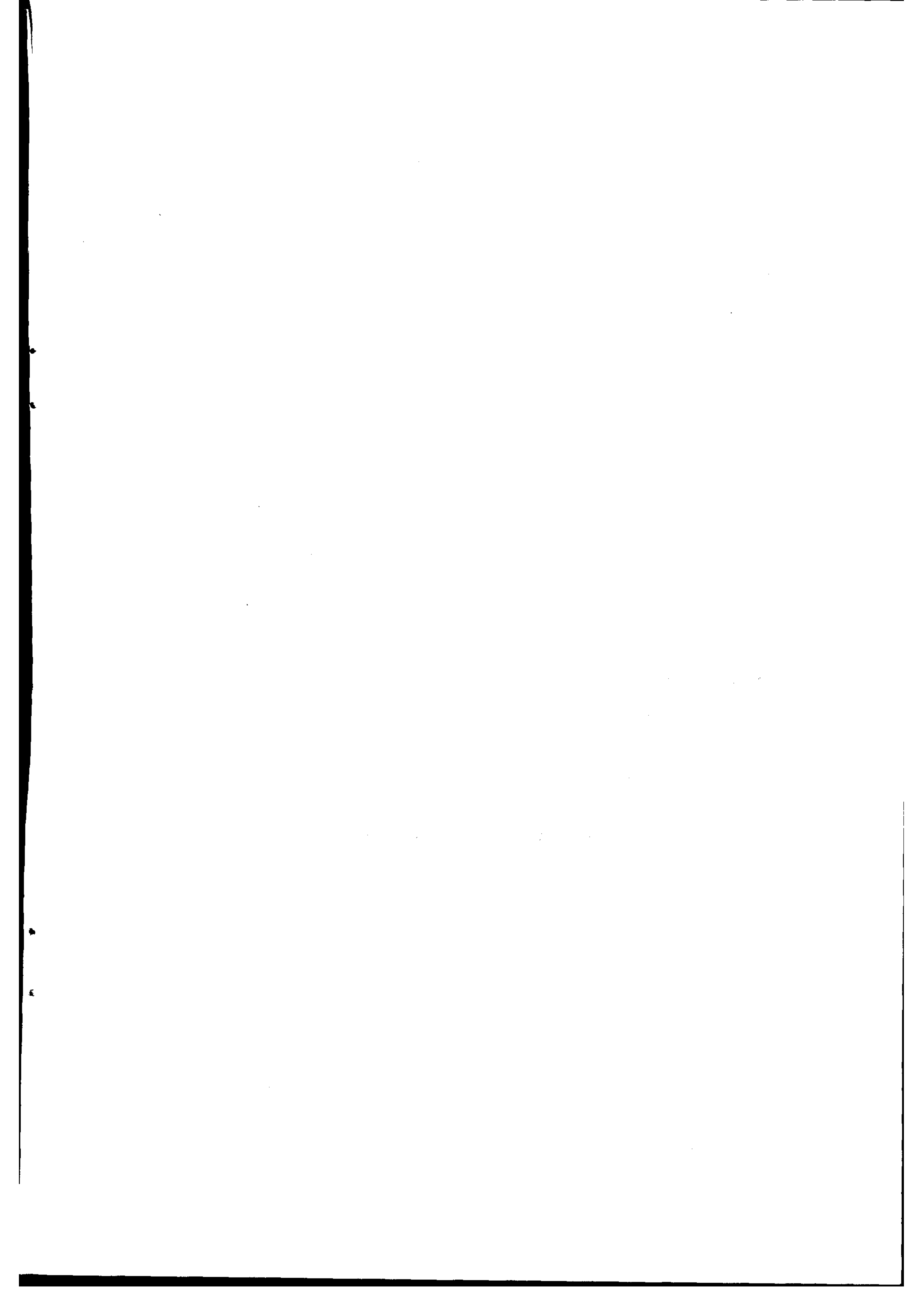
(٢) النحل : ٩٧ .

(٣) ال عمران : ١٩٥ .

(٤) الممتحنة : ١٠ ، ١٢ .

(٥) فتح البارى : ٦ – ٧٨ .

(٦) فتح البارى : ٦ – ٨٠ .



وليس من الإسلام أن تلقي المرأة حظها من تلك المسؤولية على الرجل وحده بحجة أنه أقدر منها عليه ، أو أنها ذات طابع لا يسمح لها أن تقوم بهذا الواجب ، فللرجل دائرته ، وللمرأة دائرتها ، والحياة لا تستقيم إلا بتكاتف النوعين فيما ينهض بأمتهما ، فإن تخاذلا أو تخاذل أحدهما انحرفت الحياة الجادة عن سبيلها المستقيم . فليعلم ذلك نساؤنا وليفقهن حكم الله فيهن » (١) .

وقد أمضى رسول الله أمان أم هانىء ، وقال : « أجرنا من أجرت يا أم هانىء » وأبدت عائشة أم المؤمنين رأيها في استخلاف أبيها للصلاة ، وأشارت أم سلمة على رسول الله في الحديبية بأن يحلق ، ونصحت المرأة عمر رضي الله عنه وهو على المنبر يخطب في مغالاة المهور ، وقال قولته المشهورة : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » .

٦ - أهليتها في التصرفات المالية والتجارية واحترام ملكيتها ، فلا يحق لأي إنسان بعد رشدها أن يأخذ مالها أو يجبرها على التصرف فيه بغير رضاها - يقول الله تعالى :

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ (٢) .

كما أن حقها خالص في صداقها ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً ﴾ (٣) ثم تقرير حقها في الميراث :

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً ﴾ (٤) .

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة : ٢٣٤ ، ٢٣٥ .
(٢) النساء : ٣٢ .
(٣) النساء : ٤ .
(٤) النساء : ٧ .

٧ - كرمها بنتا بتربيتها وتعليمها كما مر آنفا ، ثم كرمها زوجة فأوصى بها . قال ﷺ : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » . وكرمها أماً ، فكرر القرآن الوصاة بها بعد عبادة الله في أكثر من موضع ، وجعل الرسول الجنة تحت قدمها ، وقدمها على الأب في إحسان الصحبة ، ورخص في التخلف عن الجهاد للسعي عليها وعلى الأب ثم كرمها بوجه عام حين أمر بحفظ عرضها وصيانة حرماتها وحسن عشرتها في أكثر من آية وحديث وفي خطبته الجامعة في حجة الوداع والتي ستأتي في حقوق الزوجة على زوجها .

هذا هو الإطار الفاضل الذي وضعت فيه المرأة ، والذي جاء منسجما مع النظرة الإسلامية الشاملة لأهمية دورها في بناء المجتمع الإسلامي ومشاركتها في صنعه ، وقد تم ذلك عمليا خلال الفترات الحية في تاريخ الإسلام ، وبهذا يحق لنا أن نقول إن الإسلام هو المنهج الوحيد الذي أنصفها ووضعها في المكان العدل الذي تحقق به رسالتها ووجودها دون إفراط أو تفريط .

المرأة في مجتمعنا المعاصر :

ولعل قائلا يقول : إذا كانت هذه نظرة الإسلام للمرأة ، وهذه مكانتها ، وهذا دورها وتاريخها ومشاركتها في بناء مجتمعاتنا الزاهرة ، فأين هي اليوم ؟ وهو تساؤل في محله ، وإجابته تتضح في تصورنا لواقعنا الفكري والاجتماعي فالمرأة جزء من هذا الواقع ولا يمكن أن يشذ الجزء عن الكل ، فإذا كان واقعنا صحيحا حيا ينبض بالإيمان والقوة ، فلابد أن تكون المرأة صاحبة نصيب فيه وصورة منه ، وأما إذا كان مريضا متفسخا مقلدا تائها ، فلا عجب أن تظهر آثاره عليها وتنضح أدواؤه وعلله في محيطها ودائرتها ، ومما لا يختلف عليه اثنان أن واقعنا بشكل عام مريض وبخاصة واقعنا الفكري والاجتماعي .

لقد أصيب مجتمعنا في صميمه حين أفلت زمام القيادة منه وحين ضعف وتدهور ، فوقع فريسة للغزو الفكري والاجتماعي الغربي ، وكانت إحدى ميادين

الغزو الخطيرة التي نصبت فيه الشباك وسلطت عليه السهام هو الجانب الاجتماعي وأعان على ذلك عدة عوامل :

١ - انحطاط المجتمع الإسلامي ووصوله إلى درجة الجهل والتقليد وظهور ذلك بأجلى صورة في تخلف المرأة وعدم العناية بتعليمها ، وتربيتها حتى أصبحت نفسيتها فارغة خالية من قيم الإسلام . ومن هنا سهل غزوها والتأثير عليها . وكما قيل : المغلوب مفطور على تقليد الغالب ، ومن لم يشغل نفسه بالحق شغلته بالباطل .

٢ - دخول الحضارة الغربية بلاد المسلمين فاتحة غازية مستعمرة موتورة من الإسلام وأهله ، فكانت خطتها كيف تخرج المسلمين من إسلامهم وكيف تخضعهم لطريقة الحياة الغربية حتى تظل لها السيطرة ، وكان معها الوسائل الحديثة المؤثرة من تعليم وصحافة وسينما وغير ذلك .

٣ - وكانت حاجة المسلمين للغرب شديدة في الجانب العسكري والعلمي .. فذهبت البعثات الأولى فنقلت من الغرب تقاليده وآدابه ، وعاد هؤلاء ينشرون التغريب . ونجد برهان ذلك في كتابات رفاعة الطهطاوي ، ثم قاسم أمين وطه حسين وغيرهم ، وجميعهم عاش في باريس ، وكانت درجة تأثرهم متفاوتة ، وافتتن قاسم أمين بالحياة هناك ، وخاض تجربة غرامية .. وعاد ليدعو المرأة إلى السفور ، وإن كان قد حاول أن يجعل ذلك في إطار الشريعة ..: إلا أن الدعوة جاءت في الوقت الذي كانت الصحافة المدعومة من الاستعمار الغربي تنشر الحفلات المختلطة ، وتصور بنات بعض الطبقات سافرات ، وتدعو النساء لأن يتعلمن ويقلدن الغربيات .

٤ - الجاليات الأجنبية وما تقوم به من نشاط اجتماعي موجه ومركز وخاصة لمن بيدهم مقاليد الأمور بغية التأثير فيهم ، وجذب عائلاتهم لتقليدهم ... مع وجود الداعي لذلك وهو تفوق المرأة الغربية في الجانب التربوي والاجتماعي وفراغ المرأة المسلمة وفقرها النفسي مما يدفعها إلى الإعجاب والمحاكاة كما أسلفت .

٥ - اهتمام الغرب بالطوائف المسيحية في الشرق الإسلامي ، وأخذ هذه الطوائف بأساليب الحياة الغربية ثم انتشار التعليم الحديث بينهم ، وقيام هذه الطوائف باجتذاب أبناء المسلمين لمدارسهم ، ثم تكوينهم الجمعيات النسائية ودعوة المرأة المسلمة إليها واجتذابها بحجة الدعوة إلى مطالبها في الحرية والمساواة والاختلاط على نحو ما حدث في الغرب .

وإن دراسة جادة للجمعيات النسائية التي تكونت في الشرق الإسلامي ستضع أصابعنا على أشياء كثيرة ، وستبين الصلة الوثيقة في البداية بين التبشير والطائفية من جهة وبينهما وبين التأثير على المرأة المسلمة من جهة أخرى . وأقول : إن هذا كان في البداية ، أما بعد تخرج أجيال من أبناء وبنات المسلمين في المدارس الأجنبية ، فقد قمن المتخرجات المتأثرات بواجبهن وقدن الدعوة إلى التغريب ؟..

المرأة المسلمة بين طريقين :

وهكذا فإن المرأة المسلمة - وهي تواجه هذه الغزوة الخطيرة - عليها أن تختار بين طريقين :

١ - طريق التغريب القائم على المادية والمتعة والذي جعل منها أداة للتسلية والفتنة فأذهب حشمتها وعفتها وعرى جسدها ، وفرّغ نفسيتها من الوازع الإيماني والأخلاقي ، ووضع زمامها في يد أصحاب الأهواء والشهوات ، ورجع بها إلى الجاهلية الأولى وهي إن تولت ذلك الطريق - بعد أن تعرت هذه الحضارة في ذلك الجانب وظهر بلاؤها وخبثها - فقد مسخت شخصيتها وكفرت بنعمة الله عليها وأحلت قومها دار البوار .

٢ - طريق الإسلام وهو الطريق الذي غذيت به طفلة ونشأت عليه يافعة وارتبطت به تاريخاً وحضارة ومصيرا . وقبل ذلك وبعده هو الحق الذي يوافق الفطرة ويزكيها ويسعدها . إن مسؤوليتها ثقيلة وليست سهلة ولا بسيطة

ذلك أن حضارة أخرى وفلسفة أخرى على النقيض في الروح والاتجاه والأخلاق قد حلت بواديها وأجلبت بخيلها ورجلها وأزيائها وصحافتها وإعلامها ودخلت إلى الصميم في قلوب كثير من المنتسبين إلى الإسلام وأمته ، ولكن مما يسهل الأمر وييسره على المرأة المسلمة أصالة الإسلام وحيويته وارتباط الفطرة به وقدرته على الإمداد من جهة ، وإفلاس الحضارة الغربية وانهيارها من جهة أخرى ، والسؤال الآن كيف تواجه المرأة المسلمة هذا التحدي الذي يواجهها في عقر دارها ؟

وقبل أن نسارع إلى الإجابة لابد أن نبين أن هذا التحدي ليس قاصراً عليها وحدها ، وإنما هو موجه إلى المجتمع كله برجاله وشبابه بعلمائه ومفكريه ولابد لهم أن يضعوا جهودهم معها ويبذلوا فكرهم في حل المشكلات التي تواجهها .

مقومات النهضـــة :

إن كيفية المواجهة تحتاج :

١ - أن يعاد بناء المرأة المسلمة وفق الأصول الإسلامية الصحيحة وتتربى على ذلك ، ولابد أن ندرك أن ذلك يحتاج وقتاً وجهداً وممارسة وعملا وتدرجا ، فما وجد أحد حلاوة الإيمان إلا بتذوقه ، وما أدرك إنسان نفاسة الشيء وتقديره إلا بفهمه ، فمن جهل شيئاً عاداه وفاقد الشيء لا يعطيه .

٢ - أن تتكون لديها عن طريق هذا الفهم وتلك الممارسة القدرة على فحص الأفكار ونقدها ووزنها بميزان الإسلام فتستطيع أن تختار النافع وتتجنب الضار فلا تصبح محلاً للاستهواء الرخيص كما هو حادث الآن في المجلات النسائية ، ولا للتقليد الهدام المدمر كالعبث الذي يقوم به مصممو الموديلات وبيوت الأزياء .

٣ - أن تعان من قبل المفكرين والعلماء المسلمين على إيجاد تيار إصلاحي تقوم فيه المرأة المسلمة بدور متميز يوافق خصائصها ويخدم دينها ويقدم البديل عن

تيار التغريب في مجالات تربية الطفل وتنظيم البيت وتنمية المجتمع وما يغطي ذلك من كتب نافعة ومجلات متخصصة .

ففي ضوء هذه الأمور الثلاثة الموجزة كل الإيجاز التي تحتاج كثيراً من التفصيل يمكن أن تواجه المرأة المسلمة التحدي فتنقذ نفسها ومجتمعها وتهدي غيرها .

وقد رأينا بحمد الله بوادر هذه اليقظة في طالبات جامعة الإسكندرية والمنصورة [١] اللائي ميزن بنظرتهن الثاقبة وبفطنتهن الإيمانية الواعية الفرق الكبير بين تلقي العلم والسعي للارتواء من معينه مع الحفاظ على إسلامهن وحشمتهن وأخلاقهن ، وبين الميوعة والتحلل التي تأتيهن ملفوفة بدعوى الحضارة والتقدمية وارتباط ذلك بهدم الأمة وتفتيتها وجعلها فريسة سهلة للصهيونية الماكرة والغزوة الغربية المدمرة .

* * *

(١) انظر مجلة « آخر ساعة » العدد ١٩٦٢ بتاريخ ٣١/٥/١٩٧٢ وفيه أن أكثر من ٥٠٠ فتاة يلبسون الزى الشرعى .

الفصل الرابع

المرأة وَالحِجَاب

أصل القضية وأساسها :

من قضايا المرأة المسلمة التي يتكرر فيها القول قضية الحجاب وما يتفرع عليه من كيفية ثيابها وهندامها ، ومن الذين يجوز لها أن تبدي زينتها أمامهم ، وما الثياب التي تباشر بها الحياة العامة ، وما الصورة الصحيحة التي تشارك فيها المرأة في وظائف المجتمع وما الذي يناسبها من هذه الوظائف ؟ إن هذه القضايا كلها تنبع من أصل واحد وهو النظرة إلى المرأة وماذا نريد منها ؟ فإذا وضح ذلك الأمر في نفوسنا وجدنا الأمور كلها أخذت حدودها السليمة ووضعت في إطارها الصحيح .

فالمجتمع الغربي يجعل العلاقة بين المرأة والرجل علاقة متعة وإشباع رغبة ، لذلك أصبح جمال المرأة وإبراز مفاتنها غير مقيد بالجوانب الأخلاقية والضوابط السلوكية ، ومن ثم يجيء الزي والملبس مبرزاً ومظهراً لذلك الاتجاه ، ويكون إبداء الزينة وإظهار المفاتن والاختلاط المطلق متمماً ومكملاً لما قصده الغربيون ، ولما بنوا حياتهم على أساسه ، بينما المجتمع الإسلامي ينظر للمرأة على أساس الدور الذي تقوم به مشاركة لأخيها الرجل وقدسية هذا الدور وأهميته في بناء المجتمع ، وأنه يرتكز أساساً على الجانب العقيدي والخلقي ومنهج الحياة التي ينبغي أن تتبناه وفق ذلك ، ومن هنا يكون زيها وهندامها انعكاساً وترجماناً للأخلاق والقيم

الفاضلة التي آمنت بها [1] ، ويتبع ذلك إبداء الزينة ومجالات الاختلاط والعمل والأسلوب الصحيح لممارستهم .

عبرة الوحي والتاريخ :

وقد قص الله علينا قصة أبوينا آدم وحواء ، حين أغراهما الشيطان بالأكل من الشجرة المحرمة فبدت لهما سوآتهما ، فألهما قطف ورق الجنة ليسترا عورتيهما [2] فكان ذلك أول إلهام من الفطرة في أن العورة يجب سترها ويستحيى من إبدائها ، بل ويستقذر إظهارها ، وأنهما حالما نزلا على الأرض اتخذا اللباس والزينة ، وظل اتخاذ اللباس الساتر والهندام الجميل دليل التحضر والاحتشام والعفاف ، وعلى العكس من ذلك كان العري والتخفف من اللباس وإبداء العورات دليل الحياة الابتدائية ، وذلك واضح في حياة القبائل الهمجية وهو أيضاً دليل الانحدار والانحطاط في الحضارات السالفة ونذير الفناء والضياع ، وقد حدث هذا في حياة اليونان حين أصبحت المومسات لهن مكانتهن في المجتمع ، وأصبحت بيوتهن قبلة لسائر طبقات المجتمع مما حملهم أن يتفننوا في صنع التماثيل العارية للمرأة مما أوقد فيهم الغرائز البهيمية . ولم يخطر ببالهم أن الاستسلام للشهوات شيء ذميم في قانون الشهوات وتبدلت مقاييس الأخلاق عندهم إلى حد جعل كبار فلاسفتهم وعلماء أخلاقهم لا يرون في الزنى غضاضة يعاب عليه

---

(١) يقول الأستاذ مالك بن نبى رحمه الله تحت عنوان : « الملابس تعبير عن قيم » : « إن تطور الملابس فى المجتمع الغربى قد انطلق من نقطة معينة هو إبراز جمال المرأة فى الشارع بكل ما يمكن أن يوضح مظهرها ، بينما نجد أن تطور الملابس فى المجتمع الإسلامى قد اتخذ اتجاهاً مخالفاً تمام الاختلاف ... ثم قال وعندما تظهر المرأة المسلمة « بالبكينى » على البلاج العمومى ، فإن هذا لا يعنى أن المجتمع الإسلامى قد غير ملبسه بل إنه قد بدأ يغير إتجاهه الأصيل مستعيرا دوافع التعبير من مجتمع أخر دون أن يشعر ؟ .. » ص ١٤١ ، شروط النهضة الطبعة الثانية ١٩٦١ – مطبعة المدنى بالقاهرة .

(٢) ﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووری عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾ . [الأعراف : ٢٠ – ٢٢]

قال : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُم عِنْدَ كِلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١) (*) .

إن لباس التقوى الذي أكدته الآية ونعتته بالخير وأنه من آيات الله يشير إلى أهمية الإيمان ودوره وما يغرسه في النفس من تقوى الله وخشيته وأن به تتحقق في الفرد أخلاق العفة والحياء والطهر فيكون ما يلبس مصدقا لما وقر في قلبه ، ولله در الطبري حين علق على هذه الآية بعد أن أورد الأقوال فيها قائلا : « وأولى الأقوال بالصحة في تأويل قوله ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ﴾ استشعار النفوس تقوى الله في الانتهاء عما نهى الله عنه من معاصيه والعمل بما أمر به من طاعته ، وذلك يجمع الإيمان والعمل الصالح والحياء وخشية الله ، والسمت الحسن ، لأن من اتقى الله كان به مؤمنا ، وبما أمر به عاملا ، ومنه خائفاً ، وله مراقبا ، ومن أن يرى عندما يكرهه من عباده مستحيياً ، ومن كان كذلك ظهرت آثار الخير فيه ، فحسن سمته وهديه ، ورئيت عليه بهجة الإيمان ونوره » (٢) .

وصدق القائل :

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى ... تقلب عرياناً وإن كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ... ولا خير فيمن كان لله عاصيا

---

(١) الأعراف : الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٣١ .

(*) فى صحيح مسلم عن ابن عباس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت وهى عريانة وتقول : من يعيرنى تطوافاً ؟ تجعله على فرجها وتقول : « اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله » ، فنزلت هذه الآية : ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ . وفى حديث آخر رواه مسلم « كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس ، والحمس قريش وما ولدت ، كانوا يطوفون بالبيت عراة إلا أن تعطيهم الحمس ثيابا . فكانوا على تلك الجهالة والبدعة والضلالة حتى بعث الله نبيه محمداً ﷺ فأنزل الله : ﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم ﴾ وأذن مؤذن رسول الله ﷺ : « ألا لا يطوف بالبيت عريان » . انظر القرطبى ٧ : ١٨٩ .

(٢) الطبرى : ١٢ ، ٣٧١ .

وكانت العرب تكني عن الفضل والعفاف بالثياب كما قال شاعرهم : (ثياب بني عوف طهارى نقية) (١) .

٢ - الانحراف الثاني : التبرج :

قال الله تعالى مخاطباً أزواج النبي ﷺ ونساء المؤمنين تبعاً لهن :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ (٢) .

وقد ورد لفظ التبرج مقرونا بالزينة في قوله تعالى بشأن القواعد (العجائز) :

﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَإِنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .

قال القرطبي : التبرج : التكشف والظهور للعيون ، ومنه بروج مشيدة ، وبروج السماء والأسوار ، أي لا حائل دونها يسترها (٤) .

واختلف الناس في الجاهلية الأولى : قيل كانت فيما بين نوح وإدريس أو فيما بين آدم ونوح ، أو في الزمن الذي ولد فيه إبراهيم . قال مجاهد : كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال وقال قتادة : إذا خرجتن من بيوتكن ، وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج (٥) .. وقال غيرهما : إن المرأة كانت تلبس الدرع من اللؤلؤ

---

(١) القرطبي : ١٢ ، ٣١١ .
(٢) الأحزاب : ٣٣ .
(٣) النور : ٦٠ .
(٤) القرطبي : ١٢ ، ٣٠٩ .
(٥) ابن كثير : ٥ ، ٤٥٢ .

غير مخيط الجانبين . وتلبس الثياب الرقاق ولا تواري بدنها . قال أبو العباس المبرد : والجاهلية الأولى كما تقول الجاهلية الجهلاء قال : وكان النساء في الجاهلية الجهلاء يظهرن ما يقبح إظهاره حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخلها ، فينفرد خلها بما فوق الإزار إلى الأعلى وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى الأسفل ، وربما سأل أحدهما صاحبه البدل .

وقال ابن عطية : والذي يظهر عندي أنه أشار إلى الجاهلية التي لحقنها فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها ، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة وجعلها أولى بالنسبة إلى ما كن عليه وليس المعنى أن ثم جاهلية أخرى . وقد أوقع اسم الجاهلية على تلك المدة التي قبل الإسلام ، فقالوا : جاهلي في الشعراء . وقال ابن عباس في البخاري : سمعت أبي في الجاهلية يقول إلى غير هذا .

قال القرطبي تعقيباً على ذلك : إن المقصود من الآية مخالفة من قبلهن من المشية على تغنيج وتكسير وإظهار المحاسن للرجال إلى غير ذلك مما لا يجوز شرعاً وذلك يشمل الأقوال كلها ويعمها فيلزمن البيوت فإن مست الحاجة إلى الخروج فليكن على تبذّل « ترك الزينة » وتستر تام والله الموفق (١) .

وقد ورد في السنة ما يحذر من التبرج ، وما يعتبر دليلاً من دلائل النبوة ، إذ أخبر ﷺ بصفة هيئة بعض النساء كأنه يراهن في الوقت الحاضر ، ففي الصحيح عن أبي هريرة يقول الرسول ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » (٢) .

---

(١) القرطبي : ١٤ ، ١٨٠ .
(٢) المصدر السابق : ١٢ ، ٣٠٩ .

٣ - تحريم الخلوة بأجنبي :

وإذا وضح لنا تحريم الإسلام للتبرج وأمره باللباس الساتر أدركنا أنه يريد أن يسد أبواب الفساد ويحفظ على المرأة عفتها وكرامتها وعلى المجتمع طهره ونظافته ويقي أجياله الناشئة شر التحلل والفساد ، ويمضي خطوة أخرى فيحرم خلوة المرأة بأجنبي عنها إلا إذا كان معها محرم لها ... كما يحدث عند الحاجة إلى الطبيب أو غيره فتذهب إليه مع زوجها أو أخيها أو أحد محارمها .. يقول الرسول ﷺ : « لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما » .. والإسلام بهذه الأمور الثلاثة : اللباس الساتر ، وتحريم التبرج ، والخلوة ، مع بذل الجهد الأساسي في غرس تقوى الله وخشيته في نفسية الفرد رجلاً وامرأة وقيام المجتمع ووسائل تثقيفه على تنمية ذلك والعناية به وإعطاء الفتاة المسلمة حقها الكامل في التربية والتعليم المتكاملين ، أقول بهذه الأمور يكون قد وضع المرأة في مكانها اللائق والمناسب ووقاها شر الفساد والانحراف .

التبرج وإتاحة الخلوة بابان من أبواب الفساد :

وأظننا لسنا في حاجة إلى بيان أن التبرج وإتاحة الخلوة قد فتحا كثيرا من أبواب الشر والفساد ، وقد أعان على ذلك التقليد الأعمى لنظام التوظيف الغربي بالنسبة للمرأة وفتح باب الأعمال لها فيما يناسبها ولا يناسبها ، وقبولها الأعمال التي تجعلها في حاجة للخضوع لغيرها كأعمال السكرتارية الخاصة وما يجري مجراها ، ثم ما تعكسه الصحافة الرخيصة من محاكاة للحياة الغربية في هذا الجانب وما تروج له من أدب الجنس ، ومسابقات الجمال وعبث مصصمي الأزياء كل ذلك وغيره جعل المرأة معرضة للتأثر بهذا التيار الخادع ، ولا يمكن لها مقاومته إلا بأن تعي رسالتها وتفهم دينها وتكشف الزيف والخداع الذي ينطوي عليه التيار الآخر ، وحينذاك تثق في نفسها وخلقها وتقود تيار الإيمان والطهر والإصلاح .

زينة المرأة المسلمة وحدودها :

بينا فيما سبق أن الإسلام يعتبر اللباس انعكاساً للقيم والأخلاق الفاضلة التي يؤمن بها المجتمع المسلم ، ورأينا كيف أن أبوينا آدم وحواء عبرا عن الفطرة الخيرة التي أودعها الله في آدم وذريته حينما سترا نفسيهما عندما بدت لهما سوآتهما ، وأن الله تبارك وتعالى امتن علينا معشر بني آدم باللباس نستر به أجسادنا ، وطلب إلينا أن يتعاون لباس التقوى من الإيمان والعفة والحياء والطهر مع اللباس الظاهر الذي يستر أجسادنا في أن نكون صورة حية للتكريم الذي كرمنا الله به :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

وقد جاء تحريم الإسلام لتبرج المرأة وإظهار مفاتنها - ووصفه أنه من تبرج الجاهلية الأولى - تدعيما لمكارم الأخلاق التي جاء لإتمامها وسداً لأبواب الفساد التي يفتحها ، وتنفيذاً لهدفه الأصيل من إقامة حياة اجتماعية نظيفة تنمو فيها الأخلاق الفاضلة وتتحقق فيها الحياة السعيدة الطيبة .

ومن هنا اهتم الإسلام بزي المرأة وهندامها وأوجب أن يكون بعيدا عن الإغراء والفتنة معبرا عما يدعو إليه وينشده ، على أن الإسلام لا يعتني بالظاهر ويترك الباطن ، كما لا يشدد في ملابس الخروج ويحرم المرأة حقها في إبداء زينتها أمام زوجها وفي داخل بيتها كلا ، إنه يهتم أولا بأن يستقر الإيمان وشعائره بين الجوانح والقلوب ، وهذا ما عناه القرآن الكريم بقوله : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ ثم يتيح لها بحبوحة الزوجية الكريمة تبدي فيها زينتها لزوجها ما تشاء من

---

(١) الأعراف : ٢٦ - ٢٧ .

غير حرج ولا تضييق فإذا خرجت عن دائرة بيتها ومحارمها طالبها أن تخرج مستترة محتشمة فهذه درجات ثلاث تكون فيها المرأة من حيث اللباس .. الأولى : بينها وبين زوجها فيما تلبسه فإن ذلك خالص حقهما . والثانية : لمحارمها وأقاربها القريبين والنساء المسلمات وهو جواز إبداء الزينة الظاهرة لهم . والثالثة : وهو ما تقصد به كلمة الحجاب وهي الثياب التي للخروج والتي تباشر بها الحياة العامة وتلقى بها الناس وشرطها :

(أ) أن يكون الثوب ساتراً لجميع البدن .

(ب) أن يكون واسعاً غير ضيق ولا محدد للجسم .

(ج) أن يكون صفيقاً لا رقيقاً .

(د) وألا يكون ثوب زينة ولا مطيباً ولا مبخراً .

والأصل في ذلك آيتا النور والأحزاب وأحاديث نبوية وردت تتميما وشرحا لهما ، قال الله تعالى :

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ ما ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أو آبائهنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أو بني إخوانهن أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَىٰ اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [1] .

وقد بينت الآية في صدرها الأمرين الرئيسيين اللذين يجب الحرص عليهما وهما : الأول : غض البصر بريد النفس والقلب ومن هنا نهينا عن اتباع النظرة ، فإن لنا الأولى وعلينا الثانية ، والثاني : حفظ الفرج ، والإسلام يؤمن بالوقاية ويهتم

(١) النور : ٣١ .

بسد الذرائع ودرء المفاسد ثم أتبعت الآية ذلك بأمر ثالث ، وهو النهى عن إبداء الزينة عموماً لما فيه من الإغراء للنظر وجذب الانتباه واستثنت من ذلك ما يظهر بحكم الضرورة . نقل القرطبي في تفسيره عن ابن عطية قال : « ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بألا تبدي وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لابد منه أو إصلاح شأن ونحو ذلك ، فـ « ما ظهر » على هذا الوجه مما تؤدي إليه الضرورة في النساء فهو المعفو عنه » [1] .

وقوله تعالى :

﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ .

الخُمُرُ : جمع خِمَار وهو ما يغطى به الرأس . والجيوب : جمع الجيب وهو موضع القطع من الدرع والقميص ، وهو من الجوب وهو القطع فأمر تعالى بليّ الخمار على العنق والصدر فدل على وجوب سترهما ، وهيأة ذلك أن تضرب المرأة بخمارها على جيبها لتستر صدرها روى البخاري عن عائشة أنها قالت : « رحم الله نساء المهاجرات الأول لما نزل : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ شققن أزرهن فاختمرن بها » [2] .

ثم إن الله تعالى بعد أن بين في الآية السابقة – آية النور – ما يجب على المرأة أن تخفي من زينتها أمام الأجانب ، ومن يجوز أن تظهر أمامهم ، أمرها في آية الأحزاب إذا خرجت من دارها أن تلتحف فوق ثيابها بالجلباب أو الملاءة لأنه أستر لها وأشرف لسيرتها . قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ ، وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ [3] .

---

(1) تفسير القرطبي : ١٢ ، ٢٢٩ .

(2) المصدر السابق : ١٢ ، ٢٣٠ .

(3) الأحزاب : ٥٩ .

والجلباب : هو الملاءة التي تلتحف به المرأة فوق ثيابها على أصح الأقوال . وقال ابن كثير : « هو الرداء فوق الخمار ، وهو بمنزلة الإزار » .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلاليب ويبدين عينا واحدة ، وقال محمد بن سيرين سألت عبيدة السلماني عن قول الله عز وجل :

﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ .

فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى ، وقال عكرمة : تغطي ثغرة نحرها بجلبابها تدنيه عليه [1] ويدل على ذلك ما روته أم عطية قالت : « أمرنا رسول الله أن نخرج في الفطر والأضحى العواتق – جمع عاتق وهي الشابة – والحيض وذوات الخدور فأما الحيض فيعتزلن الصلاة ويشهدن الخير ودعوة المسلمين . قلت : يا رسول الله إحدانا لا يكون لها جلباب ؟ قال : لتلبسها أختها من جلبابها »[2]

وروى مالك عن عبد الله بن عمر أنه كان يقول : « لا تنتقب المرأة المحرمة ولا تلبس القفازين » [3] ، وهذا صريح في الدلالة على أن النساء في عهد النبي كن قد تعودن الانتقاب ولبس القفازين فنهين عنه في الإحرام ، ولم يكن المقصود أن تعرض الوجوه في موسم الحج بل كان المقصود ألا يكون القناع جزءاً من هيئة الإحرام المتواضعة [4] ، فقد ورد في الأحاديث الأخرى تصريح بأن أزواج النبي ﷺ وعامة المسلمات كن يسدلن الجلباب على وجوههن عند مرور الركبان عن عائشة قالت : « كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات ، فإذا

---

(١) تفسير ابن كثير : ٥/٥١٦ .

(٢) البخاري ومسلم .

(٣) الموطأ : باب الحج : ١٤٦ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة .

(٤) الحجاب : ٣٠٣ .

جاوزوا بنا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها ، فإذا جاوزونا كشفناه » [1] .

ويرى فريق آخر من العلماء منهم ابن حزم : أن على المرأة أن تستر جميع بدنها ما عدا وجهها وكفيها مستدلين بأن الأمر بستر الوجه لم تتضمنه آية « النور » التي أمرت بلي الخمار على العنق والصدر في قوله تعالى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ .

وكذلك لم تنص عليه آية الأحزاب في قوله تعالى : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ قال ابن حزم : في آية النور من أمرهن تعالى بالضرب بالخمار على الجيوب وهذا نص على ستر العورة والعنق والصدر ، وفيه نص على إباحة كشف الوجه ولا يمكن غير ذلك [2] وقال في آية الأحزاب : والجلباب في لغة العرب التى خاطبنا بها رسول الله : هو ما غطى جميع الجسم [3] .

وعقب القرطبي في تفسيره على آية النور فقال : إنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادة وعبادة وذلك في الصلاة والحج فيصلح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ [4] .

ثم استدل بالحديث الذي رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها : أن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها رسول الله ﷺ وقال لها : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وأشار إلى وجهه وكفيه » .

---

(١) أبو داود – باب في المحرمة تغطي وجهها .
(٢) المحلى : ٣ – ٢١٦ – ٢١٧ .
(٣) المصدر السابق : ٣١٧ .
(٤) تفسير القرطبي : ١٢ – ٢٢٩ .

وممن أيد هذا الرأي من العلماء المعاصرين الشيخ ناصر الدين الألباني محدث الديار الشامية في كتابه (حجاب المرأة المسلمة) معلقا على آية سورة الأحزاب التي فيها الأمر بإدناء الجلباب بقوله : « هذا ولا دلالة في الآية على أن وجه المرأة عورة يجب عليها ستره بل غاية ما فيها الأمر بإدناء الجلباب عليها ، وهذا كما ترى أمر مطلق فيحتمل أن يكون الإدناء على الزينة ومواضعها التي لا يجوز لها إظهارها حسبما صرحت به الآية الأولى (سورة النور) وحينئذ تنتفي الدلالة المذكورة ويحتمل أن يكون أعم من ذلك فعليه يشمل الوجه . وقد ذهب إلى كل من التأويلين جماعة من العلماء المتقدمين ، وساق أقوالهم في ذلك ابن جرير في تفسيره ، والسيوطي في (الدر المنثور) ثم قال : ونحن نرى أن وجه المرأة ليس بعورة وهو أشبه بالصواب لأمور :

الأول : أن القرآن يفسر بعضه بعضا ، وقد تبين من آية النور المتقدمة أن الوجه لا يجب ستره فوجب تقييد الإدناء هنا بما عدا الوجه توفيقا بين الآيتين .

الآخر : أن السنة تبين القرآن فتخصص عمومه وتقيد مطلقه وقد دلت النصوص الكثيرة منها على أن الوجه لا يجب ستره ، فوجب تفسير هذه الآية على ضوئها وتقيدها بها ، فثبت أن الوجه ليس بعورة يجب ستره وهو مذهب أكثر العلماء كما قال ابن رشد في البداية ١ / ٨٩ ومنهم أبو حنيفة ومالك والشافعي وعن أحمد كما في المجموع ٣ / ١٦٩ وحكاه الطحاوي في شرح المعاني ٢ / ٩ عن صاحبي أبي حنيفة أيضا وجزم في المهمات من كتب الشافعية أنه الصواب كما ذكر الشيخ الشربيني في الإقناع ٢ / ١١٠ لكن ينبغي تقييد هذا بما إذا لم يكن على الوجه وكذا الكفين شيء من الزينة لعموم قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾

وإلا وجب ستر ذلك لا سيما في هذا العصر الذي تفنن فيه النساء بتزيين وجوههن وأيديهن بأنواع من الزينة والأصبغة مما لا يشك مسلم بل عاقل ذو غيرة في تحريمه [١] .

---

(١) حجاب المرأة المسلمة : ٤٠ ـ ٤٢ منشورات المكتب الإسلامي .

ويرجح أصحاب الرأي الأول رأيهم بما رأيت من تفسير الصحابة لآية الأحزاب وبما كان عليه العمل في آخر عهد للنبي ﷺ ، وبالأحاديث التي وردت في الحج ، ويعلون حديث أبي داود الذي روته عائشة عن أسماء بالإرسال والانقطاع ويقولون إن أسماء كان لها حين الهجرة سبع وعشرون ويستبعدون عليها وهي في هذه السن الكبيرة أن تدخل على النبي بتلك الثياب (١) ويرون أن الإسلام يقوم على درء المفاسد وسد الذرائع وأنه جاء تتميما لمكارم الأخلاق وأن وجه المرأة دال على جمالها معبر عن حسنها فستره هو الواجب وعلى هذا الرأي المذهب الحنبلي (٢) ورأي شيخ الإسلام ابن تيمية (٣) وأما أصحاب الرأي الآخر مع تسليمهم بضعف حديث أبي داود إلا أنهم يوردون أحاديث أخرى تفيده وتؤيده .

وتحرير الخلاف بين الرأيين يتضح في حكم الوجه والكفين هل هما عورة فيجب سترهما وهذا رأي الفريق الأول ، أم أنهما ليسا بعورة فيظلان على الإباحة ويكون سترهما عند ذلك فضيلة ، خاصة عند انتشار حمى التقليد الأعمى في التبرج والسفور وما ينتج عنهما من مفاسد ومخاطر والله أعلم .

* * *

---

(١) رسالة الحجاب للشيخ محمد بن صالح بن عيثمين : ٢٠ الطبعة الأولى ١٣٨٨ هـ مطابع القصيم

(٢) المغنى لابن قدامة : ٦ : ٥٠ وما بعدها .

(٣) الفتاوى .

البـابُ الثالـثُ

الفصل الأول : الزواج ومقدماته .

الفصـل الثاني : التعـدد .

الفصل الثالث : دعائم الحياة الزوجية .

الفصل الرابع : حقوق الأولاد وواجباتهم .

الفصل الخامس : المـيراث .

الفصل الأول

الزواج ومُقدِماته

الزواج في الإسلام :

أقام الله نظام الكون على الزوجية فقال :

﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

وشارك الإنسان الحيوان في هذا الجانب فقال الله :

﴿ فَاطِرُ السَمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِنْ أَنْفُسِكُم أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرؤُكُم فِيهِ ﴾ (٢) .

وبينت هذه الآية أن الغاية من الزواج التكاثر وبقاء الأنواع ، وقد تميز الإنسان عن الحيوان بعقله وفكره وروحه ، وأن الزواج يدعم فيه الأمن النفسي والاستقرار الروحي ويجلب له السعادة والسرور وذلك قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ (٣) ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُم أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتفكَّرُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) الذاريات : ٤٩ .

(٢) الشورى : ١١ .

(٣) الأعراف : ١٨٩ .

(٤) الروم : ٣١ .

فكان الزواج رابطة يتم بها سكن النوعين وقيام المودة والرحمة والحب بينهما ، وسبيلاً سليماً لتحقيق المتعة الجنسية واللذة الجسدية في جو من الطهر والكرامة ، فيكون منه بعون الله البذرة الصالحة التي تُتعهد وتُربى في هذا الجو الكريم الفاضل ، ومن هنا جاءت الآية الكريمة الأخرى تقول : ﴿ نِسَآؤُكُم حَرْثٌ لَكُمْ ﴾ [1] فكما أن الحارث لا ينتهي عمله بمجرد إلقاء البذر ، بل يكون من واجبه أن يسمده ويسقيه ويرعاه ويسهر عليه فكذلك مهمة الزوج .

إن الشهوة الجنسية في الإنسان أقوى منها في الحيوان ، وإنها لو تركت بغير ضابط كانت حرباً على الجماعة ، فهي تنزع إلى الأثرة والفردية والفوضى وليس لها ثبات ولا استقرار ، وهي لا تحرك المرء إلا للتمتع باللذة العارضة ، ولذا كان لابد من ضبط هذا النزوع والجموح ، وقد أسلفنا القول في المخاطر التي تنجم عن إطلاقها سواء على الصعيد الفردي والجماعي .

وقد هيأ الله الفطرة البشرية لهذا الانضباط فخلق في المرأة ميزة الجمال والصباحة وصفة الإمتاع والتسلية ، وملكة الإيثار والتضحية في سبيل الحب لكي تنتصر بهذه الأسلحة الفردية على الأنانية التي في الرجل فتسبي فؤاده وتمتلك عليه لبه ، ثم يأتي الولد فيجتذب العاطفة والحنان والحدب والرعاية ، فيقضي على البقية الباقية من الأنانية ويضفي على الأسرة جواً من الجماعية الهادفة ويجعل الزوجين في سعي متكامل لتنشئته أحسن نشأة وبذلك تمتد الزوجية وتعمق بالوالدية والبنوة ، وبذلك تكون الأسرة المحضن الهادىء الذي ينشأ فيه جيل المستقبل ، ويسقى فيه القيم الفاضلة ، ويربى فيه الوليد على الشعور بالمسؤولية طوراً بعد طور ، وبذلك تؤدي الزوجية دورها في حفظ شخصية الزوجين بعيداً عن الانحراف والنزوات وتصون إنسانيتهما عن البهيمية والفحشاء وترعى نبتهما في تربة الأسرة الكريمة بعيداً عن التشرد والفساد .

---

(١) البقرة : ٢٢٣ .

حكم الزواج :

يحض الإسلام على الزواج ويجعله واجبا على من قدر عليه ، وتاقت نفسه ، وخشي العنت ، ويستحب لمن كان تائقا له وقادرا عليه ، ولكنه يأمن على نفسه من الوقوع فيما حرم الله ، ويحرم في حق من يخل بالزوجة في الوطء والإنفاق ، ويكره في حق من يخل بالزوجة في الوطء والإنفاق حيث لا يقع ضرر بالمرأة بأن كانت غنية ، وليس لها رغبة قوية في الوطء ويباح فيما إذا انتفت الدواعي والموانع [١] يقول الله تعالى :

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامى مِنْكم وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُم وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٢] .

قال ابن كثير : هذا أمر بالتزويج ، وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه على كل من قدر عليه ، واحتجوا بظاهر قوله عليه الصلاة والسلام : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع ، فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » . وقوله : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ... الآية ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : (رغبهم الله في التزويج وأمر به الأحرار والعبيد ووعدهم عليه الغنى) . قال أبو بكر الصديق : (أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى ، وذكر الآية) ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله : « ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازي في سبيل الله » [٣] . وقد زوج النبي ﷺ ذلك الرجل الذي لم يجد إلا إزاره ولم يقدر على خاتم من حديد ، ومع هذا فزوجه بتلك المرأة وجعل صداقها عليه أن يعلمها ما معه من القرآن [٤] .

(١) فقه السنة : ٦ : ٢٤ وما بعدها .
(٢) النور : ٣٢ .
(٣) رواه أحمد والنسائي والترمذي وابن ماجة .
(٤) تفسير ابن كثير : ٥/٩٤ ، ٩٥ .

الزوجة وكيف تختـار :

يهتم الإسلام باختيار الزوجة فيرشد الرسول الكريم إلى الأوصاف التي تقتضيها الفطرة ، ويطلبها المسلم الراشد ؛ فيفضل الرسول الكريم اختيار ذات الدين لما له من أثر في التوجيه وغرس لخشية الله في القلب ومعرفة للحدود والواجبات ، وينبه إلى تكميل ذلك بأن تكون المختارة ودوداً ولوداً بكراً جميلة حسيبة أجنبية وبهذه الأوصاف كلها وردت الأحاديث :

١ - التأكيد على ذات الدين : عن أبي هريرة مرفوعاً : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » (١) .

٢ - الودود الولود : عن أنس مرفوعاً : « تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » (٢) .

٣ - البكر : لقوله ﷺ لجابر : « هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك » .
[متفق عليه]

٤ - الجميلة : لأنها أسكن لنفسه ، وأغض لبصره وأكمل لمودته . عن أبي هريرة قال : قيل يا رسول الله : أي النساء خير ؟ قال : « التي تسره إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه في نفسها ، ولا في ماله بما يكره » (٣) .

وقد قال ابن ضويان في كتابه (منار السبيل في شرح الدليل) حين ذكر وصف (الحسيبة) « ليكون ولدها نجيباً من بيت معروف بالدين والصلاح . وأما وصف الأجنبية أي التي ليست قريبته ، فإن ولدها يكون أنجب ، لأخذه صفات من فرع أسرة أخرى ، ولأنه لا يؤمن الطلاق فيفضي مع القرابة إلى قطيعة الرحم المأمور بصلتها » (٤) .

---

(١) متفق عليه ، دعاء له لصلاح حاله وعلو أمره وألا تلتصق يده بالتراب على طريق الكناية .
(٢) سعيد في السنن .
(٣) أحمد والنسائي .
(٤) منار السبيل : ٢ ، ١٣٥ .

الزوج وما يجب أن يكون عليه : « القدرة والكفاءة » :

وكما طلب الإسلام أوصافاً في الزوجة تعين على دوام العشرة وتوفير السعادة ، كذلك طلب في الزوج « القدرة والكفاءة » ، ومعنى القدرة أن يكون الزوج قادراً على تكاليف الزواج مهيئاً له ، مقدراً تبعاته ، وهو الذي عبر عنه ﷺ بقوله : « من استطاع منكم الباءة فليتزوج ... » . وقد أوردنا شرح العلماء « للباءة » بأنها النكاح ومؤنه . يقول الله تعالى :

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [1] .

أما الكفاءة فقد أورد ابن القيم تفسيرا للكفاءة فقال : « فصل في حكمه ﷺ في الكفاءة في النكاح » قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، وقال : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ .

وقال ﷺ : « لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى،الناس من آدم وآدم من تراب » . وقال ﷺ : « إن آل بني فلان ليسوا لي بأولياء ، إن أوليائي المتقون حيث كانوا وأين كانوا » . وفي الترمذي عنه ﷺ : « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » قالوا يا رسول الله : وإن كان فيه ...، فقال : « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه

---

(١) النور : ٣٣ .

ثلاث مرات » . وقال النبي ﷺ لبني بياضة : « أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه » وكان حجاما .

وزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش القرشية من زيد بن حارثة مولاه ، وزوج فاطمة بنت قيس الفهرية من أسامة ابنه ، وتزوج بلال بن رباح بأخت عبد الرحمن بن عوف وقد قال الله تعالى : ﴿ الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ . قال تعالى : ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ .. ﴾ .

فالذي يقتضيه حكمه ﷺ اعتبار الدين في الكفاءة أصلاً وكمالاً فلا تزوج مسلمة بكافر ، ولا عفيفة بفاجر ، ولم يعتبر القرآن والسنة في الكفاءة أمراً وراء ذلك فإنه حرم على المسلمة نكاح الزاني الخبيث ولم يعتبر نسباً ولا صناعة ، ولا غنى ، ولا حرفة ، فيجوز للعبد القن نكاح الحرة النسيبة الغنية إذا كان عفيفاً مسلماً ، وجوز لغير القرشيين نكاح القرشيات ولغير الهاشميين نكاح الهاشميات ، وللفقراء نكاح الموسرات .

وقد تنازع الفقهاء في أوصاف الكفاءة ، فقال مالك في ظاهر مذهبه : « إنها الدين » ، وفي رواية عنه أنها ثلاثة « الدين والحرية والسلامة من العيوب » وقال أبو حنيفة : « هي النسب والدين » ، وقال أحمد في رواية عنه : « هي الدين والنسب خاصة » وفي رواية أخرى : « هي خمسة : الدين ، والنسب ، والحرية ، والصناعة ، والمال » [1] .

وعلى ذلك فالأوصاف المعتبرة في الزوج : قدرته ، ودينه ، وخلقه ، والتقارب النفسي والفكري بينه وبين من يتقدم لزواجها ، فإذا صح عزم الزوجين كان كلاهما مكملاً للآخر وعوناً له ، سألت فاطمة بنت قيس رسول الله عن رجلين تقدما لخطبتها هما معاوية وأبو الجهم فقال لها : « أما معاوية فصعلوك ،

---

(١) زاد المعاد فى هدى خير العباد : ٤ ، ٢٢ .

وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه » . ومعنى هذا أنهما لا يصلحان لها ، وأن الناصح مؤتمن في تبيين حقيقة ما يسأل عنه .

مقدمات الزواج – التعرف – النظر إلى المخطوبة

إذا عرفنا الأوصاف التي ينبغي توفرها في كل من الزوج والزوجة ، فكيف تبدأ خطوات الزواج .. إن الفطرة تقتضي من الزوج أن يبدأ في البحث وجمع المعلومات عمن يريد زواجها ، وذلك أمر – والحمد لله – متيسر عن طريق أقربائه ، وللنساء في هذا الأمر القدح المعلى ، كما أن معرفة الأسر لبعضهم بعضاً ييسر ذلك ، ويسهله ، فالتعرف المبدئي أمر هام ولا ضير في السؤال والاستيثاق ، والتعاون على ذلك أمر مطلوب شرعاً وعرفاً ، وهو من التعاون على البر والتقوى . وهنا لابد أن ننبه إلى أمر خطير وقع في المجتمع الغربي وهو فتح الباب على مصراعيه للشبان والشابات وما يسمونه بالصداقة بين الجنسين وإباحة التجربة الجنسية بينهما قبل الزواج ، وهو أمر مدمر لهما وللمجتمع وليس هناك أقوى من شهادة الواقع والإحصاءات وما آلت إليه العلاقة بين الجنسين وما تبع ذلك من تدمير للأسرة والمجتمع هناك ، والعاقل من اتعظ بغيره ، والإسلام يقف موقفاً وسطاً لا يمنع من الاستيثاق والتبين ولكن لا يترك الحبل على الغارب للشباب والشابات في مرحلة أقل ما توصف به قلة الخبرة وعدم إدراك النتائج ، وفي أمر لا يمكن التفريط في العناية به ألا وهو كيان الإنسان وخُلُقه ، والأسرة واستقرارها وهما أساس المجتمع .

النظر إلى المخطوبـة :

وقد سنّ الإسلام بعد ذلك أن ينظر الخطيب إلى مخطوبته ، فإن تيسر ذلك دون أن تعرف فذلك هو الأولى روى جابر : « إذا خطب أحدكم فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها ، فليفعل » . قال فخطبت جارية من

بني سلمة ، فكنت أتخبأ لها ، حتى رأيت منها بعض ما دعاني إلى نكاحها » (١) .
وعن أبي هريرة قال : كنت عند النبي ﷺ ، فأتاه رجل فأخبره أنه تزوج امرأة من الأنصار ، فقال رسول الله ﷺ : « أنظرت إليها ؟ » قال : لا ، قال : « فاذهب فانظر إليها ، فإن في أعين الأنصار شيئاً » (٢) . وفي حديث المغيرة ابن شعبة أن رسول الله ﷺ أمره أن ينظر إلى خطيبته قائلاً : « انظر إليها ، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » فأتى أبويها فأخبرهما بقول رسول الله ﷺ ، فكأنهما كرها ذلك ، فسمعت ذلك المرأة وهي في خدرها فقالت : « إن كان رسول الله ﷺ أمرك أن تنظر فانظر قال المغيرة : فنظرت إليها فتزوجتها » (٣) .

وهذا يدل على حرص الإسلام على اتخاذ الخطوات الفطرية والطبيعية لذلك ، وإذا كان هذا يجب أن يتم من جانب الخطيب ، فهو كذلك ينبغي أن يتم من جانب المخطوبة وأهلها حتى تتوفر دواعي الرضا والقبول من الجانبين ، وقد مر بنا آنفاً سؤال فاطمة لرسول الله عمن تقدم لخطبتها .

ومن المنهي عنه أن يخطب المسلم على خطبة أخيه ، أو أن يتشبه بأهل الكتاب في تبادل خاتمي الخطوبة ، فهي عادة كنسية فضلاً عن حرمة التختم بالذهب للرجال كما ورد ذلك في السنة .. فليبتعد شبابنا وشاباتنا عن مثل هذه العادات ، وفي تبادل الهدايا ما يغني ويكفي ، وليبدأوا مودتهم على نقاء وطهر وطاعة لله ورسوله كي يبارك الله زواجهم وحياتهم .

عقد الزواج :

يهتم الإسلام بعقد الزواج اهتماماً كبيراً ، وينعته القرآن الكريم بالميثاق الغليظ ، وهو وصف لم يوصف به إلا عقد النبوة بين الأنبياء عليهم السلام وربهم جل جلاله :

---

(١) أحمد وأبو داود .
(٢) مسلم .
(٣) رواه أحمد وابن ماجة والترمذى وابن حبان والدارمى .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُم وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ (١)

ويقول في شأن الزواج في معرض النهي عن استرداد المهر :

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُم مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ (٢)

وهو عقد أبدي لا يجوز فيه التأقيت ، ولهذا انتهى الإسلام إلى تحريم نكاح المتعة ، ذلك لأن الآثار المترتبة عليه آثار خطيرة . فبالزواج تباح متعة الرجل بالمرأة ، وتترتب عليه حقوق للزوجة قبل الزوج وهي الرعاية الكريمة والنفقة والسكن . وحقوق للزوج على الزوجة وهي الطاعة في المعروف ورعاية البيت والأولاد ، ويثبت به النسب والتحاق الولد بأبيه ، ويتم على أساسه التوارث ، ويستحق به الأولاد الرضاعة والحضانة والتربية ، ويترتب عليه عند النزاع الطلاق والعدة .

ومن هنا قدر الإسلام الزواج حق قدره ، واتخذ من الحيطة والرعاية ما يجعله يؤدي ثمرته ، فبعد التعرف والنظر إلى المخطوبة يتقدم الرجل إلى ولي المرأة فيخطبها منه .. وهنا يطلب الإسلام أمرين مهمين :

١ - التأكد من خلوهما من الموانع الشرعية : بألا يكون بهما أو بأحدهما ما يمنع التزويج من نسب أو سبب كرضاع أو مصاهرة أو اختلاف دين ، ويقاس على هذه الموانع الصحية « فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » .

٢ - أن يؤخذ رأي المخطوبة وتصرح برضاها وقبولها ، ويقوم بذلك وليها وهو الأب أو من يقوم مقامه من الأقارب الأدنى فالأدنى . وتختلف درجات التعبير

---

(١) الأحزاب : ٧ .

(٢) النساء : ٢١ .

بالموافقة بين البكر والثيب ، فالثيب لابد أن تدلي برأيها صراحة لا تلميحاً ، أما البكر فبحسب ظروفها وبحسب العرف ويعرف ذلك أهلها من حالها فربما عبرت بالسكوت أو بمدح الخطيب ، أو بكت لما سيحدث من فراقها لأهلها ، أو بالعكس للتدليل على الاعتراض بأن تقول إن الأمر لم يحن بعد أو اكفهر وجهها وقامت من مجلسها ، المهم أنه لابد من رضاها وموافقتها ، والأصل في ذلك أحاديث الرسول الكريم :

١ - فعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « الثيب أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن في نفسها ، وإذنها صماتها » (١) .

٢ - وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن » ، قالوا يا رسول الله : كيف إذنها ؟ قال : « أن تسكت » (٢) .

٣ - « وعن خنساء بنت جذام أن أباها زوجها ، وهي ثيب ، فأتت رسول الله ﷺ فرد نكاحها » (٣) .

٤ - وعن ابن عباس : « أن جارية بكراً أتت رسول الله ﷺ فذكرت له أن أباها زوجها وهي كارهة فخيرها النبي » (٤) .

٥ - وعن عبد الله بن بريدة قال : « جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت : إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته قال : فجعل الأمر إليها ، فقالت : قد أجزت ما صنع أبي ، ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شيء » (٥) .

---

(١) رواه الجماعة إلا البخارى

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه الجماعة .

(٤) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة والدارقطنى .

(٥) رواه ابن ماجة ورجاله رجال الصحيح

وإذا تمت الموافقة أمكن أن يشرع في عقد الزواج ، وينعقد بأي لفظ يدل على الإيجاب من قبل الولي ، والقبول من قبل الزوج ، ويندب تسمية المهر وحضور شاهدين عدلين ، فقد جعل الله المهر تكرمة للمرأة ودليلاً على جدية الرجل واهتمامه . يقول الله عز وجل :

﴿ وَآتُوا النِسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً ﴾ (١) .

وإذا تم العقد بعد اتخاذ الخطوات السالفة بدأت صفحة جديدة وحياة جديدة ومسؤوليات جديدة . وهنا أمور ثلاثة ينبغي توضيحها وبيان حكمة الإسلام فيها :

اثنان في عقد الزواج وهما : الولي وحكمه والشبهات التي تثار حول اشتراطه في الزواج ، والمهر وقدره ومكانه في الزواج ، والأمر الثالث وهو : حقوق كل من الزوجين قبل الآخر ومسؤولية كل منهما في بناء الأسرة وقوامة الرجل ومعناها ، وسأتكلم عن الأمور الثلاثة تبعا للترتيب الذي أسلفته .

الولايـــة :

والمقصود بها هنا الولاية الخاصة التي على النفس ، وهي غير الولاية العامة وغير الولاية على المال ، فالمرأة لها الحق الكامل في الولاية على مالها ، أما ولاية الزواج فقد جاءت النصوص متضافرة على أهميتها . يقول الله تعالى :

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُم وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُم ﴾ وقال : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا ﴾ .

ووجه الاحتجاج أن الله تعالى خاطب بالنكاح الرجال ، ولم يخاطب به النساء .

---

(١) النساء : ٤ .

والأحاديث :

- عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال : « لا نكاح إلا بولي » (١) .

- وحديث معقل بن يسار حين طلقت أخته ومنعها من العودة إلى زوجها بعد خروجها من العدة فنزل قوله تعالى : ﴿ فلا تعضلوهن ﴾ فقال : « الآن أفعل يا رسول الله ، فزوجها إياه » (٢) .

- وعن عائشة : « أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل ، قالها ثلاثاً ، فإن دخل بها فلها المهر بما استحل من فرجها ، فإن اشتجروا فالسلطان ولي من لا ولي له » (٣) .

قال الترمذي : (والعمل على حديث : « لا نكاح إلا بولي » عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ ، وذهب إليه جمع من فقهاء التابعين وتابعيهم) (٤) .

ويرى أبو حنيفة وأبو يوسف : أن المرأة العاقلة البالغة لها الحق في مباشرة العقد لنفسها بكراً كانت أو ثيباً ، ويستحب أن تكل عقد زواجها لوليها صوناً لها عن التبذل إذا هي تولت العقد بمحضر من الرجال الأجانب عنها » (٥) .

شرط الولي :

على أن الإسلام يشترط في الولي فوق الشروط المعروفة أن يكون راشداً ، والرشد : أن يكون عارفاً بمصالح النكاح مدركاً الظروف مقدراً إياها . قال

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة .

(٤) فقه السنة : ٧ ، ١٠ .

(٥) المرجع السابق : ١٠ و ١١ .

ابن عباس : « لا نكاح إلا بشاهدي عدل وولي مرشد » . وقد روي أيضاً عن ابن عباس : « لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل ، وأيما امرأة أنكحها ولي مسخوط فنكاحها باطل » قال في منار السبيل : « ولأنها ولاية نظرية فلا يستبد بها الفاسق كولاية المال » [1] .

والولاية في الزواج قصد بها تحقيق مصالح عدة :

١ - مصلحة الفتاة حتى لا تتورط في اختيار من لا يصلح لها ، وكثيراً ما يخضع رأيها لحكم العاطفة لقلة تجاربها فيفوتها حصول المقاصد من الزواج ، فلذلك منعت من مباشرة العقد وجعل إلى وليها .

٢ - مصلحة الأسرة التي تنتمي إليها الفتاة من حيث اشتراك الأسرة معها في التشاور في أمر زواجها ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ .

ولا شك أن الزواج ليس من الأمور العادية ، بل هو أمر ذو بال ، سيترتب عليه سعادة الزوجين وترابط الأسرتين ، فينبغي أن يكون لأهل الفتاة حق إبداء الرأي فوجود الولاية يكبح جماح العاطفة ، ويمنع النزوة الفردية ، ويحقق حسن الاختيار شرط ألا يستبد أهل الفتاة بها بل يحققون الشورى ، ويوضحون ما عندهم ثم يتركون للفتاة حق الاختيار خاصة إذا كانت بالغة رشيدة فهذا حقها ويترتب عليه سعادتها .

٣ - مصلحة المجتمع فإن الزواج الذي يتم تحت رعاية ولي الفتاة يعرف ويشتهر ، ويقطع دابر التحايل والتلاعب وتتم فيه الإجراءات الصحيحة السليمة . أما الزواج الآخر الذي يترك للزوجين فتنتابه الأهواء والشهوات . وهي ليس لها ضابط ولا رابط ولنا في التخريب الذي أحدثه الزواج المدني في الغرب والذي يتم

---

(١) منار السبيل فى شرح الدليل : ٢ ، ١٥٢ .

بين المرأة والرجل في مكاتب لا تزيد شيئاً عن مكاتب السمسرة وبيع العقارات وتسجيل العقود أكبر درس وأعظم عبرة ؟!!

على أننا ينبغي أن نسجل هنا أن الإسلام جعل حق الأولياء مرتبطاً برضاء المخطوبة الرشيدة ، فإذا رفضت لم يكن لهم إمضاء الزواج ، وليس لهم حق إكراهها ولها أن تمتنع وتطلب فسخ العقد إذا عقد بغير رضاها . كما أنه لا يتصور إكراه في أمر خطير كهذا إلا فيما يحدث عند بعض الشواذ من المسلمين الذين حرموا فقه دينهم وروحه السمحة الكريمة ، فإن بعضهم مثلاً يتمسك بعادة تزويج بنت العم من ابن عمها أو تزويجها من قبيلتها ، وغير ذلك من العادات الجاهلية التي ما أنزل الله بها من سلطان .

هذا وإن النغمة التي ترتفع في بعض الأحيان محاكية ما يتم في الغرب من ترك البنت تختار زوجها اختياراً مطلقاً دون اعتبار لرأي وليها وأهلها نغمة أقل ما يقال فيها : إنها لا تقدر المسؤولية ، وإنها لم تنتفع بالعبر القائمة في دنيا الغرب ، اللهم إلا إذا كان أصحابها أصيبوا في حسهم الإيماني وتفكيرهم الإسلامي وتغربوا واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير !!!

المهــــر :

شرع الإسلام المهر تطييباً لنفس المرأة وإبطالاً لما كان يفعله أهل الجاهلية من ظلمها وأخذ مهرها ، قال تعالى : ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً ﴾ وقد جعله الإسلام خالص حق المرأة ومنع أن يؤخذ حتى ولو حدثت فرقة وطلاق ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ (١) . ومن ناحية أخرى يعتبر من الإنفاق الذي طولب به الرجل مقابل

(١) النساء : ٢٠ ، ٢١ .

القوامة التي سيتولاها . قال تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ ﴾ (١) .

مقـــداره :

قاعدة الإسلام الكبرى التي تجري عليها أحكامه وتكاليفه : التيسير والتخفيف والبعد عن التعقيد ، وتحقيق المقاصد من العقود ، والمهر شرع تطييبا لنفس المرأة ودليلا على جدية الرجل ولذا ينبغي أن يكون حسب الوسع والطاقة قال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وسْعَهَا ﴾ (٢) .

ومن هنا ابتعد الإسلام عن التحديد والتقدير وتركه حسب ظروف الناس وعاداتهم ، شرط الابتعاد عن الغلو وتجاوز الحد ، فلا ينبغي أن يكون ثقلاً ومغرماً يخيف الشباب من الزواج كما لا يجوز أن تكون البنت سلعة يتغالى بها ، بل يجب أن يكون الهدف تزويجها بمن يسعدها ويكرمها ، وأن نضرب بالأعراف الخاطئة عرض الحائط ، وليعلم الآباء والأولياء أياً كانوا أن تعقيد سبل الزواج يفتح أبواب الحرام فليتقوا الله ، وليحكموا روح الإسلام وموازينه ، ويدرؤوا عن بيوتهم ومجتمعاتهم غوائل الفساد والفاحشة ، وليقتدوا بالنبي ﷺ وأصحابه ، ومنهجهم في ذلك .

١ - قال عمر رضي الله عنه : « ما علمت رسول الله ﷺ نكح شيئاً من نسائه ولا شيئاً من بناته على أكثر من اثنتي عشر أوقية » (٣) ، والأوقية : أربعون درهماً .

---

(١) النساء : ٣٤ .

(٢) البقرة : ٢٨٦ .

(٣) رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح .

٢ - عن جابر : أن النبي ﷺ قال : « من أعطى في صداق ملء كفه سويقا أو تمراً فقد استحل » (١) .

٣ - عن عائشة عن النبي ﷺ قال : « إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة » (٢) .

٤ - عن عامر بن ربيعة : أن امرأة من بني فزارة ، تزوجت على نعلين فقال رسول الله ﷺ : « أرضيت عن نفسك ومالك بنعلين ؟ فقالت : نعم ، فأجازه » (٣) .

٥ - وعن سهل بن سعد أن النبي ﷺ جاءته امرأة فقالت : « يا رسول الله إني وهبت نفسي لك ، فقامت قياماً طويلاً ، فقام رجل فقال : يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة ، فقال رسول الله ﷺ : « هل عندك من شيء تصدقها إياه ؟ » فقال : ما عندي إلا إزاري هذا ؟ فقال النبي ﷺ : « إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك ، فالتمس شيئاً ؟ » فقال : ما أجد شيئاً ، فقال له النبي ﷺ : « قد زوجتها بما معك من القرآن » (٤) .

٦ - وعن أنس : « أن أبا طلحة خطب أم سليم ، فقالت : والله ما مثلك يرد ... ولكنك كافر وأنا مسلمة ، ولا يحل لي أن أتزوجك ، فإن تسلم فذلك مهري ، ولا أسألك غيره فكان ذلك مهرها » (٥) .

قال ابن القيم : « فمقتضى هذه الأحاديث أن الصداق لا يتقدر أقله ، وأن قبضة السويق وخاتم الحديد والنعلين يصح تسميتها مهراً ، وتحل بها الزوجة ،

---

(١) رواه أبو داود .
(٢) رواه الإمام أحمد .
(٣) رواه أحمد وابن ماجة والترمذى وصححه .
(٤) رواه البخارى ومسلم .
(٥) رواه النسائى .

وتتضمن أن المغالاة في المهر مكروهة في النكاح وأنها من قلة بركته وعسره ، وتتضمن أيضاً أن المرأة إذا رضيت بعلم الزوج وحفظه للقرآن أو بعضه من مهرها جاز ذلك ، وكان ما يحصل لها من انتفاعها بالقرآن والعلم هو صداقها . وقد تزوج عبد الرحمن بن عوف على صداق قدره خمسة دراهم وأقره النبي ﷺ ، وزوج سيد أهل المدينة من التابعين سعيد بن المسيب ابنته على درهمين ، ولم ينكر عليه أحد ، بل عد ذلك من مناقبه وفضائله » (١) .

وقد تضمنت الأحاديث أيضاً أخذ رأي المرأة في الصداق وقدره وإنفاذ رأيها ، فما دامت قد رضيت بخطيبها فيجب أن تعان على إكمال الزواج لا تعويقه .

---

(١) زاد المعاد لابن القيم : ٤ ،٢٨ ، ٢٩ .

الفصـــل الثــاني

التعَــــدُّد

لمــاذا شـــرع ؟

شرع الإسلام التعدد علاجاً لتفاوت الناس في قدراتهم وأرزاقهم ، وسبيلاً للإحصان والعفاف بفتح باب الحلال ، وإغلاق باب السفاح والمخادنة وقيده بأمرين :

١ - العدل .

٢ - وعدم تجاوز الأربعة بحال .

وقد وردت في التعدد آيتان : الأولى في أول سورة النساء ، يقول الله تعالى :

﴿ وَإِنْ خِفْتُم أَلَّا تُقْسِطُوا في الْيَتَامَى فَانْكِحوُا مَاطَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُم ألاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾ (١) .

فقد أباحت الآية لأولياء اليتامى عند خوف الجور على اليتامى اللائي تحت رعايتهم وذلك لرغبتهم في التزوج بهن أن يبتغوا الزواج في غيرهن وأن القيد الوحيد على التعدد هو تحقيق العدل وقد أكدته الآية في آخرها : ﴿ فَإِنْ خِفْتُم أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ والعدل المقصود هو العدل الذي تستطيعه النفس البشرية وهو

---

(١) النساء : ٣ .

العدل في المبيت والنفقة والمسكن ، وليس العدل في الميل القلبي فذلك ما لا سبيل إليه ، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة الأخرى : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾(١)

قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية : « أخبر تعالى بنفي الاستطاعة في العدل بين النساء ، وذلك في ميل الطبع بالمحبة والجماع والحظ من القلب ، فوصف تعالى حالة البشر وأنهم بحكم الخلقة لا يملكون ميل قلوبهم إلى بعض دون بعض ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يقول : « اللهم إن هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » ولذا قال القرآن : ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ ﴾ قال مجاهد : (لا تتعمدوا الإساءة بل الزموا التسوية في القسم والنفقة لأن هذا مما يستطاع) (٢) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط » (٣) .

التعدد في المجتمعات الأخرى :

وقد جاء الإسلام ، والتعدد أمر قائم في المجتمعات والأديان السابقة ، فقد عدد إبراهيم ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء والمرسلين (٤) ، وأباحت التعدد الديانتان:اليهودية والمسيحية (٥) ، وبقي تعدد الزوجات مباحاً في العالم المسيحي إلى القرن السادس عشر كما جاء في تواريخ الزواج بين الأوروبيين .

---

(١) النساء : ١٢٩ .

(٢) القرطبي : ٤٠٧/٥ .

(٣) رواه الإمام أحمد وأهل السنن .

(٤) الإسلام عقيدة وشريعة : ١٨٧ .

(٥) راجع المرأة فى القرآن : ١١٢ – ١١٤ .

ويقول وستر مارك Wester march في تاريخه : (إن ديارمات Diarmat ملك أيرلندة كانت له زوجتان وسريتان ، وتعددت زوجات الملوك الميروفنجيين غير مرة في القرون الوسطى ، وكان لشرلمان زوجتان وكثير من السراري ويظهر من بعض قوانينه أن تعدد الزوجات لم يكن مجهولاً بين رجال الدين أنفسهم . وبعد ذلك بزمن كان فيليب أوف هيس ، وفردريك وليام الثاني البروسي ، يبرمان عقد الزواج مع اثنتين بموافقة القساوسة اللوثريين . وأقر مارتن لوثر نفسه تصرف الأول منهما ، كما أقره ملانكتون Melanchthon وكان لوثر يتكلم في شتى المناسبات عن تعدد الزوجات بغير اعتراض ، فإنه لم يحرم بأمر من الله .

ولم يكن إبراهيم – وهو مثل المسيحي الصادق – يحجم عنه ، إذ كان له زوجتان . نعم إن الله أذن بذلك لأناس من رجال العهد القديم في ظروف خاصة ، ولكن المسيحي الذي يريد أن يقتدي بهم ، يحق له أن يفعل ذلك متى تيقن أن ظروفه تشبه تلك الظروف . فإن تعدد الزوجات على كل حال أفضل من الطلاق . وفي سنة ١٦٥٠ الميلادية – بعد صلح « وستفاليا » ، وبعد أن تبين النقص في عدد السكان من جراء حروب الثلاثين – أصدر مجلس الفرنكيين بنورمبرج قراراً يجيز للرجل أن يجمع بين زوجتين . بل ذهبت بعض الطوائف المسيحية إلى إيجاب تعدد الزوجات ، ففي سنة ١٥٣١ نادى اللامعمدانيون في مونستر صراحة ، بأن المسيحي – حق المسيحي – ينبغي أن تكون له عدة زوجات ، ويعتبر المورمون كما هو معلوم أن تعدد الزوجات نظام إلهي مقدس ...) (١) .

إن التعدد يلبي رغبة فطرية عند الرجل تلجئه إليه حاجته إلى الاستمتاع بالجنس الآخر الذي تطرأ عليه عادات الدورة الشهرية وما يعقب الولادة من

---

(١) المصدر السابق : ١١٥ ، ١١٦ .

الحاجة إلى النقاهة وغير ذلك ، وما دام الهدف هو الإحصان والعفاف في المجتمع المسلم فلا سبيل إليه إلا بالتعدد بشروطه . وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله :
﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُم أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ (١) ﴿ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ ﴾ أما ما يسيء استعمال حق التعدد فالعلاج منع إساءته لا تحريم ما أحل الله . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَّا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٣)

وقد عدد رسول الله وصحابته والتابعون وأجيال المسلمين من بعدهم ولم نسمع كلاما في التعدد إلا من قريب بعد الغارة الغربية على بلاد المسلمين .

ثم إن الإسلام يشرع لجميع المجتمعات والبيئات ، ولابد أن يراعي حاجة العامل الذي يرغب في وجود أيد عاملة معه تعينه في رعيه أو كدحه وجهده ، وكذلك حاجة الغني المتيسر الذي يجد عنده الطاقة والقدرة ، فإن لم نشبع حاجة العامل والغني في الحلال مضيا إلى السبل المنحرفة ، وهذا ما لا يرضاه الإسلام ولا يقره ، ولا يجب أن نهمل رعاية جانب الفطرة في كل من الرجل والمرأة بالنسبة للطاقة الجنسية فالمرأة تتوقف عند العقد السادس بينما الرجل لا يتوقف مثلها ، ثم ماذا نفعل إذا حدثت عاديات المرض على المرأة من قعود أو عاهة أو عقم مع ما تأتي به الحروب من كثرة عدد النساء وقلة الرجال .

في المجتمع الغربي درس وعبرة :

إن عدم إباحة التعدد في المجتمع الغربي أصابه في نفسيته وخلقه بالتحليل والتسفل حينما أباح الزنى تحت شعار الانفصال الجسدي وصداقة الأسرة ، وأصابه

---

(١) النساء : ٢٤ .
(٢) النساء : ٢٥ .
(٣) المائدة : ٨٧ .

في نسله بارتفاع نسبة اللقطاء والمولودين غير الشرعيين مما جعل الحكومة الفرنسية تعقد مؤتمرا سنة ١٩٠١ م للبحث عن خير الطرق في مقاومة انتشار الفسق ، وكان مما قيل في المؤتمر : « إن عدد الأولاد اللقطاء المجموعين في ملاجيء مقاطعة (السين) وحدها ، وجارٍ تربيتهم فيها على نفقة المقاطعة بلغ خمسين ألف لقيط ، وأن بعض القوام على هذه الملاجيء يفحشون بالبنات اللاتي تحت ولايتهم ، وأن نفس اللقطاء يفحشون بعضهم ببعض ولا زاجر يزجرهم » .

وكتبت كاتبة إنجليزية في هذا الشأن : لقد كثرت الشاردات من بناتنا ، وعم البلاء ، وقل الباحثون عن أسباب ذلك ، وإذ كنت امرأة تراني أنظر إلى هاتيك البنات وقلبي يتقطع شفقة عليهن وحزناً ، فماذا يفيدهن بثي وحزني وتوجعي وإن شاركني فيه الناس جميعاً ..؟

لا فائدة إلا في العمل بما يمنع هذه الحالة التعسة ، ولله در العالم الفاضل « تومس » فإنه رأى الداء ووصف الدواء ، وهو الإباحة للرجل التزوج بأكثر من واحدة ، وبهذه الواسطة يزول البلاء وتصبح بناتنا ربات بيوت ، فالبلاء كل البلاء في إجبار الأوربي على الاكتفاء بواحدة ، وهذا التحديد هو الذي جعل بناتنا شوارد ، وقذف بهن إلى التماس أعمال الرجال ، ولابد من تفاقم الشر إذا لم يبح للرجل التزوج بأكثر من واحدة ، ولو كان تعدد الزوجات مباحاً لما نزل بنا هذا البلاء . وهكذا أخذت تندب حظ بنات جنسها اللائي حرم على الرجال أن يتزوجوا منهن على زوجاتهم » (١) .

وما حدث في تركيا يجب أن يكون نذيراً لنا ، إذ إنها أصدرت قانوناً مدنياً سنة ١٩٢٦ صدر بموجبه منع تعدد الزوجات ، ولكن لم تمض - بعده - ثماني

---

(١) الإسلام عقيده وشريعة : ١٩٩ .

سنوات حتى هال أولياء الأمر فيها عدد الولادات السرية ، وعدد الزوجات السرية العرفية ، وعدد وفيات الأطفال المكتومة [1] .

ونفس الشيء حدث في تونس التي اقتدت بتركيا ، فقد ضبط رجل متزوج باثنتين واستطاع محاميه أن يجنبه العقوبة بأن أثبت للمحكمة أن الثانية عشيقة وليست زوجة ... [2] .

إن الذين يصيحون بتقييد التعدد إنما يريدون أن يخرجوا مجتمعاتنا ويجروها إلى الفساد الغربي ويهدموا نظام الزواج الإسلامي بإباحة السفاح والمخادنة ، وليست الخطورة الآن في تصاعد التعدد ، وإنما الخطورة في العزوف عن الزواج . فالتعدد الآن في المجتمع المصري – الذي نسمع عنه من صيحات المتغربين والمتغربات – نسبة ٣ في الألف [3] ، هذا من عشر سنوات ، فما بالك الآن .

يقول الشيخ شلتوت عليه رحمة الله مبيناً ذلك : « وإذا رجعنا إلى الإحصائيات المتعلقة بعقود الزواج – وبحالات التعدد خاصة – لوجدنا أن الحالة بحكم انصراف الشبان عن أصل الزواج وخفة ميزان الفضيلة في نفوسهم قد أخذت في التخلص من فكرة الزواج فضلاً عن فكرة التعدد ، ونخشى إذا اطرد الحال – ولا نخالها إلا مطردة – أن تفشو العزوبة وينعدم التعدد ، وعندئذ تكثر البلوى وتعظم الشكوى ، ونصبح نلتمسه أكثر مما التمسته الحكومة الفرنسية في سنة ١٩٠١ ونادى به إذ ذاك عقلاء الإفرنج فلا يجد نداؤنا سميعاً ، ولا استغاثتنا مغيثاً .

أما أن تعدد الزوجات يسير إلى نقص مطرد ، فيدل عليه جدول مصلحة الاحصاء المصرية سنة ١٩٤٣ ، إذ نزلت نسبة التزوج باثنتين في مدة عشر

(١) انظر فى ذلك عدد ٥٥٦ من مجلة آخر ساعة فى ٣ يونيه ١٩٤٥ للكاتب المصرى المعروف محمد التابعى .

(٢) دراسة فى أدب منحل : ٨٧ .

(٣) الأهرام فى ١٩٦٥/٣/٧ م .

سنوات من ٤٠,٤ ٪ إلى ٢,٩٥ ٪ والتزوج بثلاث من ٠,٢٩ ٪ إلى ٠,١٧ ٪ والتزوج بأربع من ٠,٠٤ ٪ إلى ٠,٠٢ ٪ .

وهي حالة تنذر قطعا بانقراض التعدد ، واتجاه الناس إلى الانصراف عنه بعامل انصرافهم عن أصل الزواج ، وهو الاكتفاء بسبيل الصداقة والمخادنة .

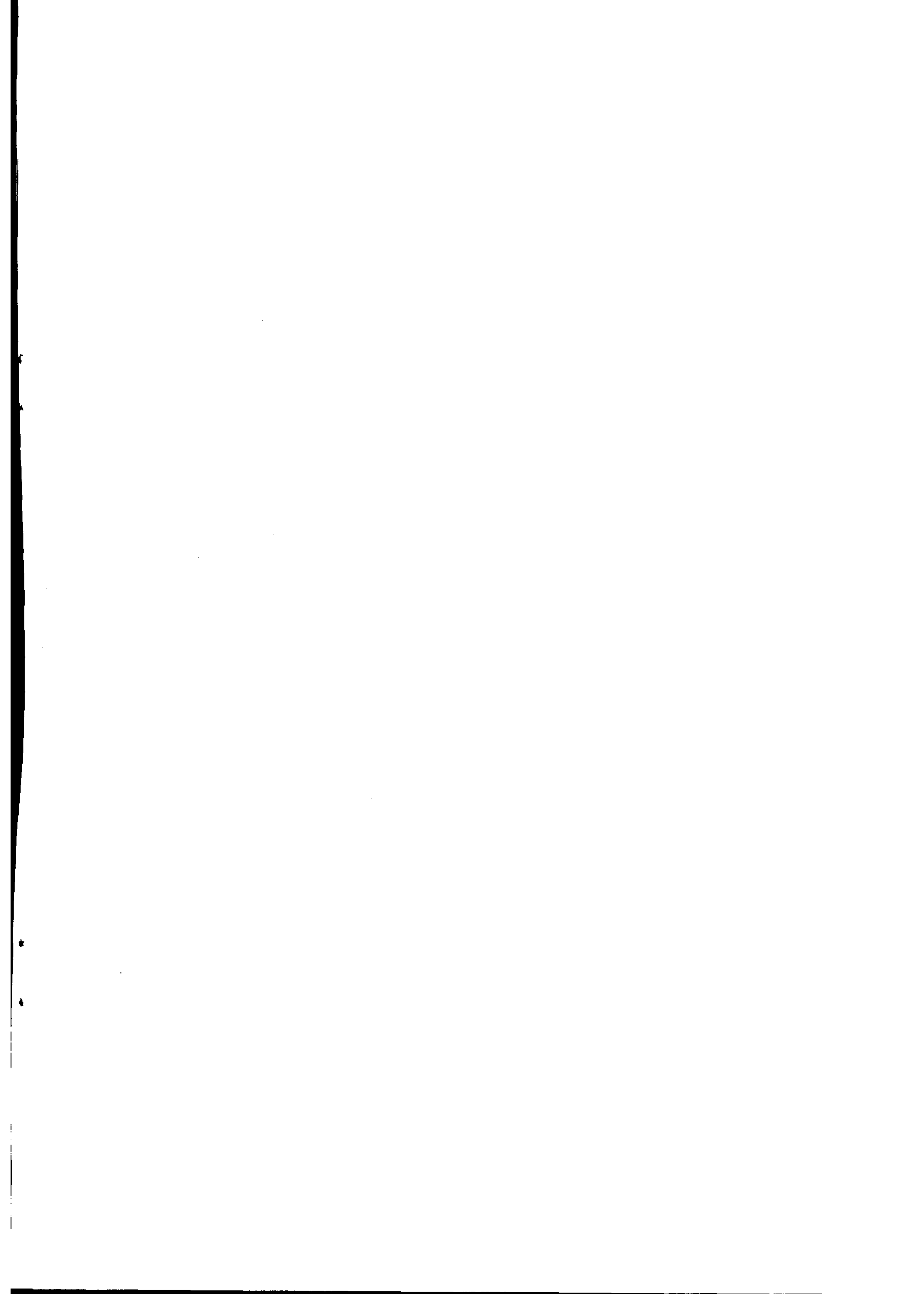
حاجتنا إلى تشريع عكسـي :

وأن مثل هذه الحالة جديرة بأن تدفع بالأمة إلى التدهور الأخلاقي الذي شكا منه الغربيون أنفسهم ، وجربته دولة شرقية إسلامية ، وهو مما يوجب على عقلاء الأمة – اتقاء للانتكاس الخلقي – أن يفكروا لا في منع التعدد أو تقييده وإنما في وضع حد أعلى للعروبة بالنسبة لأصل الزواج ، ووضع تشريع عكسي في تعدد الزوجات أقل درجاته مساعدة الذين يتزوجون بأكثر من واحدة مساعدة تحفز غيرهم إلى السير في طريقهم ، وتساعدهم على الانفاق على زوجاتهم وعلى أولادهم الذين ينسلون من هذه الزوجات إن لم يكونوا أرباب يسار يمكنهم من ذلك .

ولا ريب أن التشريع الذي يراد لمنع تعدد الزوجات هو في الواقع بملاحظة ما تقدم ، أكبر معين للناس في التخلص من العلاقات الشريفة ذات الآثار الطيبة في الأخلاق والاجتماع اكتفاء بما يقع في أيديهم من أعراض لم تجد من يغار عليها أو يعمل على صيانتها (١) .

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة : ٢٠١ ، ٢٠٢ .



الفصـــل الثالــــث

دَعَائم الحَيَاة الزوْجيَّــة

حقوق كل من الزوجين على الآخر :

الزواج بداية حياة جديدة تهدف إلى تكوين خلية اجتماعية جديدة عامرة بالحب والسعادة والإيمان ، ففيه من الامتزاج والتكامل والتعاون والمشاركة ما تتضمنه كلمة الزوجية بأوفى ما يكون . ومن هنا نجد أن هناك أسساً مشتركة هي بمثابة وسائل وأهداف وهي في نفس الوقت واجبات ينبغي على كل من الزوجين رعايتها ووضعها نصب أعينهما ، فهي كالدليل أو العلامات المضيئة على طريق هذه الرحلة الميمونة بعون الله .

أولا : واجبات وأهداف مشتركة :

١ - رعاية الحب والمودة بينهما ، فلقد جعل الله عز وجل للزواج هدفاً روحياً وإنسانياً ليعلو به على الجانب البهيمي ، فإن هذا الأخير ينقضي في لحظات كما تنقضي أي لذة ، أما الحب فهو جانب يتعلق بالعاطفة والوجدان ويستمر رحيقه وأريجه بين حنايا المتحابين ولذا فإن واجب الزوجين أن يسقيا هذا الجانب ويتعهداه كما يتعهد الزارع غرسه والبستاني وروده ... وصدق الله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

---

(١) سورة الروم : ٢١ .

وانظر قوله تعالى : ﴿ بَيْنَكُمْ مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ فإنه شعور متبادل ولا يكون إلا بين الزوجين ، أما أصحاب الغرام الحرام من العشاق والأخلاء فلا يجدون السكن النفسي والاطمئنان القلبي ، ولا تقوم بينهم مودة دائمة ولا رحمة متبادلة ، فشأنهم كشأن اللصوص يسرقون الفرص ويختلسون اللحظات . وصدق الله :

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾(١) .

٢ - الشعور بالمسؤولية :

الزواج مسؤولية ، وهو أمر تستوجبه الحياة الجديدة ، وقد تم بعد عهد وموثق وعقد ، وتقتضي هذه المسؤولية أن يرعى كل من الزوجين صاحبه ، ويرعى حقوق الآخر عليه والواجبات المنوطة به ، يقول الرسول الكريم في الحديث الذي يرويه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالأمير الذي على الناس راع عليهم وهو مسؤول عنهم والرجل راع على أهله وهو مسؤول عنهم ، وامرأة الرجل راعية على مال زوجها وولدها وهي مسؤولة عنهم وعبد الرجل راع على مال سيده ، وهو مسؤول عنه فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » (٢) ومن الشعور بالمسؤولية أن يتبادلا :

(أ) النصح :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (٣) .

---

(١) النور : ٢٦ .
(٢) الموطأ : ٣٤٣ .
(٣) التوبة : ٧١ .

(ب) التعـاون :

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾[1]

(ج) التشـاور :

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [2].

٣ - رعاية حدود الله وأوامره :

وعليهما أن يعرفا أن الله جمع بينهما ليقيما شرعه وأمره ويعمرا حياتهما بالتقوى والعمل الصالح ، وهذا خير ما يصون لهما حياتهما ويجعلها ممتدة نامية مؤثرة منتجة :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [3].

ومن هنا كان من واجباتهما لتثبيت هذا الجانب :

(أ) أن يتفقها في الدين ويبدءا بالواجبات العينية من إحسان العبادة ومعرفة الآداب والأخلاق الإسلامية ، وحدود الزينة ، وطريقة الرسول الكريم وأصحابه في التربية .

(ب) معرفة حدود الحلال والحرام في الاجتماع والترفيه وينبغي أن أؤكد هنا سعة الإسلام ويسره وإيمانه بترويح النفس وتسليتها لتنشط على العبادة وعمل الخير ، ولنفرق دائماً بين الترفيه الممتع الذي يجلب المسرة من غير فحش ولا تفحش ، وبين الترفيه الخبيث الذي يفسد النفس والأخلاق .

---

(١) المائدة : ٢ .

(٢) الشورى : ٣٨ .

(٣) النحل : ٩٧ .

(ج) حفظ أسرار الزوجية ، وذلك قوله تعالى :

﴿ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ (١) .

ومن جملة الغيب الذي ينبغي أن يحفظ ما يكون بينهما من علاقة خاصة فلا تكون حديثاً في المجالس أو سمراً في الندوات مع الأصدقاء والصديقات (٢) ففي الحديث : « إن من شر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه ثم ينشر سرها » (٣) ، والحديث الآخر عن أبي هريرة : « صلى بنا رسول الله ﷺ فلما سلم أقبل علينا بوجهه فقال : مجالسكم هل منكم الرجل إذا أتى أهله أغلق بابه وأرخى ستره ، ثم يخرج فيحدث فيقول : فعلت بأهلي كذا ؟ فسكتوا ، فأقبل على النساء فقال : هل منكن من تحدث ؟ فجثت فتاة كعاب على إحدى ركبتيها وتطاولت ليراها رسول الله ﷺ ويسمع كلامها فقالت : أي والله إنهم يتحدثون ، وإنهن ليتحدثن فقال عليه السلام : هل تدرون ما مثل من فعل ذلك ؟ مثل شيطان وشيطانة لقي أحدهما صاحبه بالسكة فقضى حاجته منها والناس ينظرون إليه » (٤) .

(د) ومما لا يتم الواجب إلا به إدراك مشكلات العصر ، وقراءة التجارب الحديثة في التربية وعلم النفس رغبة في معرفتها وأخذ النافع منها كي ندرك ما تواجه أجيالنا الناشئة من تغيرات اجتماعية لنستطيع توجيههم بحكمة وسداد .

(هـ) معرفة ظروف أمتنا ومشكلاتها لأننا جزء منها ، وما لم ندرك أحوالها ونتأثر بآلامها وآمالها لا نستطيع أن نكون جزءاً حياً منها ، وتلك مسؤوليتنا بين يدي الله ، ودليل انتسابنا إليها . والقرآن الكريم يقول : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

---

(١) النساء : ٣٤ .

(٢) الحلال والحرام : ١٦٤ .

(٣) مسلم وأبو داود .

(٤) أحمد وأبو داود والبزار .

إِخْوَة ﴾ (١) والرسول الكريم يقول : « مثل المؤمنين وفيه توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » (٢) وشتان بين فتى ينشأ وفي حسه وضميره وفهمه وشعوره الانتساب الحي لأمة الإسلام ، وآخر ينشأ فاتر الحس ميت الشعور فاقد الإدراك ، مقطوع الصلة والانتماء .

ثانياً : حقوق الزوجة على زوجها :

١ - القيام بحق القوامة التي أعطته إياه الفطرة وسلحته بمسؤوليتها فيؤدي لزوجته حقوقها المادية والمعنوية ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ (٣) .

٢ - أن يعاملها بالرفق والحنان مقدراً طبيعتها وذلك معنى المعروف الذي أشارت إليه الآية الكريمة :

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ (٤) ، والآية الأخرى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ يَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾ (٥)

وقد وصى رسول الله بالنساء في آخر خطبة له مؤكداً ذلك المعنى فقال : « أما بعد أيها الناس .. إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق : لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن ، فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في

---

(١) الحجرات : ١٠ .
(٢) رواه مسلم .
(٣) النساء : ٣٤ .
(٤) البقرة : ٢٢٨ .
(٥) النساء : ١٩ .

المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف » .

« واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد » (١) .

وقد سأل رجل النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : « أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ، ولا تهجر إلا في البيت » (٢) .

٣ - رعاية دينها وأخلاقها بأن يكمل الناقص عندها بإيجاد الحوافز المعينة على ذلك ويأخذها بالتدريج ، فإن الفتاة المسلمة في بلادنا أهملت في جوانب كثيرة ، وعلمت كما يعلم الفتى ، وعلى الزوج أن يعلم أن تفقيهها من أول واجباته ، يقول الله تعالى :.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُم وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (٣) . ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ (٤) .

ومما يتم الواجب به أن يجعلها تزور الصالحات وترتاد دروس العلم وتشهد المحاضرات العلمية النافعة ويكون لها مكتبة منزلية منتقاة .

٤ - أن يصبر عليها فالكمال لله وحده والعصمة لنبيه ، والحياة من شأنها التغير والتبدل ، والنفوس من طبعها التقلب والصبر هو خير معوان على ما يلقاه

---

(١) الوثائق السياسية للدكتور محمد حميد الله ، دار الإرشاد ، ط ٨٩/٣ هـ /٦٩ م ص ٣٠٨
(٢) أبو داود وابن حبان فى صحيحه .
(٣) التحريم : ٦ .
(٤) طه : ١٣٢ .

الإنسان وخاصة في وأهل بيته ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ وقوله تعالى :

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بَالصَّبْرِ ﴾ .

وقوله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت واستوصوا بالنساء خيرا فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، إن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج ، استوصوا بالنساء خيرا » [١] .

والحديث الآخر : « لا يفرك (أي لا يبغض) مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر ، أو قال غيره » [٢] .

ثالثاً : حق الزوج على زوجته :

١ - أن ترعى زوجها ، فتكون سكنه وراحته ، فلا يرى منها إلا ما يحب ، سئل رسول الله ما خير النساء ؟ فقال : « خير النساء من إذا نظرت إليها سرتك وإذا غبت عنها حفظتك في مالك وولدك »[٣] . فعليها تهيئة بيته تهيئة تجعله يرى فيه الأنس والجمال ، وعليها أن تلاحظه وتشاركه آلامه وآماله ، فتفرج عنه في الأولى وتشجعه لتحقيق الثانية ، فتكون بذلك خير معين له ، فيزداد قدرها في نفسه .

٢ - أن ترعى طاقته وقدرته في الإنفاق ، وتساعده بتدبير معاشه ، فقد نهاها الله عن الإسراف والتبذير كما حرم البخل والتقتير ، وخير الأمور التوسط والعدل ، قال تعالى :

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه أحمد والنسائي .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (١)
﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴾ (٢) .

وكثيراً ما أفسد البيوت وعرضها للدمار تطلع بعض النساء إلى الاستكثار من ملابس (الموضات) وأدوات الزينة على حساب بيوتهن وأزواجهن وأولادهن ، وهو باب ليس له نهاية والاقتصاد فيه واجب المرأة المسلمة ، وقد جعل الله الجمال في البساطة والنظافة . فلتحذر المرأة المسلمة الأخطار الاجتماعية والاقتصادية الناجمة عن جريها وراء الكماليات المبددة لثروة الأسرة والأمة فيما لا يغني ولا يفيد .

٣ - أن تطيعه في نفسها وتحفظه في بيته ، قال ﷺ : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تأذن في بيت زوجها وهو كاره ، ولا تخرج وهو كاره ، ولا تطيع فيه أحداً ، ولا تعتزل فراشه ، ولا تضربه إذا كانت أقوى منه جسداً » ، فإن كان هو أظلم فلتأته حتى ترضيه ، فإن قبل منها فبها ونعمت وقبل الله عذرها ، وأفلج (أي أظهر) حجتها ، وإن هو لم يرض فقد أبلغت عند الله عذرها ﴾ (٣) .

وفي الحديث الآخر : « ثلاثة لا ترفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً : رجل أم قوماً وهم له كارهون ، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط ، وأخوان متصارمان - أي متخاصمان - » .

---

(١) الفرقان : ٦٧ .
(٢) الإسراء : ٢٧ .
(٣) رواه الحاكم .

الفصل الرابع

حُقوق الأولَاد وَوَاجبَاتهُم

من ثمرات الزواج الكريم إنجاب الأولاد ، وبقدر صلاح الزوجين وتوافقهم وتعاونهم وعمق إيمانهم وفقههم ومعرفتهم بالحياة بقدر ما يكون أثرهم في تنشئة الأولاد تنشئة صالحة . ورسالة الأم هنا رسالة كبيرة لالتصاقها بالطفل وقضائها معظم أوقاتها معه ، وإليك ملخصاً لهذه الحقوق على سبيل المثال لا الحصر :

١ - حق الرضاعة :

إحسان استقبالهم بالأذان في آذانهم ، واختيار أحسن الأسماء لهم فإن الاسم له على صاحبه أثر وتأثير ، ومن السنة ذبح عقيقة يوم السابع من ولادته (١) ، ويوفر الرضاعة لهم ، وقد جعلها الإسلام من حق الطفل على والده ، قال تعالى :

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَة ، وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٢) .

---

(١) يفعل فى توزيعها مثل ما يفعل بالأضحية .

(٢) البقرة : ٢٣٣ .

وجاءت الآية جامعة شاملة مقيدة هذا الحق بالمعروف وبالوسع وقدر الطاقة مبعدة إياه عن الإضرار بأي من الوالدين مطالبة الوارث بهذا الحق إذا حدثت وفاة الوالد . وهذا من عظيم عناية الإسلام بالرضيع وللموضوع تفصيل في كتب الفقه وحسبنا هذه الإشارة ، كما يجب العناية بالأطفال في السنوات الأولى ، إذ هي سنوات التكوين العاطفي والانفعالي والمحاكاة لما تقع عليه أنظارهم ، فهي - كما يقولون - السن الخطرة ، وذلك يقتضي أن تكون سياسة الأبوين مع الطفل سياسة تجمع بين العطف والحنو والحزم مع الاهتمام الكبير بأن يكونا مثلاً صالحاً أمامه في كل ما يفعلون ويقولون .

٢ - حق الحضانــــة :

ومن الحقوق الهامة بعد حق الرضاعة « حق الحضانة » وقد جعلها الإسلام للأم عند نزاعها مع زوجها ومفارقتها له وذلك لكمال شفقة الأم ويكون لأمهاتها القربى فالقربى إن لم توجد لقوله ﷺ : « أنت أحق به ما لم تنكحي » [١] ، وقد قضى أبو بكر رضي الله عنه بعاصم بن عمر بن الخطاب لأمه ، وكانت مطلقة وأراد عمر انتزاعه منها ، وقال لعمر : ريحها وشمها ولطفها خير له منك .

واشترط الإسلام فيمن تقوم بهذه المسؤولية :

(أ) أن تكون أمينة على الطفل عالمة بمصالحه ، فلا تكون مستخفة ولا منحرفة .

(ب) أن تكون متفرغة فلا تكون متزوجة ولا عاملة بحيث لا ترعى شؤونه .

---

(١) أبو داود .

(ج) أن تكون مسلمة فلا ينبغي أن يوضع الطفل المسلم تحت رعاية من لا يؤتمنون على دينه وخلقه من الوثنيات والكتابيات .

وللحضانة أحكامها التفصيلية في كتب الفقه ، وإنما أوردنا ذلك للإشارة إلى اهتمام الإسلام بالطفل حتى يصل درجة تمكنه من القيام بأمره .

٣ - حق التربيـــة :

وهو حق عظيم وكبير وهو من المسؤولية التي سيسأل عنها الأبوان ففي الحديث : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » (١) . وقد جاء الأطفال على الفطرة المستقيمة :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وجاء الطفل بهذه البراءة الصافية والاستعداد الكامل للتوجيه ، فكان نموه بطيئاً ومتدرجاً ، يلتقط الأمور شيئاً فشيئاً :

﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣) .

وفي الحديث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا ويولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » (٤) . فمن حق الأطفال حينئذ :

١ - أن يغرس في نفوسهم الإيمان بالله عز وجل ، خالق الكون وبارئه بكل طريق يناسبهم فالأقصوصة الخفيفة ، والكلمة الحانية ، واللفتة إلى آثار صنع

---

(١) متفق عليه .

(٢) الروم : ٣٠ .

(٣) النحل : ٧٨ .

(٤) متفق عليه

الله في الكون والمخلوقات ، وحفزهم وتشجيعهم على التدرب على الصلاة ، ففي الحديث : « مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين ، وإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها » [(١)] ، وقراءة القرآن معهم بطريقة ترغبهم لا بطريقة تملهم وتثقل كاهلهم ، كل هذا من واجب الأبوين والمدرسة ، ثم تخير الأناشيد الجميلة والوصايا الخفيفة كوصية الرسول الكريم لابن عباس وهو غلام . وكذلك الأحداث الخفيفة من سيرة الرسول وأصحابه والسلف الصالح « كنا نعلم أولادنا مغازي رسول الله كما نعلمهم السورة من القرآن » ... وكذلك القصص العلمي والأدبي العام . والطفل في هذه السن عنده من الإقبال والطواعية ما يجعله مستعداً للتكوين ، وتباً وبواراً للذين يهملون أبناءهم ويسلمونهم لأيد غير أمينة أو يتشاغلون عنهم بالشواغل العارضة والنزوات الفارغة .

(ب) تمييز ما بين الذكر والأنثى في هدف التربية ، لا من حيث المعلومات العامة والتعليم العام ، ولكن من حيث إعداد كل منهما لما يحسنه ، فينبغي تعويد البنت على أخلاق الاحتشام والحياء وإشراكها في عمل البيت . ومن المهم أن تكون والدتها قدوة طيبة لها في اللباس . والأعمال والأخلاق ، ومما يعين على ذلك تعلم سورة النور وقصص الخالدات من المؤمنات ، ثم توجه إلى الجانب الذي يفيدها ويفيد مجتمعها من تعلم الطب أو التمريض ، أو التدريس وغير ذلك من فنون الثقافة المنزلية والخدمة الاجتماعية فهي بهذا أليق وأنسب .

(ج) تدريب ملكاتهم الحسية والفكرية بشغل أوقاتهم باللعب المفيد والمهارات الرياضية والفنية ، ففي الأثر : « علموا أولادكم السباحة والرماية ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا ورووهم ما يجمل من الشعر » وإتاحة الفرصة لهم للتعبير عن أنفسهم وإبداء آرائهم ، وشكاواهم وقد كان الرسول الكريم ﷺ يذهب إلى فاطمة ليلاعب ابنها الحسن ، وربما جاء الحسن إلى المسجد فالتزم ظهر

---

(١) أبو داود وأحمد والترمذي وقال : هذا حديث حسن .

النبي وهو ساجد فيطيل سجوده من أجله ثم يقول لأصحابه بعد الصلاة : « إن ابني ارتحلني ، وإني خشيت أن أعجله » وعمر رضي الله عنه كان يلاعب أولاده وهو خليفة .

(د) تعويدهم آداب الإسلام وأخلاقه في الاستئذان[1] واختيار الصديق وتوقير الكبير والرحمة بالصغير والضعيف والإحسان إلى الجار ، والتصدق على المساكين ، وأخذهم إلى المساجد حين يميزون ، فإن ذلك كله مما يثبت هذه القيم في نفوسهم ، ويعمق جذور الإيمان في قلوبهم بحب الإسلام والانتساب الحي له ، وينبغي اصطحابهم إلى دروس العلم والمحاضرات ، وزيارة دور الكتب والمتاحف والحدائق والأسواق ، فإن التربية المتكاملة تقتضي أن يعرفوا أنفسهم والعالم من حولهم .

(هـ) العدل بينهم في إعطاء كل منهم حقه دون تمييز ومحاباة ، فهم حساسون عاطفيون . وربما يكون أحدهم أزكى عقلاً من الآخر أو أرق من أخيه فتكون المحاباة ، ففي الحديث : « عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : تصدق علي أبي ببعض ماله فقالت أمي عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ فانطلق بي أبي إلى النبي ليشهده على صدقتي فقال رسول الله : أفعلت هذا بولدك كلهم ؟ قال : لا ، قال : اتقوا الله واعدلوا في أولادكم فرجع أبي فرد تلك الصدقة »[2] .

(و) رعاية التغيرات الاجتماعية والتطورات العالمية في ميادين الثقافة والترفيه فينبغي أن تكون سياسة الأبوين قائمة على التفتح واختيار الجيد والبعد عن سياسة الحرمان وإيصاد الأبواب ، والاعتماد على تكوين الحس الإسلامي في نفوس

---

(1) آيات الاستئذان فى سورة النور العام منها : ٢٧ ، وفى داخل البيت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ﴾ الآية ٥٨ ، والآية التى بعدها (وإذا بلغ الأطفال) الآية ٥٩ .

(2) رواه مسلم .

الأبناء فتكون عندهم بالتدرج القدرة على اختيار الأشياء الجيدة ، والبعد عن السفاسف والرذائل ، وهذا أمر يقتضي الحكمة وطول الأناة والصبر فإن التربية لا تأتي بين يوم وليلة ، وإلا فإن سياسة الزجر والعنف تدفع بالناشيء إلى التطلع إلى الممنوع ، ثم إشباع نفسه من هذا الممنوع والظهور أمام سلطة الأبوين بالخضوع الكاذب إلى أن ينتهي إلى ازدواج في شخصيته وربما اندفع إلى ازدرائهم وعدم الاهتمام بأوامرهم وإرشاداتهم بل والخروج عليهم .

واجبات الأبنـــاء :

إن واجبات الأبناء تتردد بين البر والطاعة . فالبر والطاعة : ثمرة تقدير الجميل العظيم والتعهد الطويل الذي حصل عليه الابن من أبويه وخاصة أمه التي حملته كرهاً ووضعته كرهاً ، وقامت على رعايته وليداً ، ولم يكرر القرآن وصاة أبلغ تأثيراً ، وأقوى عبارة - بعد عبادة الله وحده - كأمره بالإحسان إلى الوالدين وإكرامهما والعطف عليهما ، وما أجمل عبارة القرآن الكريم في قصة لقمان :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ آشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (١) .

فلم يقرن أحداً بالشكر معه وهو الخالق البارىء غيرهما تقديرا لجهدهما وجهادهما .

والبر له صوره المادية والمعنوية ، فمن صوره المادية تعهدهما بالنفقة والرعاية ، إذا كانا في حاجة ، وبالهدايا وتلبية المطالب المحببة إلى نفوسهما إذا لم يكونا في حاجة . وقد قدر الإسلام هذا الجانب إذ جعله من حقهما ، وسمح بتخلف الابن عن الجهاد إذا كان أبواه في حاجة إلى سعيه وكسبه . فقال رسول

---

(١) لقمان : ١٤ .

الله ﷺ لمن أراد الجهاد : « ألك أبوان كبيران ؟ قال : نعم ، قال : ففيهما فجاهد » .

ومن البر المعنوي تعليمهما وإرشادهما إن كانت فرصة التعليم قد فاتتهما ، فقراءة القرآن بين يديهما ، وقراءة العلم النافع عليهما ، ثم إعانتهما على أداء الحقوق الواجبة عليهما من أداء الفرائض ، وسداد الديون وصلة أرحامهما .. ومن البر المعنوي أن يكون الابن صورة كريمة للأخلاق الفاضلة فيقر عين والديه ويجلب لهما الدعوة الصالحة ممن يشاهدون أفعاله وأعماله ، كما يتأكد البر ويلزم عند بلوغهما سن الشيخوخة والكبر ، وهو سن حساس يقتضي تقديراً واهتماماً ، واستمع إلى الحكيم الخبير في وصيته الرائعة ، إذ يقول :

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ (١) .

سئل رسول الله ﷺ : « أي الأعمال أفضل يا رسول الله ؟ قال : الصلاة على مواقيتها ، قال : ثم أي ؟ قال : بر الوالدين ، قال : ثم أي ؟ قال : الجهاد في سبيل الله » (٢) .

وسئل مرة أخرى : « من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أبوك » (٣) .

---

(١) الإسراء : ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) متفق عليه .
(٣) متفق عليه .

وكان من أكبر الكبائر : عقوق الوالدين . قال رسول الله ﷺ : « ألا أدلكم على أكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين وكان متكئاً فجلس وقال : ألا وقول الزور » [1] .

٢ – الطاعة : أما الطاعة فتختلف حسب السن ، ففي الصغر ، ينبغي طاعتهما ، فهما أعرف الناس بحاجته ، وأحنى الناس عليه ، وأقدر على وزن الأمور منه . فينبغي طاعتهما ، وعند الكبر تقدير رأيهما واستشارتهما وطاعتهما في المعروف فهذا مما يثلج صدريهما ويدخل السرور عليهما ، فإن إهمالهما وعدم طاعتهما جحود لهما ، وقد قرر القرآن ذلك في وصية لقمان حين أمر فقط بمخالفتهما في الشرك وما يجري مجراه ، أما غير ذلك فالمصاحبة بالمعروف هي الواجبة . قال تعالى :

﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [2] .

أين هذا من الضياع والإهمال الذي يلقاه الأبوان في دنيا الغرب ، لقد وصل الجحود وتبلد الإحساس وفقدان العاطفة حداً جعل البنت في المجتمع الغربي تأخذ أمها العجوز قسراً – وهي تبكي – لتدخلها بيوت العجائز ، كي تتخلص من خدمتها وبرها وتتركها تعيش حياتها الباقية مقطوعة عن وليدتها وأحفادها ، فتقضي أيامها كمداً وألماً . وتلكم إحدى الثمرات المرة لتربية الغرب المادية النفعية ، فليقدر الآباء والأبناء نعمة الله علينا ولنحرص على البر والطاعة في المعروف ، ونمنع آفات التقليد وأمراض الحضارة الغربية .

---

(١) متفق عليه .

(٢) لقمان : ١٥

الفصــــل الخامـــس

المـــــيرَاث

تركة الميت – الحقوق الواجبة فيها :

ربط الإسلام الحياة الدنيا بالآخرة ، وجعل الأولى مزرعة للثانية ، وكان عمل المسلم فيه من الخلود بمقدار إخلاص نيته واتباع شريعة نبيه ، واطردت هذه النظرة في كل تشريعات الإسلام ولم تتخلف عند مغادرة المسلم هذه الحياة . فقد اهتم الإسلام بوفاء الحقوق التي كانت منوطة به وواجبة عليه أثناء حياته وتأخر في أدائها ؛ فطالب ورثة الميت بتنفيذ هذه الحقوق قبل أخذ أنصبائهم ، وقد جاءت مترتبة على النحو الآتي :

١ – كفنه ومؤونة تجهيزه : فمن السنة الإسراع في ذلك ، قال ﷺ : « إني لأرى طلحة قد حدث فيه الموت فآذنوني به ، وعجلوا فإنه لا ينبغي لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهراني أهله » . [رواه أبو داود] .

وأقل ما يجزىء في الكفن ثوب يستر جميع بدنه ، ويستحب تحسينه لأن النبي ﷺ قال : « إذا ولي أحدكم أخاه فليحسن كفنه » [رواه مسلم] . ويكون جديداً أو غسيلاً ، إلا أن يوصي الميت بتكفينه في ثوبٍ خلق فتمتثل وصيته لأن أبا بكر قال : « كفنوني في ثوبي هذين ، فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت » وكفن الميت واجب في ماله ومقدم على الدين والوصية (١) .

---

(١) الكافي : ١ ، ٣٣٨ .

٢ – قضاء الديون التي عليه : وهي إما ديون لله تعالى ، أو ديون للناس وتقدم ديون الناس لتعلق حقوقهم (١) بها ولانشغال ذمته بها وما بقي يخرج منه الديون التي لله تعالى كالزكاة والكفارة والحج والنذر إلخ ، لأن رسول الله ﷺ كان يسأل إذا قدم له ميت للصلاة عليه : هل عليه دين ؟ وكان لا يصلي عليه حتى يتحمل أحد دينه ، أو يأذن لأصحابه في الصلاة عليه ، وتستحب المسارعة في ذلك لما روي أن النبي ﷺ قال : « نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه » ، ولقوله تعالى :

﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ (٢) .

قال علي رضي الله عنه : « إن النبي ﷺ قضى أن الدين قبل الوصية » [رواه الترمذي وابن ماجة] .

٣ – تنفيذ وصاياه من ثلث ماله : لقوله تعالى :

﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ .

ولحديث سعد : « الثلث والثلث كثير » متفق عليه ، وقد فهم الصحابة من الحديث استحباب الشارع أن تكون الوصية في الربع أو الخمس . قال ابن عباس : « وددت لو أن الناس غضوا من الثلث » وعن إبراهيم : « كانوا يقولون صاحب الربع أفضل من صاحب الثلث ، وصاحب الخمس أفضل من صاحب الربع » [رواه سعيد] . وأوصى أبو بكر الصديق بالخمس وقال : « رضيت بما رضي الله به لنفسه » يريد قوله تعالى :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ ﴾ (٣) .

---

(١) زاد المعاد : ١ ، ١٤١ .
(٢) النساء : ١١ .
(٣) الأنفال : ٤١ .

وقال علي رضي الله عنه : « لأن أوصي بالخمس أحب إلي من الربع » [1] .

٤ - الورثة : ونصيبهم ما بقي من التركة ، وسنفصل القول في الميراث لتتضح حكمة الشارع وتدحض الشبهات ، وإليك البيان :

الميراث في الجاهليـة :

كان العرب في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير ، وإن كان ذكراً ويقولون : (لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل ، وطاعن بالرمح ، وضارب بالسيف وحاز الغنيمة) [2] فجاءت سورة النساء الكبرى [3] تبطل مظالم الجاهلية مبتدئة الأمر بالوصية بالأرحام ، مهتمة باليتيم وآمرة الأوصياء بحسن القيام على ماله وناهية عن تبديل الخبيث بالطيب من ماله ، ثم مقررة حق الميراث للمرأة والصغير :

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَ لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضًا ﴾ [4] .

قال القرطبي : « نزلت في أوس بن ثابت الأنصاري ، توفي وترك امرأة يقال لها : أم كجة وثلاث بنات له منها ، فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه يقال لهما : سويد وعرفجة ، فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته وبناته شيئاً - على ما كانا يفعلانه في الجاهلية فذكرت (أم كجّة) ذلك لرسول الله ﷺ فدعاهما ، فقالا : يا رسول الله : ولدها لا يركب فرساً ، ولا يحمل كلاً ، ولا ينكأ عدوًا . فقال

---

(١) منار السبيل : ٢ : ٣٧

(٢) القرطبي : ٥ ، ٤٦

(٣) ويعنى بها سورة النساء ، وقوله تعالى فى بدايتها : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ﴾

(٤) النساء : ٧

عليه السلام : « انصرفا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن » . فأنزل الله هذه الآية رداً عليهم وإبطالاً لقولهم وتصرفهم بجهلهم ، فإن الورثة الصغار كان ينبغي أن يكونوا أحق بالمال من الكبار لعدم تصرفهم وقدرتهم والنظر في مصالحهم ، فعكسوا الحكم ، وأبطلوا الحكمة فضلوا بأهوائهم وأخطؤوا في آرائهم وتصرفاتهم »[1] .

حكمة الميراث :

جاء الميراث يلبي في الإنسان دافع الفطرة ورغبتها في أن تمتد آثار الخير إلى عقبه وذريته ، وجاء تشريع الميراث يضبط العاطفة ويسع اتباع الحق للهوى فأبطل ما كان عليه أهل الجاهلية ، وبذلك وسع دائرة الخير والنفع وحرض الرسول الكريم على ترك الورثة أغنياء وجعل ذلك خيراً من تركهم عالة يتكففون الناس[2] ، وبهذا الصنيع حفز المسلمين على تنمية ثرواتهم من جهة وحقق العدالة بينهم من جهة أخرى ومنع تكدس الأموال من جهة ثالثة فلم يفعل ما فعلته الأنظمة الأخرى من حبس الثروة في الابن الأكبر . وبذلك حقق مبدأه العام من : « ألا يكون المال دولة بين الأغنياء فقط » وما أجمل ختام الآية الثانية من آيات المواريث حين قال العليم الخبير :

﴿ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[3] .

---

(١) القرطبي : ٥ : ٤٦ .

(٢) يقول الرسول الكريم لسعد بن أبي وقاص : « لأن تدع ورثتك أغنياء خير لهم من أن تتركهم عالة يتكففون الناس » .

(٣) النساء : ١١ .

لماذا جاء مفصلاً ؟

وجاء تشريع الميراث مفصلاً ووحياً يتلى لأن توزيع التركات لا يتأثر بتغير البيئات ولا الأزمان ، وهذا ما اقتضته حكمة العليم الخبير في كل أمر يشبه الميراث مثل الزواج والطلاق والرضاعة والحدود والجنايات ... الخ . ومما لا شك فيه أن هذا التفصيل يعين على اطراد الأمن والعدل في المجتمع المسلم ومن ثم يدفع إلى ازدهاره واستقراره فلا خطر أبلغ من الاضطرابات والقلق في أساسيات الجماعة وسبل ترابطها . ومن هنا ندرك اهتمام الرسول الكريم بتعلم الفرائض ووصاته بذلك : « تعلموا الفرائض وعلموها الناس فإني امرؤ مقبوض ، وإن العلم سيقبض ، وتظهر الفتن حتى يختلف اثنان في الفريضة فلا يجد من يفصل بينهما » [رواه أحمد والترمذي والحاكم] .

أسبـــاب الإرث :

١ - النسب : وهو القرابة المتصلة بالميت سواء كانت قريبة أو بعيدة ، يقول الله تعالى : ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ (١) وهذه القرابة تشمل الآباء والأبناء والإخوة على تفصيل ذكرته الآية الكريمة : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ... الخ ﴾ .

٢ - النكاح الصحيح : يقول الله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ ... الخ ﴾ .

٣ - الولاء : وهو يكون بين المعتق ومن أعتقه لحديث ابن عمر مرفوعاً : « الولاء لحمة كلحمة النسب » [رواه ابن حبان والحاكم وصححه] .

---

(١) الأحزاب : ٦ .

موانع الإرث :

ويبطل الإرث ولا تعمل أسبابه بأحد أمور ثلاثة :

١ - القتل : فمن قتل مورثه حرم من ميراثه ، فعن ابن عباس مرفوعاً : « من قتل قتيلاً فإنه لا يرثه . وإن لم يكن له وارث غيره ، وإن كان والده أو ولده فليس لقاتل ميراث » [رواه أحمد] ؛ لأنه استعجل أمراً فعوقب بالحرمان منه .

وقال عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليس لقاتل شيء » [رواه مالك في الموطأ] .

٢ - الرق : فلا يرث العبد قريبه لأنه لو ورث شيئاً لكان لسيده .

٣ - اختلاف الدين : فلا يرث مسلم كافراً ، ولا كافر مسلماً ، فعن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر » [متفق عليه] .

أنصباء الورثة وكيف تقسم ؟

يدور توزيع الميراث في شريعة القرآن حسب صلة الورثة بالميت وبمدى قربهم وبعدهم منه ، وهذا ما تقتضيه الفطرة السليمة وتوجبه النظرة العادلة ، وقد أوضحت آيات الميراث أن الاستحقاق ينبني على القواعد الآتية :

١ - قرابة الولادة : وهذا يشمل الآباء والأبناء وهم ما يسمون بالأصول والفروع وهؤلاء لا يسقطون في أصل الاستحقاق بحال ما ، وإن كان يؤثر عليهم وجود غيرهم في كمية ما يستحقون ، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة :

﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ

الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ (١) .

٢ - قرابة الأخوة : تشمل من الذكور الأخ مطلقاً شقيقاً كان أو لأب أو لأم ومن الإناث الأخت مطلقاً شقيقة كانت أو لأب أو لأم على تفاوت في الأنصبة لكل منهما أوضحته آية الكلالة في أول سورة النساء وفي آخرها :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ (٢) إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شيءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .

﴿ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ، فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ واللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ (٤) .

٣ - قرابة الزوجية : وتشمل من الذكور الزوج ، ومن الإناث الزوجة ، وهذا ما أوضحته الآية الكريمة :

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُم وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ (٥) .

---

(١) النساء : ١١ .
(٢) الكلالة : من لا والد له ولا ولد .
(٣) النساء : ١٧٦ .
(٤) النساء : ١٢
(٥) النساء : ١٢ .

فتكون هذه الجهات الثلاث هي الجهات الرئيسية التي يتم على أساسها التوريث ، وجاءت الفروض المقدرة لهم حسب قربهم وحسب نوعهم فإذا اجتمع ذكور وإناث من مرتبة واحدة كان للذكر مثل حظ الأنثيين ، وحدد أصحاب الفروض تبعاً لذلك .

الفروض المقدرة - التعصيب - والحجب :

والفروض المقدرة في كتاب الله تعالى ستة : النصف ، والربع ، والثمن ، والثلثان ، والثلث ، والسدس ، وأما ثلث الباقي فقد ثبت بالاجتهاد .

وتخضع عمليات الميراث إلى أن يكيف الوارث بالنسبة لمورثه ، فإما أن يكون صاحب فرض ، أو عصبة ، أو يطرأ عليه حجب بالحرمان أو النقص ، فمثلاً البنت بالنسبة لميراثها صاحبة فرض والأخ مع أخته يعصبها ، والأب يحجب الجد حجب حرمان ، وولد الزوجة يحجب الزوج حجب نقصان فينزله من النصف إلى الربع وهكذا على تفصيل دقيق استوفته كتب الفقه والفروع . وإنما أردنا فقط أن نعطي الصورة الكلية لندرك دقة الشارع وحكمته واستيفاءه للقضية استيفاء تاماً ، وصدق الله في ختام الآية الأخيرة من آيات الميراث حين قال : ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ، واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٍ ﴾ .

لماذا أعطى الذكر ضعف الأنثى ؟

ولعل قائلاً يقول : لماذا ميز الإسلام الرجل عن المرأة في الميراث وجعلها على النصف منه ؟ ألم يكن الأولى ما دام قد أنصفها وقرر لها هذا الحق أن يطرد الأمر فيساويها بالرجل ؟ ولنا أن نتساءل للإجابة على هذه الشبهة ، هل مسؤوليات الرجل والمرأة واحدة ؟ أم أن كلاً منهما قد طولب بمسؤوليات تختلف عن الآخر ؟ فإذا صح هذا وهو الحق الذي لا مرية فيه ولا يختلف عليه اثنان ، فلا تعتبر شريعة الإسلام محابية للرجل ، بل إنها جاءت بالقسط ولو ساوتهما لكان ذلك ظلماً تأباه الفطرة ولا يقره الإسلام ، فالرجل هو الذي يخلف أباه في المنزل ، وهو الذي

يتكلف المهر وتأسيس بيت الزوجية والإنفاق ورعاية الأولاد . والمرأة في كل ذلك مكرمة مشمولة بالرعاية والحدب دون أن تسأل شيئاً مادياً ، إذ كما قال الفقهاء : الغنم بالغرم ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وبِمَا أَنْفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ . وحتى في حالات تعذر استمرار الحياة الزوجية فالحضانة والمتعة والنفقة مطالب بها الرجل فهل يجوز بعد ذلك في منطق العقل والرشد أن يقول قائل : إنها مغبونة ، كلا وربي إنها مكرمة ومصانة وبنظرة واحدة للأنظمة الأخرى نعرف صدق ما نقول ، ونحمد الله رب العالمين .

ومن الشبهات من يقول : إن التأمين يقوم مقام الميراث ، وهذا قول لا يدريه قائله ، إذ إن التأمين بمعنى ادخار بعض المال من راتب الموظف كما تفعله مصلحة المعاشات ليعطاه عند التقاعد أو الموت ، فهذه تركة تقسم على الورثة بعد موت صاحبها كما تقسم سائر أمواله على نحو ما بينا . أما التأمين على الحياة الذي يخضع بعد الوفاة لتنظيم آخر وتقسيم آخر ، فهذا ما لا يقبله الإسلام ولا يرضى به ، إذ إنه عقد فيه من الغرر والجهالة ما يستوجب بطلانه وفساده . والله أعلم .

البــاب الرابـــع

نظــام الإســــلام

في حَال انحِلَال الأسْــرَة

الفصل الأول : منهج الإسلام في علاج مشاعر الكراهية والنشوز .

الفصل الثاني : الطــلاق .

الفصل الأول

مَنهَجُ الإسْلَامِ في عِلَاجِ مَشَاعِرِ

الكَرَاهِيَةِ وَالنشُوزِ

يعالج الإسلام انحلال الأسرة في مرحلتين : مرحلة ما قبل الطلاق ويسلك فيها سلوكاً نفسياً وعملياً ، فيعالج أسباب التصدع والانشقاق داخل الأسرة مستعيناً بالزوجين مرشدا إياهما إلى بذل ست خطوات تشمل : ١ - علاج مشاعر الكراهية في مهدها ٢ - نشوز الزوج وسبيل إصلاحه ٣ - نشوز الزوجة وعلاجه بالعظة ٤ - والهجر في المضجع ٥ - والإيذاء البدني البسيط ٦ - وفي النهاية التحكيم بينهما ، فإذا لم تنجح هذه الخطوات ، انتقل إلى مرحلة الطلاق ، وإليك بيان مرحلة ما قبل الطلاق :

مسلك الإسلام في علاج مشاعر الكراهية :

أحاط الإسلام الأسرة بكل ما يكفل لها السعادة والاستقرار ، وتعهدها بوصاياه الخلقية وتدابيره القانونية من إشعار الزوجين بمسؤليتهما وطلبه إليهما ما تقضيه تلك المسؤلية من التعاون والتشاور والتناصح . وخص الزوج لرياسته وقوامته بمزيد من الوصايا ، فطالبه بحسن الرعاية ، وإظهار قدرته وحنكته وإيمانه وصبره عند تقلب النفوس وهبوب ريح الضجر وظهور أسباب الجفاء ، وعليه حينئذ أن يحذر هوى النفس ووساوس الشيطان ، وخطر الانفعالات وثورات الغضب ، وقد جاء التوجيه الرباني الكريم يضع يد المسلم على هذا الجانب ويحذره الانسياق وراء مشاعر الكراهية الوقتية ولفته إلى أنه لا ينبغي أن يحكم المشاعر

وحدها ، بل يتقي الله في زوجته ، ولا ينظر إليها بعين السخط ، فإن كره منها خلقاً رضي الآخر ، ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ؟ قال الله تعالى :

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾ (١) .

قال ابن كثير : « أي طيبوا أقوالكم لهن وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم ، كما تحب ذلك منها فافعل أنت مثله كما قال تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٢) ثم يقول في الشطر الأخير : « فعسى أن يكون صبركم في إمساكهن مع الكراهية فيه خير كثير لكم في الدنيا والآخرة » وفي الحديث الصحيح : « لا يفرك (يكره) مؤمن مؤمنة إن سخط منها خلقاً رضي منها آخر » (٣) .

منهج الإسلام في علاج النشوز :

فإذا تطورت مشاعر الكراهية ، وتجاوزت الطور النفسي إلى إساءة العشرة والتمرد والشقاق والعصيان ، فإما أن يكون ذلك من الزوج أو الزوجة ، وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم بالنشوز ، فإن كان من جانب الزوج ، طولبت المرأة بعلاج زوجها والبحث عن الأسباب التي جعلته يسلك هذا المسلك ، ولها من وسائل الترغيب والعطف والحنان ما يمكنها من القضاء على أسباب جموحه وتمرده ، وفي ذلك يقول الله عز وجل :

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ (٤) .

---

(١) النساء : ١٩ .
(٢) البقرة : ٢٢٨ .
(٣) ابن كثير : ٢ ، ٢٢٩ .
(٤) النساء : ١٢٨

فإن نجحت فيها ... وإلا وجب التدخل بالإصلاح بينهما ، فلا تستقيم الحياة على شقاق وخلاف

وأما إذا كان النشوز من المرأة ، فقد شرع الله عز وجل لعلاجها ثلاث مراحل على التوالي ، يقول الله تعالى :

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ واللاتي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً ﴾ (١) .

فقرر أولا أوصاف الزوجات الصالحات بأنهن « قانتات » يعني المطيعات لأزواجهن ، « حافظات للغيب » أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله (٢) ثم أعقب ذلك بعلاج الناشزات « أي المسيئات للعشرة العاصيات » فأرشد إلى العظة ، والهجر في المضجع ، والضرب :

١ - **العظة** : وقد كان تعبير القرآن دقيقاً ورقيقاً حين لفت نظر الأزواج إلى أنه ينبغى إذا شعروا ببداية النشوز أن يسارعوا إلى علاج الداء قبل استفحاله إذ قال : ﴿ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾ .

فيبدؤوا بالكلمة الحانية وهذا ما تقتضيه العظة ، إذ العظة هي القول المؤثر ، قال الخليل : « هو التذكير بالخير بما يرق له القلب » وتشمل أيضاً الزجر مع التخويف (٣) . والمهم هو علاج الحالة بما يناسبها فقد تعالج بأن يعظها أحد أقاربها أو إحدى صديقاتها أو غير ذلك . وهذا ما يقتضيه أمر الله لنا باتخاذ الحكمة أسلوباً وسبيلاً ، يقول سبحانه :

---

(١) النساء : ٣٤ .

(٢) ابن كثير : ٢ ، ٢٧٦ .

(٣) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني : ٥٢٧ .

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (١) .

٢ - **الهجر في المضجع** : فإذا لم تفلح الموعظة انتقل إلى طور آخر وهو مجافاتها في النوم ، وهذا أمر قاس على النساء ، فإن أهم شيء تدلُّ به المرأة جمالها وأنوثتها ومكان ذلك فراشها ، فلعلها إذا وجدت منه تآبيًا انعطفت في نفسها ، فترعوي عن عصيانها وتمردها ، سئل رسول الله ﷺ : ما حق زوجة أحدنا ؟ قال : « أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت » (٢).

٣ - **الضرب غير المبرح** : فإذا لم يفلح الوعظ ولا الهجر في المضجع سمح الإسلام بقليل من الإيذاء البدني عله يرد هذه المتمردة إلى رشدها ورعاية بيتها وزوجها . وقد حدده الفقهاء بأنه يكون غير مبرح لا يكسر عظماً ولا ينشز لحماً ، وأن يتقي فيه الوجه والمواضع المخوفة لأن المقصود التأديب لا الإتلاف ، وقد يكون من النوع الذي هدد به عليه الصلاة والسلام خادمته حين قال : « لولا القصاص يوم القيامة لأوجعتك بهذا السواك » (٣) ويقتصر فيه على الظرف الذي يقتضيه ، فلا يكون ذلك ديدنه ، فقد نفر رسول الله من ذلك وقال : « علام يضرب أحدكم امرأته ضرب العبد ولعله يجامعها في آخر اليوم » (٤) . وقال في شأن من يتعود هذه العادة : « لا تجدون أولئكم خياركم » (٥) .

انحراف في فهم التأديب :

وقد يخطىء البعض في فهم تشريع الضرب كمرحلة أخيرة لعلاج النشوز وقد رد على ذلك الشيخ شلتوت - عليه رحمة الله - تحت عنوان : انحراف في

---

(١) النحل : ١٢٥ .
(٢) أبو داود .
(٣) ابن سعد في الطبقات .
(٤) أخرجه الإمام أحمد .
(٥) أحمد وأبو داود والنسائى .

فهم التأديب فقال : « وقد أساء المتحضرون من أبناء المسلمين فهم هذا النوع من العلاج ، ووصفوه بأنه علاج صحراوي جاف ، لا يتفق وطبيعة التحضر القاضي بتكريم الزوجة وإعزازها .

إن الإسلام لم يكن لجيل خاص ، ولا لإقليم خاص ، ولا لبيئة خاصة ، وإنما هو إرشاد وتشريع لكل الأجيال ، ولكل الأقاليم ، ولكل البيئات . ولم ينظر إلى هذا العلاج الأخير إلا كما وضعه بعد الوعظ والهجر » .

وقد أبرز القرآن الصنف المهذب من النساء اللاتي يترفعن بخلقهن وتربيتهن وإيمانهن ، عن النزول إلى درك المستحقات للهجر ، فضلاً عن درك المستحقات للضرب ، وأفرغ عليهن من صفات الإجلال والتكريم ما يجدر بكل زوجة أن تعمل على التحلي بها والانطباع عليها .

والواقع أن التأديب المادي لأرباب الشذوذ والانحراف ، الذين لا تنفع فيهم الموعظة ولا الهجر ، أمر تدعو إليه الفطرة ويقضي به نظام المجتمع .

وقد وكلته الفطرة في الأبناء إلى الآباء ، كما وكلته في الأمم إلى الحكام ، ولولاه لما بقيت أسرة ، ولا صلحت أمة ، وما الحروب المادية التي عمادها الحديد والنار بين الأمم المتحضرة الآن ، إلا نوع من هذا التأديب في نظر المهاجمين ، وفي تقرير الشرائع لظاهرة الحرب والقتال ﴿ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (١) .

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) الحجرات : ٩ .
(٢) البقرة : ٢٥١ .

ونود أن نسأل :

هل من كرامة الرجل أن يهرع إلى طلب محاكمة زوجته ، كلما انحرفت أو خالفت أو حاولت أن تنحرف أو تخالف ؟

وجدير بالمرأة العاقلة أن تجيب عن هذا السؤال :

أتقبل أن يهرع زوجها كلما وقعت في شيء من المخالفة إلى أبيها أو إلى الحاكم وينشر ثوبها أمامه ؟

أتقبل أن تترك تسترسل في نشوزها فتهدم بيتها وتشرد أطفالها ، أم تقبل – وهي هادئة مطمئنة – أن ترد إلى رشدها بشيء من التأديب المادي ، الذي لا يتجاوز المألوف في تربيتها لأبنائها ؟

أنا لا أشك في أن جواب العاقلة في حال هدوئها عن هذين السؤالين سيكون واضحا في اختيار ما اختار الله .

تلبيس وتملـــق :

والحق أن هؤلاء المتأففين من تشريع التأديب على هذا الوجه ، يلبسون على الناس ، ويلبسون الحق بالباطل ، فلم يكن الضرب هو كل ما شرع الإسلام من علاج ، ولا هو أول ما شرع الإسلام من علاج ، وإنما هو واحد من أنواع ثلاثة هو آخرها في الذكر ، كما هو آخرها في الالتجاء إليه .

والحق – مرة أخرى – أن هؤلاء المتأففين من تشريع القرآن في هذا المقام ليسوا إلا متملقين لعواطف بيئة خاصة من النساء نعرفها ويعرفونها جميعاً ، يتظاهرون أمامها بالحرص على كرامتها وعزتها ، وعلى أن تكون في مستوى لا تعلق به الأبصار إلا على نحو خاص[1] .

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة : ١٧٠ ، ١٧٢ .

التحكيم عند بلوغ الأمر درجة الشقاق بين الزوجين :

وإذا لم تفلح وسائل العلاج السابقة ، وتفاقمت الحالة بأن نفر كل من الزوجين من صاحبه ، وأصبح كلاهما كارها للآخر ، وجب التدخل لإصلاح الأمر ، والإسلام يكره فساد ذات البين ، لأن فيه تأجيجا للخصومة ، والخصومة تدفع إلى الفجر والفسوق ، ولذا قال رسول الله : « إياكم وفساد ذات البين فإنها الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين » ، ولذا كرر الإسلام الأمر بالإصلاح وحض عليه وجعله من أفضل الأعمال فقال تعالى :

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (١)

وأولى الناس بالإصلاح من يظلهم سقف واحد وتجمعهم وشيجة مقدسة كوشيجة الزوجية والأرحام .

وسواء وصل خبر شقاق الزوجين لعائلتيهما أو لولي الأمر ، فعلى من يصله الخبر من أي منهما أن يسارع بتعيين حكمين عدلين فقيهين ، أحدهما من أهل الزوج والآخر من أهل الزوجة ليقوما بمهمة الإصلاح وذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ (٢) .

وهذا علاج حكيم ، فكل حكم منهما لقرابته من الطرف النائب عنه يستطيع فهم المشكلة ومن ثم يُقدر الحكمان الأمر حق قدرهُ وقد بشرتهما الآية بأنهما إذا عزما على الإصلاح فالتوفيق سيكون حليفهما ﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا ﴾ .

---

(١) النساء : ١١٤ .

(٢) النساء : ٣٥ .

وللحكمين بعد دراسة الأمر والمحاولة الجادة أن يقررا الوفاق أو الفراق على رأي الجمهور ، ويكون حكمهما بالفراق طلاقاً بائناً ، وفي رأي آخر ليس لهما إلا الحكم بالوفاق ، وقد نفذ المسلمون التحكيم في عهد الصحابة ، أمر به عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، ثم إن فيه حفزاً للمجتمع المسلم وللأسر وللعائلات أن يتدخلوا للعلاج ، وفي التحكيم أيضاً صيانة لأسرار العائلات وحفظ لها من أن تلوكها الألسن وتنشر بين الناس ، فالإسلام يكره إشاعة الشر ، ويتوعد عليه ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

* * *

(١) النور : ١٩

الفصـــل الثانـــي

الطــــلاق

الطلاق في الشريعتين اليهودية والمسيحية :

كان الطلاق شائعاً قبل الإسلام ، فاليهودية تقرر الطلاق ، وتطلب إلى الرجل أن يعطي امرأته المطلقة وثيقة بالتسريح ، ولها أن تتزوج بغيره بعد ذلك ، ولكنها لا تعود للأول إذا طلقت من الثاني أو توفي عنها ذلك الزوج ، قال في الإصحاح الرابع والعشرين من سفر التثنية : « إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها ، فإن لم تجد نعمة في عينيه ، لأنه وجد فيها عيباً (شيناً) ، وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها ، وأطلقها من بيته ، ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر ، فإن أبغضها الرجل الأخير ، وكتب لها كتاب الطلاق ، ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته ، أو إذا مات الرجل الأخير الذي اتخذها زوجة ، لا يقدر رجلها الأول الذي طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجست ، لأن ذلك رجس لدى الرب .. »[1]وفي كتاب أرميا : « إذا طلق الرجل امرأته فانطلقت من عنده وصارت لرجل آخر فهل يرجع إليها بعد ؟ ألا تتنجس تلك الأرض نجاسة » [2]

أما الشريعة المسيحية فتروي الأناجيل على لسان السيد المسيح أنه حرم الطلاق كما حرم زواج المطلقة وقال : « إن من طلق امرأته لغير الزنى جعلها تزني »

---

(١) المرأة في القرآن : ١٣٨ . للأستاذ العقاد .

(٢) المصدر السابق : ١٣٨ .

وقال : « من يتزوج مطلقة فإنه يزني » (١) . ويبدو أن هذا كان علاجاً مؤقتاً للحرية التي مارسها اليهود في أمر الطلاق ، ففي نفس الإنجيل حوار بين اليهود والمسيح فيقول : « إن المسيح حين انتقل من الجليل وجاء إلى تخوم اليهودية عبر الأردن ، دنا إليه الفريّسيون ليجربوه قائلين : هل يحل للإنسان أن يطلق زوجته لأجل كل علة ؟ - أي سبب - ، فأجابهم قائلاً : أما قرأتم أن الذي خلق الإنسان في البدء ذكراً وأنثى خلقهم ، وقال : لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته ، فيصيران كلاهما جسداً واحداً ، فليسا هما اثنين بعد ، ولكنهما جسدٌ واحد ، وما جمعه الله فلا يفرقه الإنسان ، فقالوا له : فلماذا أوصى موسى أن تعطى - أي المرأة - كتاب طلاق وتخلٍّ ؟ فقال لهم : إن موسى لأجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم ، ولم يكن من البدء هكذا ، وأنا أقول لكم : من طلق امرأته إلا لعلة زنى ، وأخذ أخرى فقد زنى ، ومن تزوج مطلقة فقد زنى ، فقال له تلاميذه : إن كانت هكذا حال الرجل مع امرأته فأجدر ألا يتزوج » (٢) .

واختلف موقف المذاهب المسيحية من الطلاق ، فالمذهب الكاثوليكي يحرم الطلاق تحريماً باتاً ولا يبيح فصم الزواج لأي سبب مهما عظم شأنه ، وحتى الخيانة الزوجية لا تعد مبرراً للطلاق ، وكل ما يبيحه في حالة الخيانة الزوجية هو التفرقة الجسمية (حسب تعبيرهم) بين شخصي الزوجين مع اعتبار الزوجية قائمة بينهما من الناحية الشرعية ، فلا يجوز لواحد منهما في أثناء هذه التفرقة أن يعقد زواجه على شخص آخر (٣) . وحجة المذهب في ذلك ما جاء في إنجيل متى : « لا يصح أن يفرق الإنسان ما جمعه الله » (٤) ، وجاء في إنجيل مرقص على لسان المسيح : « يصبح الزوجان بعد الزواج جسماً واحداً فلا يعودان بعد ذلك اثنين ، بل هما جسم واحد ، فالذي جمعه الله لا يفرقه الإنسان » (٥) .

---

(١) إنجيل متى .
(٢) إنجيل متى (١٩ : ١ - ١٠) نقلا عن كتاب الحلال والحرام ٢٠٤/٥ .
(٣) الأسرة والمجتمع : ١٥٣ .
(٤) متى إصحاح ١٩ فقرة ٦ .
(٥) مرقص إصحاح ١٠ فقرتي ٦ ، ٨ .

والمذهب الأرثوذكسي لا يبيح الطلاق إلا في حالة الخيانة الزوجية من الزوج أو الزوجة ، ويحرم على المطلق والمطلقة الزواج بعد ذلك (١) .

والمذهب البروتستانتي ، يبيح الطلاق في حالات محدودة ، أهمها : الخيانة الزوجية ، ولكنه يحرم على الرجل والمرأة كليهما أن يتزوجا بعد ذلك .

تعنت يصادم قانون الفطـرة :

ونتيجة لهذا التعنت الذي ارتكبته المذاهب المسيحية إزاء الطلاق ، ووقوفها أمام المشكلات التي تطرأ على الحياة الزوجية مشلولة اليد ، عديمة الحيلة ، انطلق المجتمع يبحث عن حلول لها فوجدها في محاولة التوفيق بين الدين والتشريع الوضعي تارة والخروج عليه تارة أخرى بإباحة الطلاق عن طريق قانون خاص .. وهكذا أحدث التزمت آثاره كما أحدثت النظرة الشاذة إلى الجنس آثارها في ممارسة الإباحية التي نشهدها اليوم . لقد رفضت الكنيسة زواج ملك إنجلترا كما هو معروف من مسز سمبسون المطلقة ، واضطر للتنازل عن ملكه ليتزوج المطلقة ، واضطر آخر وهو كابتن تارنسند ومارجريت أخت ملكة بريطانيا أن يتفاديا خطيئة الزنى باستمرارهما في العلاقة غير الشرعية ، فهما زانيان لو تزوجا ، لأن تارنسند طلق زوجته (٢) .

يقول الدكتور علي عبد الواحد وافي : « وقد وجدت الأمم المسيحية عنتاً كبيراً في السير على تعاليم الإنجيل في شؤون الطلاق ، فاضطرت إلى استحداث قوانين مدنية تبيح حل عقدة الزواج في بعض الحالات ولكن معظم هذه القوانين لا يزال متأثراً بروح الكنيسة ، فلا يبيح الطلاق إلا في حالات محدودة ، وبطرق وإجراءات معقدة كل التعقيد ، ولا تنتهي إلا بعد أمد طويل ، كما هو الحال في فرنسا

---

(١) الأسرة والمجتمع : ١٥٣ .

(٢) دراسة فى أدب منحل : ٦٢ ، ٦٣ .

ومعظم الأمم الكاثوليكية . فالقانون المدني الفرنسي مثلاً لا يبيح الطلاق إلا لواحد من ثلاثة أسباب : أحدها الزنى من أحد الزوجين ، وثانيهما : تجاوز الحد والإهانة البالغة في معاملة أحد الزوجين للآخر ، وثالثهما : الحكم على أحد الزوجين بعقوبة قضائية مهينة (١) . فالمرض والإصابة بعاهة ، والجنون نفسه حتى لو أدى إلى تجاوز الحد في المعاملة ، والغيبة الطويلة ، والشقاق البالغ ، واتفاق الطرفين على الفرقة (٢) ، كل ذلك وما إليه لا يبيح الطلاق في نظر القانون الفرنسي » (٣) .

ولقد دفع هذا العنت المسيحيين في القارتين الأوروبية والأمريكية إلى نظام قانوني يجيز ثلاثة أحوال في حكم الطلاق :

١ - إلغاء عقد الزواج .

٢ - التفرقة بين الزوجين .

٣ - الفصل بينهما مع بقاء الصفة الشرعية .

وبعض الولايات في أمريكا الشمالية يكتفي بإثبات حصول الزنى مرة واحدة من الزوجة لإصدار حكم الطلاق ، ولا يكفي ذلك في حالة وقوع الزنى من الزوج بل ينبغي إثبات معيشته غير الشرعية مع امرأة أخرى (٤) .

وقد تدهور الوضع في ألمانيا حيث اضطر المشرع ألا يجعل عقوبة الزنى سبباً في الطلاق ، بل جعل عقوبتها الحبس مدة ستة أشهر ، لأن المرأة والرجل أصبح

---

(١) انظر المواد من ٢٢٩ إلى ٢٣٢ (والمادتان الأوليان خاصتان بالزنى ، والمادة الثالثة خاصة بالإهانة ، والأخيرة بالعقوبة القضائية) .

(٢) كانت المادة ٢٣٣ من القانون المدنى الفرنسى تبيح الطلاق لهذا السبب ، ولكنها ألغيت بقانون ٢٧ يوليو سنة ١٨٨٤ م .

(٣) الأسرة والمجتمع : ١٥٥ .

(٤) المرأة فى القرآن : ١٣٩ ، ١٤٠ .

كل منهما لا يرى بأساً في مباشرة الزنى ، وليس فيه ما يعرض العلاقة الزوجية للانهيار أو يشين وضعها [1] ..

أما في إيطاليا – عرين الكاثوليكية – فقد أجاز البرلمان أخيراً قانوناً وضعياً للطلاق أنهى به سيطرة الفاتيكان على هذا الأمر .

الطلاق في الجاهليـــة :

(والطلاق في الجاهلية كان سهلاً كعقد الزواج أو أكثر سهولة ، وكان بيد الرجل يوقعه متى شاء من غير سبب موجب لذلك ضرورة ، وكانت المرأة إذا كانت ذات مال كثير أو جمال رائع أو شرف أثيل تشترط أحياناً أن يكون لها حق الطلاق متى شاءت هي على أن ذلك لم يكن يحميها من تطليق زوجها متى شاء هو) [2] .

روى الترمذي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت :

« كان الرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها ، وهي امرأته إذا راجعها ، وهي في العدة ، وإن طلقها مائة مرة أو أكثر حتى قال رجل لامرأته : والله لا أطلقك فتبيني مني ، ولا آويك أبداً ، وقالت : وكيف ذلك ؟ قال : أطلقك ، فكلما همت عدتك أن تنقضي راجعتك ، فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة فأخبرتها ، فسكتت حتى جاء النبي ﷺ فأخبرته فسكت النبي ﷺ حتى نزل القرآن ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ [3] قالت عائشة : فاستأنف الناس الطلاق من كان طلق ، ومن لم يكن طلق » .

---

(١) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر : ٣٣٦ .
(٢) تاريخ الجاهلية للدكتور عمر فروخ : ١٥٧ ، ١٥٨ ، طبعة دار العلم للملايين .
(٣) البقرة : ٢٢٩ .

وقد حدد القرآن الضرر الذي كان يصيب المرأة في الجاهلية من ممارسة الرجل حرية الطلاق في عدة صور وهي :

- إمساكها إضراراً بها .
- تعليقها بجعلها على ذمته مع حرمانها من حقوقها الزوجية .
- الحلف بعدم الاقتراب منها وهو ما يسمى « بالإيلاء » .
- الظهار ، بالحلف عليها بتحريمها على نفسه كأنها إحدى محارمه .

الطلاق في شريعة الإسلام :

جاء الإسلام فسلك بالناس مسلكاً وسطاً ، جنبهم الشطط والتزمت اللذين وقعت فيهما المسيحية والإسراف والإجحاف اللذين صنعهما العرب في الجاهلية . فأقام أولاً العلاقة الزوجية على حرية الاختيار والرضا من كل من الزوجين ، وأحاطها بكل رعاية ممكنة ، وعالج ما يطرأ على هذه العلاقة من شوائب أو منغصات بكل طريق وسبيل على نحو ما مر بك ، فإذا جاء إلى الطلاق بعد ذلك فإنما هي الضرورة الملجئة التي لا مندوحة له عنها ، ومع ذلك لم يتركه دون ضوابط ، بل أتاح فيه فرصة العلاج ووضعه في صورة نفسية وتربوية رائعة استعمل فيه وازع الإيمان ومحاسن الأخلاق ، مع التحديد القانوني والتشريعي له صيانة لهذه العلاقة عن الضرورة والإضرار .

وإليك توجيهات الإسلام في ذلك :

التوجيه القرآنـــي :

استعمل الأسلوب القرآني خلال عرضه لأحكام الطلاق من أساليب الإيحاء بصفات الله عز وجل من الحلم والرحمة والمغفرة والعلم ، وأساليب الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، والتذكير بنعم الله وآلائه والتحذير من تجاوز حدوده ما يلفت المسلم الواعي ويجعله يحسب ألف حساب وحساب حين يقدم

على هذا الأمر فإذا أقدم فليقف عند حدود أمر الله وتشريعه ففي الآية الأولى قال سبحانه :

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُم واللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

والثانية وهي آية الإيلاء :

﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، فَإِنْ فَاؤُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

والثالثـة :

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ والآية الثالثة تخللها ﴿ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ... ﴾ ثم ختمت الآية : ﴿ واللهُ عزيزٌ حَكيم ﴾ .

والآية الرابعة حرمت استغلال الرجل للمرأة في المخالعة فختمت بقوله عز وجل : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوها وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

أما الآية السادسة فنهت عن إمساك الزوجة إضراراً بها وكانت كل جملة منها آمرة بخلق حسن وناهية عما يناقضه من خلق سيء مذكرة بعظيم نعمة الله بالقرآن محذرة من الاستهانة بأمره يقول سبحانه :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُواً ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُم وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِنَ الْكِتَابِ وَالحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللهَ واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٍ ﴾ .

أما الآية السابعة فنهت عن العضل وهو المنع من التزويج بعد الطلاق وأيقظت وازع الإيمان وحببت في التزكية والتطهر وبينت ضآلة علم العباد بجوار علم الله عز وجل فقالت :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُم يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

وبهذا الأسلوب رفع القرآن الكريم قضية الطلاق إلى مستوى رفيع يليق بالإنسانية الراشدة وأضعف من تأثير الحزازات والانفعالات ولولا خشية الإطالة لاستعرضت الآيات الأخرى ، وأطمع من القارىء الكريم أن يستكمل الصورة كاملة بضم بقية الآيات التي أشرت إليها في الهامش إلى بعضها فسيرى صورة أخاذة مؤثرة :

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا ﴾ .

التوجيه النبوي :

فالرسول الكريم يكرّه المسلمين فيه فيقول : « أبغض الحلال إلى الله عز وجل الطلاق » [2] ، ويتوعد المفسدين للعلاقات الزوجية فيقول : « ليس منا من خبب (أفسد) امرأة على زوجها » [3] ويخص النساء بوعيده تحذيراً من أن يكن السبب فيه فيقول : « لا تسأل المرأة طلاق أختها لتستفرغ صفحتها ولتنكح فإنما لها ما قدر لها » . ويحذر الزوجات أن يطلبن الطلاق لغير سبب موجب فيقول : « أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة » [4].

---

(١) البقرة : الآيات من ٢٢٥ إلى ٢٣٢ وانظر أيضاً الآيات ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، وسورة الطلاق .

(٢) رواه أبو داود والحاكم وصححه .

(٣) رواه أبو داود والنسائي .

(٤) رواه أصحاب السنن وحسنه الترمذي .

وبغض إلى المسلم أن يستعمله من أجل قضاء شهوته ولذته فقال ﷺ : « لعن الله كل ذواق مطلاق » .

حكم الطـــلاق :

وقد كان فهم الفقهاء لحكم الطلاق وحالاته نابعاً من استيعابهم لأسرار التشريع القرآني والتوجيه النبوي ، ومن أحسن من قدم لنا الحالات التي تعرض لحكم الطلاق الفقيه الحنبلي العلامة ابن قدامة فيقول : وهو على خمسة أضرب :

– واجب : وهو : طلاق المولي (١) بعد التربص إذا أبى الفيئة ، وطلاق الحكمين في الشقاق إذا رأياه .

– ومكروه : وهو الطلاق من غير حاجة ، لما روى محارب بن دثار عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن النبي ﷺ قال : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » [رواه أبو داود] . وعنه : أنه محرم ، لأنه يضر بنفسه وزوجته ، وقد قال عليه السلام : « لا ضرر ولا ضرار » .

– ومباح : وهو عند الحاجة إليه ، لضرر المقام على النكاح ، فيباح له دفع الضرر عن نفسه .

– ومستحب : وهو عند تضرر المرأة بالنكاح ، إما لبغضه أو غيره ، فيستحب إزالة الضرر عنها . وعند كونها مفرطة في حقوق الله الواجبة عليها ، كالصلاة ونحوها وعجزه عن إجبارها عليها ، أو كونها غير عفيفة ، لأن في إمساكها نقصاً ودناءة ، وربما أفسدت فراشه ، وألحقت به ولداً من غيره ، وعنه : أن الطلاق هنا واجب . قال في مسألة إسماعيل بن سعيد : هل يحل

---

(١) وهو من حلف ألا يقرب زوجته يقول الله تعالى : ﴿ للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاؤوا فإن الله غفور رحيم ﴾ .

للرجل أن يقيم مع امرأة لا تصلي ولا تغتسل من جنابة ، ولا تتعلم القرآن ؟ أخشى أن لا يجوز المقام معها . وقال : لا ينبغي له إمساك غير العفيفة .

– ومحظور : وهو طلاق المدخول بها في حيضها ، أو في طهر أصابها فيه ، ويسمى : طلاق البدعة ، لمخالفته أمر الله تعالى في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق : ١] . وروى ابن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض ، فسأل عمر رسول الله ﷺ عن ذلك ، فقال له رسول الله ﷺ : « مره فليراجعها ، ثم ليتركها حتى تطهر ، ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء أمسك بعد ، وإن شاء طلق قبل أن يمس ، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء » [متفق عليه] . ولأن طلاق الحائض يضر بها ، لتطويل عدتها . والمصابة ترتاب فلا تدري أذات حمل هي فتعتد بوضعه ؟ أم حائل (غير حامل) فتعتد بالقرء ؟ ويحتمل أن يتبين حملها فيندم على فراقها مع ولدها . فأما غير المدخول بها ، فلا يحرم طلاقها ، لأنها لا عدة عليها تطول . والصغيرة التي لا تحمل ، والآيسة ، لا يحرم طلاقها ، لأنه لا ريبة لهما ، ولا ولد يندم على فراقه . وكذلك الحامل التي استبان حملها لا يحرم طلاقها ، لما روى سالم عن أبيه أن النبي ﷺ قال : « ثم ليطلقها طاهراً أو حاملاً » [أخرجه مسلم] . ولأنه لا ريبة لها ، ولا يتجدد لها أمر يتجدد به الندم ، لأنه على بصيرة من حملها »[1] .

متى يجوز الطلاق وكيف يقع ؟

جعل الإسلام حق الطلاق للرجل ، وهذا ما تقتضيه الفطرة وما توجبه طبائع الأشياء . فالرجل هو الذي يسعى للزواج ويعقده ويتحمل تبعاته ، وهو ربان سفينة الأسرة ومسير أمورها ، فإذا تعرضت العلاقة بينه وبين ربة بيته للخلاف والنزاع وغدت شقاقاً يصعب حله ، كان العلاج الأمثل الفرقة والفصال

---

(١) الكافي في فقه الإمام المبجل أحمد بن حنبل لشيخ الإسلام أبي محمد موفق الدين عبد الله بن قدامة المقدسي ج ٧٨٣/٢ ، ط المكتب الإسلامي .

وكان عليه أن يتخذ القرار ، إذ إن غرم القرار سيلحقه بكل آثاره فسيهدم عشه الذي جهد في بنائه وسيتحمل نفقات أولاده ، وسيرد باقي صداق زوجه مع تحمل نفقات العدة ، كل ذلك يجعله جديراً بأن يفكر ويقدر الأمر حق قدره ، ثم إن الرجل بطبيعة تكوينه أقل انفعالاً وانسياقاً مع غضبه وعاطفته من المرأة (١) . ومع أن الإسلام قرر له هذا الحق وجعله في يده إلا أنه وضع له من القيود والضوابط ما يمنعه من إساءة استعماله ، وهذه القيود والضوابط منها ما يعود إلى الزوج ، ومنها ما يعود إلى الحالة التي تكون عليها الزوجة .

فبالنسبة إلى الزوج لابد أن يكون في حالة يملك إرادته ويسيطر على تفكيره بأن يكون كما يقول الفقهاء : عاقلا مختارا ، وهذا ما يقتضيه معنى العزم في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

والعزم يقتضي الإرادة ويفسرها الحديث الصحيح : « إنما الأعمال بالنيات » (٣) فإن كان مخطئاً أو ناسياً أو مكرهاً أو في حالة غضب شديد ، فلا يقع منه الطلاق في جميع تلك الحالات ، وقد وردت الأحاديث بكل ذلك : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » (٤) ، « كل طلاق جائز إلا طلاق المغلوب على عقله » (٥) ، « لا طلاق ولا عتاق في إغلاق » (٦) .

أما الحالة التي تكون عليها الزوجة فينبغي أن تكون طاهرة لم يقربها زوجها حتى تدخل في العدة ولا تطول عليها ، وذلك لحديث ابن عمر والذي مر ذكره

---

(١) راجع فى هذا الكتاب تنظيم الإسلام للمجتمع للشيخ أبى زهرة ٩١ ، ٩٢ ط دار الفكر العربى .

(٢) البقرة : ٢٢٧ .

(٣) رواه البخارى .

(٤) أخرجه ابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه النووى .

(٥) رواه الترمذى والبخارى موقوفاً .

(٦) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة والحاكم .

والإغلاق : الغضب – قال ابن القيم فى زاد المعاد ج ٤ : ٤٢ قال شيخنا وحقيقة الإغلاق أن يغلق على الرجل قلبه فلا يقصد الكلام أو لا يعلم به كأنه انغلق عليه قصده وإرادته .

ولقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [1] : أي في قبل عدتهن . وهناك قيود تعود إلى يمين الطلاق نفسه فينبغي توجيهه إلى العصمة الزوجية ، فإذا استعمل في حالات البيع والشراء أو غيرهما فهو يمين عادي ، وإذا علق على شيء فلا يحسب طلاقاً ، وإذا تكرر فيحسب طلقة واحدة ولو أوصله إلى مائة مرة .

فرص متاحة للعلاج أثناء الطلاق : « الطلاق الرجعي »

وإذا وقع الطلاق فقد منح الزوج فرصتين للمراجعة وهيأ الإسلام الظروف لجمع الشمل ورأب الصدع ، فأمر أن تبقى المطلقة في بيت الزوج طيلة فترة العدة استبراء للرحم من جهة وطريقاً لأن تهدأ النفوس ويعود إليها صفاؤها فتعود المياه إلى مجاريها فيراجع الرجل زوجته أثناء العدة وتعود سيرتها الأولى ، يقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ، فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُم وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ... أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴾ [1] .

وتختلف العدة حسب حالة المرأة حائضاً أو حاملاً أو آيسة كما بين القرآن ومن ثم تكون الفرصة متاحة طيلة العدة على تفصيل في كتب الفقه فليراجعها من

---

(1) سورة الطلاق : ١ ، ٢ ، ٦ .

شاء . وإذا استنفذ الفرصتين وحلف للمرة الثالثة فلا سبيل لإرجاعها حتى تنكح غيره : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾ (١) .

حق المرأة في المخالعة والشكوى من لحوق الضرر بها :

وإذا أحست المرأة عدم قدرتها على الحياة مع زوجها وأصبحت له كارهة فلها أن تفتدي نفسها بأن ترد ما قدمه لها زوجها وتنفصل عنه . وهذا ما يسمى في الفقه بالخلع . والأصل في ذلك ما رواه ابن عباس قال : « جاءت امرأة ثابت ابن قيس بن شماس إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ما أعتب عليه في خلق ولا دين ، ولكني أكره الكفر (الشقاق) في الإسلام فقال رسول الله ﷺ : « أتردين عليه حديقته ؟ » قالت : نعم فقال رسول الله ﷺ : « إقبل الحديقة وطلقها تطليقة » (٢) . وهذا ما عنته الآية الكريمة بقول الله سبحانه :

﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ (٣) .

وكما أعطاها الإسلام حق المخالعة ، أعطاها حق التضرر من أي ظلم يلحق بها بسبب تجاوز حدود الطلاق ، وجعل في يد القضاء سلطة ردع المتجاوزين حدود الله وأوامره ، وبذلك استوفى الإسلام جوانب الموضوع كلها وعالجه على المستوى الفردي والأسري والاجتماعي فبلغ به ما يرجوه من حسم داء النزاع والخصومة ، وإيفاء كل ذي حق حقه . وبهذا وحده يتوفر للمجتمع سبل الخير والسعادة : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

---

(١) البقرة : ٢٣٠ ، ولا بد أن يكون زواجها من غيره صحيحاً بعيداً عن التحايل ، فقد لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له .

(٢) البخارى والنسائى.

(٣) البقرة : ٢٢٩ .

محاولات مغرضة للنيل من تشريعي الطلاق والتعدد :

يحاول البعض النيل من تشريعي الطلاق والتعدد في الإسلام وعدم إعلان الأهداف الحقيقية التي تكمن وراء محاولات التعديل ، ومن الأهداف التي صارت معروفة هو القضاء على المميزات التي يتميز بها قانون الأسرة في الإسلام ، وتبديله شيئاً فشيئاً لتقترب الأسرة المسلمة من الأسرة الغربية وتذوب فيها . فقد مر بك المنهج السليم الذي عالج به الإسلام قضيتي الزواج والطلاق ، فليس فيه الانحلال ولا التزمت اللذين تواجههما الأسرة المسيحية الغربية مما اضطر المجتمعات الغربية إلى التعديل والتغيير فضلاً عن أن كثيراً من المسيحيين كانوا يتركون دينهم أو يبدلونه بسبب ذلك ، لهذا بذلت الطوائف المسيحية جهدها في الدعوة إلى تعديل قانون الأحوال الشخصية ، وفي جريدة (وطني) المسيحية [1] الخبر اليقين ، وفي ندوات جمعيات الشبان المسيحيين برهان ما أقول ، ينضم إلى ذلك هدف آخر هو هوى الذين جرفهم تيار التغريب فصاروا يرون في انحلال المجتمع الغربي تحضراً ، وفي ابتذال المرأة فيه وتفكك الأسرة عنوان الحرية والرقي ، ومن أجل هذا نشطت أقلامهم في الدعوة إلى تقييد الطلاق والتعدد وجعلهما أمام القاضي ، وما دروا أن ذلك يسلب الأسرة الإسلامية استقرارها ويعرضها لأعاصير التفكك والانحلال .

الطلاق أمام القاضي :

إن القول بأن الطلاق يمثل مشكلة في المجتمع الإسلامي قول لا يستند على أساس والعكس هو الصحيح ، أي أن وجود الطلاق منح المجتمع الإسلامي طيلة فترات التاريخ البعد عن مشكلات الانحراف والعقد وصان الأخلاق وحمى النسل والأعراض ، فلم يحدث عندنا ما أصيبت به المجتمعات الغربية من الاضطرار إلى

---

(١) انظر الاقتباسات المأخوذة من الصحيفة فى كتاب دراسة فى أدب منحل : ٦٧ ، ٦٨ .

إباحة الزنى أو العيش مع الخليلات بدلاً من العيش في الحلال . ثم إن الإحصائيات تدل على أن نسبة الطلاق في انخفاض مستمر .

وإليك إحصائية الأمم المتحدة التي نشرتها الأهرام [1] :

السنة	نسبة المطلقين في الألف
١٩٥٠	٧ ,٣
١٩٥١	٧ ,٢
١٩٥٢	٦ ,٥
١٩٥٣	٥ ,٧
١٩٥٤	٥ ,٣
١٩٥٥	٥ ,٢
١٩٥٦	٤ ,٩
١٩٥٧	٥
١٩٥٨	٤ ,٩
١٩٥٩	٤ ,٨
١٩٦٠	٥
١٩٦١	٤ ,٦
١٩٦٢	٤
١٩٦٣	٤ ,٢

ويقول المرحوم الشيخ أبو زهرة : والآن نجد دعوات تدعو بأن يكون الطلاق بين يدي القضاء ، وأن من يطلق من غير إذن القاضي يكون عليه تعويض

---

(١) الأهرام : ١٩٦٥/٢/١٤ م نقلا عن دراسة فى فكر منحل /٧١ .

لمن يطلقها إن لم يقدم سبباً مبرراً للطلاق ، ويثبته ، وإنا نعتقد أن ذلك لا داعي إليه ، إذا إن الإحصاءات التي بين أيدينا عن الطلاق لا تبرر تقييده ، لأن أكثره لا يقع فيه ضرر على المرأة يسوغ ذلك التقييد ، وذلك لما يأتي :

(أ) أولها أن وقائع الطلاق كما تدل الإحصاءات كانت قبل أن تعقب المرأة أي ولد وقد ذكرت الإحصاءات المختلفة أن نحو ٧٧ ٪ من وقائع الطلاق قبل إعقاب ولد ، وأن ١٧ ٪ من وقائع الطلاق بعد إعقاب ولد واحد ، ثم تتدلى النسبة كلما كثر عدد الأولاد ، وإن ذلك يدل على أن أكثر الطلاق لفساد الاختيار في الزواج ، فمنع الطلاق إلزام بزواج غير صالح للبقاء وذلك لا يصلح مبرراً لتقييد الطلاق .

(ب) أن كثيراً من أحوال الطلاق كان قبل مضي ستة أشهر من الزواج وتقل النسبة كلما تقادمت الزوجية ، وإليك إحصاءات لسنتين :

السنة	عدد الطلاق قبل مضي ستة أشهر	بعد مضي ستة أشهر وقبل مضي سنة
١٩٤٦	١١ ,٣٦٧	١٠ ,٤٨٣
١٩٥٠	٩ ,٩١٢	٩ ,٧١٩

وبذلك تبين أن أكثر وقائع الطلاق في السنة الأولى من الزواج ، وذلك يدل على فساد الاختيار في الزواج ، ومنع الطلاق أو تقييده في هذه الحال إبقاء على زواج كان الاختيار فيه فاسداً ، وذلك ليس في مصلحة واحد من الزوجين ، بل يقع فيه الضرر عليهما معاً ، وعلى المرأة على وجه الخصوص .

وإن التقييد قد يضر بالمرأة أكثر مما ينفع ، لأنه إذا كان التقييد بطلب التعويض ، فإن دور المحاكم تكون موضع تشنيع مستمر للزوجات ، وإن الرجل قد

يفر من التعويض فلا يوثق الطلاق ويطلق باللفظ ، فإذا ادعته عليه أنكر ولا إثبات ، فيعيشا في حرام ، أو ينقطع عنها ، فلا هي زوجة لها حقوق الزوجية ولا هي مطلقة تتزوج بمن تشاء ، والضرر بلا شك واقع على المرأة .

ثم إذا قيد الطلاق ذلك القيد أغلق باب الزواج ، لأن من يعرف أنه إذا دخل باب أغلق عليه لا يدخله أبداً ، وبذلك تشيع الفاحشة وتنحل الأسرة والجناية واقعة على المرأة في كل الأحوال (١) .

إساءة استعمال حقي الطلاق والتعدد ، وكيف نعالجه ؟

بالرغم من التوجيهات والضوابط التي وضعها الإسلام لاستعمال حقى الطلاق والتعدد ، فإن بعض المسلمين يسيئون استعمالهما ويتجاوزون حدودهما مخالفين بذلك أمر الله وأمر رسوله معرضين زوجاتهم وأولادهم للضياع والتشرد والحرمان من الرعاية ، مولدين في أنفسهم الشعور بالظلم والمرارة جاعلين إياهم يسخطون عليهم وعلى المجتمع الذي لم يرد عادية الظلم عنهم ، وكفى بذلك إثماً وجرماً وصدق رسول الله : « كفى المرء إثماً أن يضيع من يقوت » .

لقد جعل الإسلام الزواج عقداً وموثقاً ، تستحل به الفروج ، وأحكمه بأركانه من الولاية والشهادة وجعل منه السكن والمودة والرحمة بين الزوجين ، ورتب عليه حقوقاً وواجبات وآثاراً كثيرة ، وأوصى بأن يكون قانون التعامل بين الزوجين المعروف المتبادل بينهما والعدل والإنصاف ، وحذر من الميل كل الميل ، وأوصى كلا الزوجين بالصبر على الآخر ، وشدد على الزوج لقوامته على زوجه ، وطالبه بحسن الرعاية وحذره أن يرضخ لشعور الكراهية إذا ظهر فقال : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (٢) .

---

(١) تنظيم الإسلام للمجتمع ، للشيخ محمد أبو زهرة ، ط دار الفكر العربي /٩٤ ، ٩٦ .
(٢) النساء : ١٩ .

وقد أباح الإسلام الطلاق في حالة تعذر استقرار الحياة الزوجية ، واستنفاد جميع وسائل الإصلاح على ما مر بك في مرحلة ما قبل الطلاق ، وعبر عنها القرآن تعبيراً مؤثراً بأن يخاف أحد الزوجين عدم قدرته على إقامة حدود الله ... وبذلك جازت المخالعة من قبل الزوجة ، يقول الله تعالى : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) . وانظر إلى ختام الآية وكيف أنها سلكت المتعدين المتجاوزين في حزب الظالمين الجائرين . قال ابن كثير تعليقاً على الآية : (إن هذه الشرائع التي شرعها الله لكم هي حدود فلا تتجاوزوها كما ثبت في الحديث الصحيح : « إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها وفرض فرائض فلا تضيعوها وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها ») .

وقد رأيت كيف أن رسول الله منع انتهاك الحقوق أو تجاوز الحدود في رده زواج الأب ابنته من ابن عمها بغير رضاها ، وطلبه من ثابت بن قيس أن يخالع زوجته حينما أبدت عدم قدرتها على العيش معه ... ثم غضبه على من يستعملون الطلاق في غير محله بقوله : « أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم » وذلك حينما أخبر أن رجلاً طلق امرأته ثلاث تطليقات . وقد استدل المالكية بالآية والحديث ومن وافقهم على أن جمع الطلاق الثلاث بكلمة واحدة حرام وأن السنة عندهم : أن يطلق واحدة لقوله سبحانه : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ﴾ ثم قال : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) البقرة : ٢٢٩ .
(٢) البقرة : ٢٢٩ .

وقد نهى الإسلام عن اتخاذ الطلاق وسيلة للإضرار بالزوجة أو إلحاق الأذى بها فقال الله عز وجل :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُواً وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

قال ابن جرير عند قوله تعالى : ﴿ ولا تتخذوا آيات الله هزوا ﴾ أخبرنا أبو كريب عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ غضب على الأشعريين ، فأتاه أبو موسى فقال : يا رسول الله أغضبت على الأشعريين ؟ فقال : « يقول أحدكم قد طلقت قد راجعت ليس هذا طلاق المسلمين ، طلقوا المرأة في قبل عدتها » وقال مسروق : هو الذي يطلق في غير كنهه ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها لتطول عليها العدة .

أما التعدد فقد ربطه الإسلام بالحاجة إلى النكاح الذي يترتب عليه آثاره ومقاصده وهو ما تفيده لفظتا : (فانكحوا) في قوله : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي اليَتَامَى فَانْكِحُوا ﴾ (٢) (ومحصنين) في قوله : ﴿ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُحْصِنِينَ ﴾ (٣) فلا ينبغي ولا يجوز أن يكون لمجرد المتعة الطارئة والنزوة الفائرة .. وإلا دخل في نكاح المتعة الذي حرمه الإسلام . كما ربطه أيضاً بأن يحس المسلم من نفسه القدرة على العدل ، فإن خاف الظلم فقد نصحه القرآن وكفى به ناصحاً أمينا ألا يقدم على التعدد . قال تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا

---

(١) البقرة : ٢٣١ .
(٢) النساء : ٣ .
(٣) النساء : ٢٤ .

فَوَاحِدَةً ﴾ (١) ولكن كيف يمكن علاج هذه الحالات التي يساء فيها استعمال حقي الطلاق والتعدد ؟

إن العلاج لا يكون إطلاقاً بتضييق الحلال ولا بسد أبوابه ولا يكون بالتحايل على شريعة الله وتحويل الطلاق من يد الزوج إلى المحاكم . كلا . ولكن يكون برد المعتدين عن عدوانهم وكف ضررهم عن زوجاتهم وأولادهم . وقد تكفلت الشريعة بذلك حينما قررت حق كل متضرر في الشكوى لإزالة ما لحقه من ضرر تنفيذا لقول رسول الله ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار » وقوله : « مطل الغني ظلم » ومسؤولية الحكام والقضاة وأولي الأمر في ذلك كبيرة وعظيمة لأنهم المسؤولون عن إقامة حدود الله وتنفيذ شرعه ، على أنه يجب أن يساهم المجتمع متمثلا في الأبوين والأولياء والأقارب كل على حسب مسؤوليته ويكون ذلك بإيجاد وعي صحيح بفقه الزواج وحكمته ومقاصده والغاية منه ، فلا يقدموا ولا يعينوا على عقد أي زواج إلا بعد استيفاء الشروط المطلوبة من التأكد من جدية الزوج وقدرته على تهيئة حياة كريمة وخلو الحياة القادمة من احتمال النزاع والشقاق بين الزوجين ومن رضى الزوجة وقبولها وأن يمنعوا زواج العابثين والمستهترين ولا يمكنوهم من أعراض المسلمين ... وهذا تنفيذ لشرطي : الرشد الذي اشترطه الإسلام في الولي والرضى الذي طلبه من البكر ، ولنذكر أن رسول الله سئل من فاطمة بنت قيس عن رجلين تقدما لزواجها فقال لها : « أما معاوية فصعلوك ، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه » . فلنتق الله في بناتنا وأخواتنا ولا نقدمهن إلا لمن نرضى خلقه ودينه ... ولنحم مجتمعاتنا شر الظلم والفساد والضياع ، ولنعمل متكاتفين متآزرين على إقامة مجتمع سعيد ينبض بالإيمان ويستظل بالعدل والرحمة والخلق القويم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد في الأولين والآخرين .

---

(١) النساء : ٣ .

البابُ الثالثُ

الفصل الأول : الزواج ومقدماته .

الفصل الثاني : التعدد .

الفصل الثالث : دعائم الحياة الزوجية .

الفصل الرابع : حقوق الأولاد وواجباتهم .

الفصل الخامس : الميراث .

المراجع العربيـــة

١ - القرآن الكريم .

٢ - تفسير الطبري - جامع البيان عن تأويل آي القرآن - لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري - دار المعارف بمصر .

٣ - تفسير ابن كثير - للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ - دار الأندلس للطباعة والنشر - بيروت .

٤ - تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن - لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي - دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة - (١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م) .

٥ - الكافي في فقه الإمام المبجل أحمد بن حنبل - تأليف شيخ الإسلام أبي محمد موفق الدين عبد الله بن قدامة المقدسي - منشورات المكتب الإسلامي بدمشق .

٦ - المحلى - تصنيف الإمام الفقيه أبي محمد على بن أحمد بن سعيد ابن حزم - منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت .

٧ - المغني - تأليف أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة - دار المنار لأصحابها ورثة السيد محمد رشيد رضا - ١٣٦٧ هـ .

٨ - منار السبيل في شرح الدليل على مذهب الإمام المبجل أحمد ابن حنبل - تأليف الشيخ إبراهيم بن محمد بن سالم بن ضويان - المكتب الإسلامي .

٩ - فتح الباري لشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري - للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر . المطبعة السلفية ومكتبتها - ٢١ ش الفتح بالروضة - القاهرة .

١٠ - صحيح الإمام مسلم رضي الله عنه - دار الطباعة ١٣٢٩ هـ .

١١ - الإنسان في القرآن - عباس محمود العقاد - ط دار الكتاب العربي - الطبعة الثالثة ١٩٦٩ م .

١٢ - الإنسان بين المادية والإسلام - للأستاذ محمد قطب .

١٣ - الإسلام في عصر العلم - تأليف محمد أحمد الغمراوي - إعداد أحمد عبد السلام الكرداني - مطبعة السعادة - القاهرة . الطبعة الأولى (١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م) .

١٤ - الإسلام عقيدة وشريعة - الأستاذ محمود شلتوت .

١٥ - الإسلام ومشكلات الحضارة - الأستاذ سيد قطب .

١٦ - الإسلام والمرأة المعاصرة - للبهي الخولي .

١٧ - أسس الفلسفة الماركسية لمؤلفه ف . آفانسا سبيبف - ترجمة عبد الرزاق الصافي .

١٨ - الحجاب - للأستاذ أبو الأعلى المودودي - دار الفكر - بيروت .

١٩ - الفتاوى - لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية - جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي - مطابع الرياض ١٣٨١ هـ .

٢٠ - الأسرة والمجتمع - د . علي عبد الواحد - ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م) مكتبة نهضة مصر بالفجالة - القاهرة .

٢١ - السنّة ومكانتها في التشريع - الدكتور مصطفى السباعي - طبع المكتب الإسلامي .

٢٢ - أصول الفقه - الأستاذ عبد الوهاب خلاف - الطبعة الثامنة (١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م) - الدار الكويتية للطباعة والنشر والتوزيع .

٢٣ - أعلام الموقعين - ابن قيم الجوزية شمس الدين أبي عبد الله محمد أمين أبي بكر - مطبعة السعادة - القاهرة .

٢٤ - إعجاز القرآن - للباقلاني .

٢٥ - الإتقان في علوم القرآن - الأستاذ جلال الدين السيوطي .

٢٦ - النبأ العظيم - د . محمد عبد الله دراز .

٢٧ - المفردات في غريب القرآن - تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني .

٢٨ - المرأة في القرآن - للأستاذ عباس محمود العقاد - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان .

٢٩ - أصل الأنواع بقلم تشارلز داروين - ترجمة إسماعيل مظهر - منشورات مكتبة النهضة - بيروت - بغداد (١٩٧٣ م) .

٣٠ - العلم يدعو للإيمان تأليف : كرسي موريسون - ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكي - ملتزم الطبع والنشر - مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة .

٣١ - الطاقة الإنسانية - للأستاذ أحمد حسين - دار القلم - القاهرة .

٣٢ - الدين في مواجهة العلم للأستاذ وحيد الدين خان - ترجمة ظفر الإسلام خان - دار الاعتصام - بيروت .

٣٣ - الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر - الدكتور محمد البهي - دار الفكر - بيروت .

٣٤ - الطبقة الجديدة - لميلوفان دوجلاس - دار الكاتب العربي - بيروت .

٣٥ - الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي - الدكتور محمد البهي - دار الفكر - بيروت . الطبعة الخامسة مزيدة ومنقحة ١٩٧٠ م .

٣٦ - الحلال والحرام - للأستاذ يوسف القرضاوي - المكتب الإسلامي .

٣٧ - الوثائق السياسية - دكتور محمد حميد الله - دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت .

٣٨ - تنظيم الإسلام للمجتمع - للشيخ أبي زهرة .

٣٩ - حجاب المرأة المسلمة - ناصر الدين الألباني - الطبعة الثالثة - المكتب الإسلامي .

٤٠ - تاريخ الجاهلية للدكتور عمر فروخ - طبعة دار العلم للملايين - بيروت .

٤١ - حقائق الإسلام وأباطيل خصومه - للأستاذ عباس محمود العقاد .

٤٢ - دراسة في أدب منحل - محمد جلال كشك - مكتبة الأمل - الكويت ١٣٨٦ .

٤٣ - زاد المعاد في هدي خير العباد - للإمام ابن قيم الجوزية - المطبعة المصرية ومكتبتها .

٤٤ - فقه السنة - السيد سابق - دار البيان - الكويت - ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .

٤٥ - شروط النهضة - للمرحوم مالك بن نبي - مكتبة دار العروبة - القاهرة .

٤٦ - مناهل العرفان لعلوم القرآن - للزرقاني .

٤٧ - مباحث في علوم القرآن - الشيخ مناع القطان - منشورات العصر الحديث - ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .

٤٨ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - لأبي الحسن الندوي - الطبعة السابعة (١٩٦٧ م / ١٣٨٧ هـ) - دار الكتاب العربي - بيروت .

٤٩ - مشكلة الثقافة - مالك بن نبي - مكتبة دار العروبة - القاهرة .

٥٠ - محاضرات الموسم الثقافي لعام (٩٢ / ٩٣ هـ - ٧٢ / ٧٣ م) - إصدار حكومة أبو ظبي .

٥١ - نظرية دارون بين مؤيديها ومعارضيها - قيس القرطاس - الطبعة الأولى - مؤسسة الرسالة - بيروت .

المجلات الدوريـــة :

١ - الحوادث اللبنانية .

٢ - نيويورك تايمز الأمريكية .

٣ - آخر ساعة - مصرية .

الجرائد اليوميـــة :

١ - الأهرام القاهرية .

٢ - الحياة - بيروتية .

المراجـع الأجنبيـة

Foreign sources:

1 - Rootless in the City., Noel Timme. Published for the National Institute for Social work Training by the Bedford Square press , 26 Bedford Square , London W.C.I.

2 - Sex and Morality , A report to the British Council of Churches Oct . 66 . SCM Press Ltd ., Bloomsbury St ., London .

المَرَاجـــع

فهـــرس

البـاب الرابع
نظام الإسلام فى حال انحلال الأسرة

المراجــــع